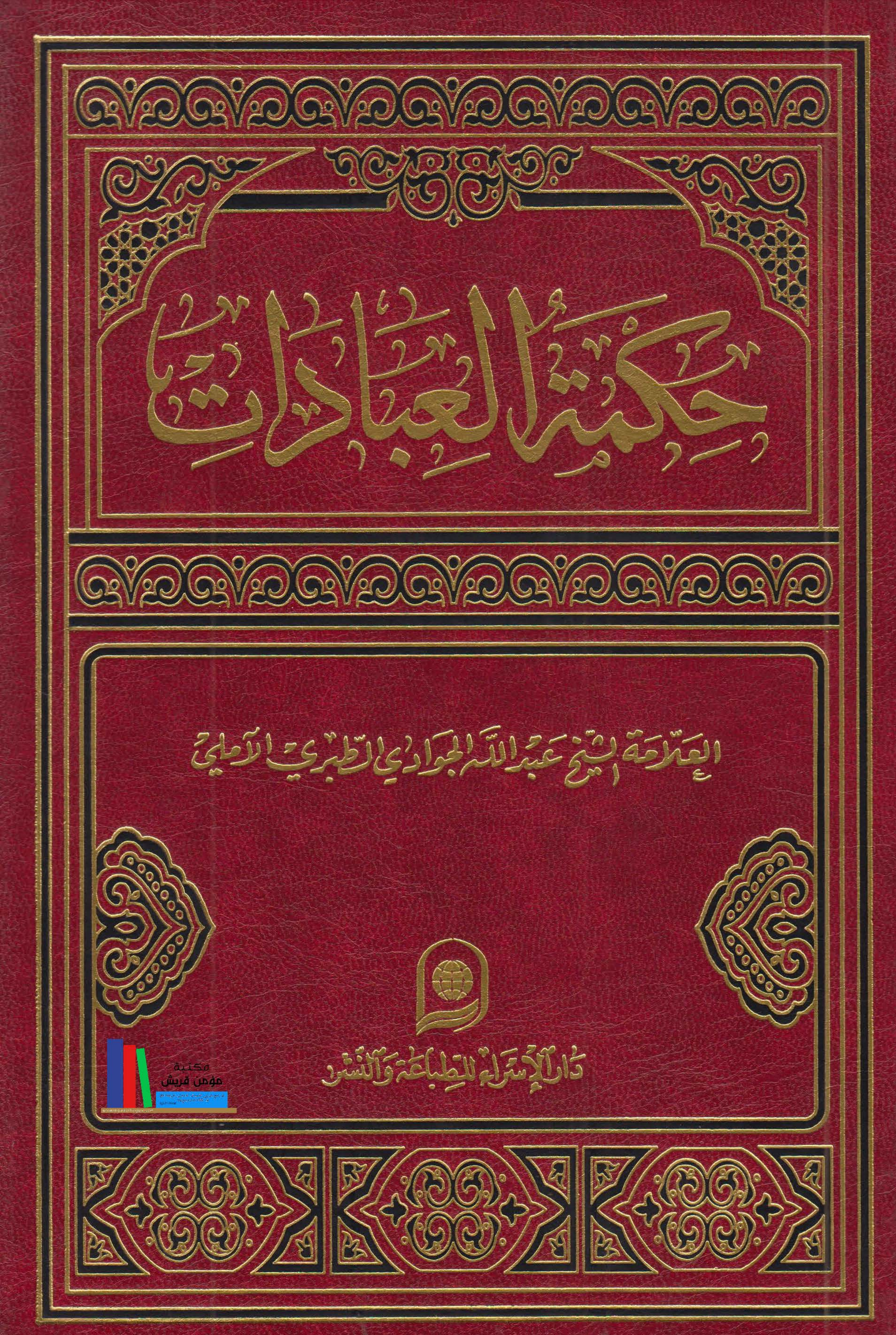


حكمة العبادات
العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي
دار الإسراء للطباعة والنشر
مكتبة مؤمن قريش

حِكمةُ العِبادات

العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي



● اسم الكتاب: .... حكمة العبادات
● تأليف : .... العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الآملي
● الطبعة : .... الثانية
● سنة الطبع : .... ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م بيروت

دار الإسراء للطباعة والنشر
لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع دكاش
بناية الحسنين ط ١. تلفون : ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

القسم الأول:

العبادات و حكمتها

القسم الثاني:
النيّة و حكمتها

القسم الثالث:
الطهارة و حكمتها

القسم الرابع:
الصلاة و حكمتها



القسم الخامس:
الصوم و حكمته

القسم السادس:

الاعتكاف و حكمته

القسم السابع:
تلاوة القرآن و حكمتها

القسم الثامن:
الدعاء و حكمته



القسم التاسع:

التولي و التبري و حكمتهما

القسم العاشر:
الذكر و حكمته



مقدمة الناشر

بسمه تعالى شأنه

«الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه»[1] والحمد لله الذي ألبس أهل العالم جلباب العبودية ورداء الفقر والمسكنة ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً﴾[2] لكي يتم إثر تلاقي الفقر و الغنى و العزّ و الافتقار ردّ السؤال بالعطاء و استبدال الفقر بالاستغناء ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[3] ويكون الناتج من هذا التلاقي و الحاصل من هذا الترابط زوال الفقر و ازدياد الغنى و انضواء العالم تحت ظلّ عزة الله و ظهوره و كبرياء الإله و حضوره.

و إنّ الذي يبدو مهماً في هذه الصنعة و ضرورياً في هذه الدراية هو نقطة الالتقاء و حلقة اللقاء، ألا و هو العبادة التي تمثل نقطة الوصل و حلقة الربط.

فهي مذاق الروح و موطن اشتياق النفس و هي السلّم للرقيّ و التعالي و هي الطريق للوصول إلى الجلال و الجمال، بيد أن لهذه الرقيقة السماوية أسرار و حكم و

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

٢. سورة مريم، الآية ٩٣.

٣. سورة الرحمن، الآية ٢٩.

لطائف و طرائف إن أدركها و استنار بها أحد لما ترك حلاوة طعمها و طراوة عطرها و لما فتأ عن القنوت داعياً «اللهمّ أذقنا حلاوة عبادتك».

و إنّ أركان العبودية و أضلاع عبادة الله سبحانه و تعالىٰ كما وردت في الحديث ثلاثة أشياء: «أن لا يرىٰ العبد لنفسه ممّا خوّله الله ملكاً، لأنّ العبيد لا يكون لهم ملك يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، و لا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً، و جملة اشتغاله فيما أمره الله به و نهاه عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالىٰ أن ينفق فيه، و إذا فوّض العبد تدبير نفسه علىٰ مدبّره هان عليه مصائب الدّنيا، و إذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالىٰ و نهاه لا يتفرّغ منهما إلىٰ المراء و المباهاة، و لا يطلب ما عند النّاس عزّاً و علوّاً، و لا يدع أيّامه باطلاً»[1].

فأيّما عبدٍ عَبَدَ الله سبحانه و تعالىٰ بهذه الرؤية يكون و كأنه يشهد جماله و جلاله من خلال هذه العبودية أو أنه يشعر علىٰ الأقل بأنه يقوم و يعقد و يركع و يسجد و يسلّم و يقنت بمرأىٰ و مشهد من الله عزّ اسمه فيهب له هذا الحضور حياة قلب جديدة. قال النبي ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، و إن كنت لا تراه فإنه يراك»[2].

و مما لا شكّ فيه أنه لا يذوق حلاوة العبادة و طراوتها إلا من أبعد حلاوة الذنب الكاذبة و لذة الفجور الزائفة عن نفسه. «كيف يجد لذة العبادة من لا يصوم عن الهوىٰ»[3].

و علاوة علىٰ الأسرار و الحكم الكامنة في أصل العبودية و حقيقتها، فإنّ لكلّ من مظاهرها و رموزها طرائف و ظرائف تؤمّن بعداً من أبعاد وجود الإنسان.

---

١. مجمع البحرين، ج٢، ص١٠٨٩.

٢. بحار الأنوار، ج٧٤، ص٧٤.

٣. شرح غرر الحكم، ج٤، ص٥٦١.



و إنّ هذا الكتاب القيّم الـذي ترشّـح عـن يـراع مؤلفـه الحكـيم، سـماحة آيـة الله الأستاذ جوادي الآملي (دام ظله)، الموسوم بحكمة العبادات و المرتب في عشرة أقسام قد تناول كلّ واحد منه نوعاً خاصاً من العبادة و قام ببيان أسرارها و حكمها.

فجرىٰ الكلام في القسم الأول عن العبادة و حكمتها، و في القسم الثاني عن النيـة و أسرارها، و في القسم الثالث عن حكمة الطهارة (الوضـوء و التـيمم)، و في القسـم الرابع عن باطن الصلاة و أسرارها و حكمها، و في القسم الخامس عن أسرار الصوم، و في القسم السادس عن عبادة الاعتكاف، و في القسم السابع عن حكمة تلاوة القرآن و رموزها، و في القسم الثامن عن أسرار الدعاء و آدابه و حكمه، و في القسـم التاسـع عن روح العبادات و هو التولي و التبري، و في القسم الأخير عـن الـذكر و حكمتـه و محوره و أقسامه.

جدير بالذكر أنّ المؤلف قد أفرد لمسألة الحج كتاباً خاصاً تحت عنوان صهباىٰ حج و تناول بحث الصلاة بالتفصيل في كتاب أسرار الصلاة.

هذا و إنّ معظم أبحاث الكتاب التي ألقيـت في شـهر رمـضان المبـارك عـلىٰ جمـع خاص من المخاطبين كانت قد طبعت من قبل منشورات الزهراء بعد أن تم تنظيم كلّ واحدة من هذه الجلسات علىٰ شكل دروس بواسـطة حجـة الإسـلام الـشيخ حـسين رضواني و بعد أن أعاد سـماحة الأسـتاذ (دام ظلـه) النظـر فيهـا تحـت عنـوان «أسرار العبادات» فشكر الله مساعيهم. و لكن بالنظر إلىٰ الفـترة الزمنيـة البعيـدة نـسبياً التـي مضت علىٰ طبعه و إلقاء بعض المباحث الجديدة و التي كان لبعضها دور المتمّم لمسائل الكتاب و كذا لما يبدو من ضرورة تنظيمـه و تقويمـه و ترتيـب تبويبـه و تركيبتـه مـن جديد تمت إعادة صياغته و وضع بين يدي الراغبين و المتعطشين للمعـارف و الحكـم الإلهية بالصورة الفعلية. آملين أن يقع موقع رضا الله سبحانه و قبوله.

و قد قمنا في هذه الطبعة بالفرز بين مباحث الكتاب و ترتيبها في عشرة أقسام منفصلة و تنقيح العبارات و وضع عناوين خاصة و إسناد الروايات إلى مصادرها و عمل فهارس فنية و دقيقة لكل واحد منها لما في ذلك من دور كبير في إغناء الكتاب و إعداده لانتفاع القراء منه بشكل أمثل.

علماً بأن ما أورده المؤلف في نهاية الكتاب من آراء متممة و أفكار رائقة إضافة إلى كلّ تلك المحاسن قد أضفت على ثراء الكتاب و غنائه و هذا ما سيجد آثاره و بركاته الباحثون في هذا الأثر النفيس.

و في الختام، نتقدّم بالشكر الجزيل لكلّ من ساهم في نشر هذا الأثر، و نخصّ منهم حجج الإسلام السيد عباس سالاري و محمد تقي سعيدي و كذا حجة الإسلام حسين شفيعي الذي بذل جهده في كلّ هذه المراحل المذكورة بدقة لإنهاء العمل و الذين ساهموا أيضاً في طباعة هذا الكتاب و إعداد صفحاته و أموره الجانبية.

سائلين العلي القدير أن يرفع درجات الشهداء العالية و المقام الشامخ للإمام الخميني ﷺ و أن يوفقنا أجمعين لخدمة الإسلام و الجمهورية الإسلامية و المجتمع الإسلامي العزيز تحت ظلّ ولاية قائد الثورة الإسلامية سماحة آية الله السيد الخامنئي (دام ظله العالي).

مركز إسراء للطباعة و النشر

المقدّمة

حكمة العبادة و ثمرتها

١ - إنّ كلّ معلول في نظام التكوين عبد لعلته و تابع لها في حدوثه و بقائه و مطيع لها في ذاته و صفاته و أفعاله؛ و لا سبيل لانفصام سلسة العلية، فلا نكوص في العلة عن الإشراف و الإفاضة و لا تنصّل للمعلول عن الانقياد و الخضوع. و إنّ استغناء المعلول المفتقر إلى العلة من الأساس، عن علته التي يعدّ اللازم الضروري لها هو عين الإفاضة على المعلول لا ينسجم مع أساس العلية و المعلولية؛ و من هنا فإن عالم الإمكان بأسره الذي هو معلول لله سبحاه إنما هو عبد محض للحق و لا يتمرّد عن امتثال أوامره التكوينية طرفة عين: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١]، و إنّ عناوين الإسلام[٢]، و التسبيح[٣]، و السجدة[٤]، و العبودية[٥]، و الإطاعة[٦]، الواردة في

---

١ . سورة يس، الآية ٨٢.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٨٣.

٣ . سورة الإسراء، الآية ٤٤.

٤ . سورة النحل، الآية ٤٩.

٥ . سورة مريم، الآية ٩٣.

٦ . سورة فصّلت، الآية ١١.

القرآن الكريم ناظرة إلى هذه المسألة، فلا يُعقل الكفر التكويني و لا يُتصوّر النفاق أو العصيان الطبيعي، و هذا هو الجبر العلّي الذي أذعن به كل علماء العقل ما عدا الأشاعرة الجبرية حيث رفضوه في نظام التكوين استناداً إلى زعم الأولوية و نفي ضرورة العلية، لأنهم استبدلوا أصل العلية الفلسفية بجبر العادة و أنكروا الربط الضروري. و لو تم إرجاع العلية إلى الشأنية، لاتّضحت مسألة اتّباع المظهر للظاهر و كذا الإسلام و التسبيح و السجدة و العبودية و إطاعة جميع المظاهر لظواهرها بشكل جليّ؛ لأنّ الصورة المرآتية لا مقام لها سوى الخضوع أمام صاحب الصورة.

٢- لا سبيل لأيّ نوع من الجبر و التفويض في نظام التشريع الذي هو الأساس لكلّ ضرب من ضروب الامتحان و التكامل الاختياري و إنّ الموجود المفكّر المختار الخاضع للقانون حرّ في اختيار طريقه و مختار في مواصلته و طليق في قبوله و نكوله و مخيّر في التنسيق بين تطابق الباطن و الظاهر أو عدم التنسيق بينهما باسم الإيمان أو النفاق؛ إذ لا معنى للامتحان و لا سبيل للتكامل من دون وجود الحرية. ثم إنّ نطاق نظام التشريع أضيق من دائرة التكوين، إذ لا سبيل للتشريع إلى غير الموجود الواع، بيد أن حدود الانقياد أو التمرّد في قارّة التشريع أكبر؛ و لذا فقد وقعت بعض القوانين التشريعية في طيّ النسيان فتورّط البعض في مزالق العصيان و تلوّث بعض بلوث النفاق و آخرون بشائبة الرياء و بالتالي فقد نال البعض مقام الخلوص و تحققوا بحقيقة الأصالة و الطهارة. و لذا فإن الإسلام و الكفر، و الإيمان و النفاق، و الطاعة و العصيان، و الصواب و الخطأ و ما يجمعهم و هو الحقّ و الباطل مختصة بنظام التشريع في ثقافة القرآن الكريم و لا يوجد في نظام التكوين سوى الإسلام و الطاعة و الصواب و ما يجمعهم و هو الحق؛ لأن زمام كلّ موجود في نظام التكوين بيد الله سبحانه و تعالى و عمله أيضاً على صراط مستقيم[1]، و إن دار الحديث عن الضلالة و

---

١. سورة هود، الآية ٥٦.



البطلان و أمثالها بشأن بعض مخلوقات عالم الطبيعة فهو إما ناظر إلى نظام التشريع و إما أن يكون أمراً نسبياً لا نفسياً؛ لأن الموجود العينيّ إنما هو عين الحقّ و الصواب و بالنسبة لمبدئه الفاعلي مطيع محض.

٣- إنّ لكل اسم من أسماء الله الحسنى اقتضاء يمكن جعله باللغة البرهانية حداً وسطاً و الخروج منه بنتيجة معينة. و إنّ الله سبحانه لحكمته لا يصدر منه فعل عبث، لأنه حكيم و الحكيم لا يقوم بفعل إلا و من ورائه هدف يبغيه و لذا فإن فعل الله فعل هادف[1]، و لغنائه الذاتي لا يتأتى لأيّ شيء أن يكون هدفاً لله سبحانه[2]، إذ لاستلزم أن يكون الله ناقصاً من دون هذا الهدف و لا يكمل إلا عبر الوصول إليه مع أنّ واجب الوجود هو عين الكمال المحض و لا يُحدّ بحدود، و لا يمكن فرض كمال خارج عن ذاته. و الجمع بين هذين الاقتضاءين هو أنّ بارئ عالم الإمكان منزّه عن الهدف لأنه عين الهدف لكل موجود كما هو عين المبدأ لكل وجود، بيد أنّ للعالم هدف وجوديّ يناله و إن كان البعض منهم قد ينحرف عن الجادة في وسط الطريق. ثم إنّ هدف الإنس و الجنّ في نظام التشريع هو تكاملهم في العبادة، و لو أنّ الإنسان الذي له روح عقلية مجرّدة قام بتربيتها و سبق أصحابه لأصبح هدفاً لكثير من المخلوقات التي دونه في المرتبة و إن كان الهدف الأخير للجميع هو الله سبحانه و تعالى؛ و لكن كما أنّ الصادر الأول في قوس النزول هو جوهر العقل فإنّ الراجع و العائد الأكمل في قوس الصعود هو جوهر العاقل، و إنّ مدار الإمكان يبتدأ بالعقل و ينتهي بالعاقل، و هذه المسألة لا تستند إلى تصوّر العقول العشرة و أمثالها التي لم تعدّها الحكمة «المشائية» من مسائلها الفلسفية القطعية و إنما ذكرتها على حدّ الاحتمال بل تعتمد على أساس تشكيك الظهور أو الوجود التي تدركها الحكمة المتعالية أو يشهدها العرفان.

---

١. سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

٢. سورة إبراهيم، الآية ٨.

٤- إنّ للعبادة درجات كثيرة بعضها هدف أوسط و بعضها الآخر هدف أخير. و بما أنّ العمل محدود و الشهود غير محدود فإنّ العبادات العملية أهداف محدودة و العبادات الشهودية أهداف غير محدودة. و السرّ في محدودية العبادات العملية هو أنّ التكليف ينقطع بالانتقال من الدنيا إلى الآخرة بيد أنّ الشهود مستمر على الدوام، و إنّ التكامل العملي الناتج عن الفعل الاختياري للإنسان ليس له ظهور في القيامة؛ و لكنّ التكامل العلمي النابع من إفاضة الله سبحانه متوافر على الدوام فتُكشف الكثير من حجب الغيب بعد الموت و يتأتى شهود ما كان مغيباً عن الأبصار. و من هنا يعتبر القرآن الكريم الهدف من خلق العالم هو معرفة الإنسان بقدرة الله و علمه المطلق: **﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾**[1]. ثم إنّ العلم الحصولي و اليقين الاستدلالي و إنّ عُدّ في حدّ ذاته كمال علمي و جُعل هدف، إلا أنّه يعتبر وسيلة بالنسبة للعلم الحضوري و اليقين الشهودي: **﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقينِ﴾**[2]، أي يمكن الوصول إلى عين اليقين من خلال علم اليقين. و على هذا يمكن اعتبار الهدف النهائي من الخلقة هو اليقين الشهودي بالمعارف المتكئ دوماً على العبادة، و إن كان اعتماده عليها في كلّ نشأة يتناسب مع تلك النشأة (فيستند في الدنيا إلى العبادات التشريعية و يعتمد في الآخرة على باطنها التي يظهر فيها)، و لو فُقدت العبادة لحظة واحدة لسُتر المشهود و حُجب الشاهد؛ لأن الوسيلة الوحيدة لشهود السالك و ظهور الغيب هي العبادة: **﴿وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقينُ﴾**[3] لا أن تسقط العبادة بعد اليقين، لأنّ زوال العبادة يستلزم زوال اليقين، حيث أنّ أسوء

---

١. سورة الطلاق، الآية ١٢.

٢. سورة التكاثر، الآية ٥ - ٧.

٣. سورة الحجر، الآية ٩٩.



حجاب هو العصيان. و إنّ الذي يظهر من آية سورة «الطلاق» هو أنّ الهدف من خلق العالم الذي يمثّل ظهور الحقّ في مرآة الخلق هو معرفة الإنسان السالك بعلم الله و قدرته فيؤدّي هذا العلم الشهودي بالعارف الواصل إلى أن يكون مظهراً لـ «العليم» و «القدير» و يكون قادراً بإذن الله سبحانه و بواسطة «بسم الله الرحمن الرحيم» أن يقوم في الدنيا بنفس ما يقوم به يوم القيامة بمجرّد الإرادة و أن يشهد كلّ ما يريد الإحاطة به. و هذا ما يمكن استنباطه من الحديث القدسي المعروف الذي جعل ثمرة ظهور الذات (و المراد بظهور الذات هو نفس تجلي الحق في مرآة الخلق) التي كانت كنزاً مخفياً هو معرفة الإنسان السالك بالغيب المطلق بمقدار وسعه. و لو كان هناك كلام في سند الحديث المذكور فإنّ آية سورة «الطلاق» تؤيّد دلالته؛ لأن الآية المذكورة تعتبر العلم و القدرة كليهما هدفاً للخلقة و بما أنّ قدرة الله هي عين علمه فإنّ قدرة الإنسان العارف أيضاً تصبّ في مجرى علمه؛ لأنّ العقل العملي و النظري متحدان في السالك الواصل.

٥- إنّ الذي يظهر من خلال عمل الجوارح أو خواطر الجوانح، إنما هو من أحكام العبادة أو آدابها و لا يعتبر من أسرارها؛ و الذي يظهر عبر شهود عقل النظر و انبعاث عقل العمل قد يدخل في عداد حكمة العبادة؛ لأن مجرّد خطور القلب اليسير تحصيله و المستخدم في الفقه الأصغر و إن كان «نية» بالحمل الأولي إلا أنه «غفلة» بالحمل الشايع، و لذا فهو لا يكفي لاستدامة حضور القلب بل و ينسجم منذ البداية مع أية خاطرة أخرى. و إنّ ذلك التوحيد المتصّور الذي ينسجم مع أيّ ضرب من الشرك إنما هو شرك في لباس التوحيد؛ و العارف الأصيل، هو ذلك السالك الواصل الذي لا يردعه شهود الكثرة عن شهود الوحدة بل و لا يحجبه شهود الوحدة عن شهود الكثرة أيضاً ليكون جامعاً لكلا الأمرين، و لكن بشهود الحق لا بعرفان الخلق كما هو نتيجة قرب الفرائض. و كما أنّ مراعاة أحكام الفقه الأصغر واجبة و لكنها غير كافية لنيل حِكَم العبادات، كذلك مراعاة تعاليم الفقه الأوسط و هو الفنّ الشريف

للأخلاق المستدلة لازمة و لكنها غير وافية؛ بل لا بدّ من اللجوء إلى إرشادات الفقه الأكبر و هو العرفان النظري و العملي ليتأتى الوصول إلى مصدر نزول العبادة بضمير شاهد و سرّ طاهر و القيام بها عبر مجاري المعبود المُدركة و المُحرّكة، كما يشير حديث «قرب النوافل»[1]، إلى جانب من ذلك. فيصل السالك الواصل بعد ذاك إلى حكمة العبادة بل و يصبح موضع سرّ المعبود و عيبة علمه: «هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ وَ لَجَأُ أَمْرِهِ وَ عَيْبَةُ عِلْمِهِ وَ مَوْئِلُ حُكْمِهِ وَ كُهُوفُ كُتُبِهِ وَ جِبَالُ دِينِهِ بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ وَ أَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِه»[2]. و بما أنّ سرّ العبادة تعتبر بمثابة روحها و حِكَمها و آدابها بمثابة بدنها، لذا تجد القرآن الكريم دوماً ما يقدّم ذكر الإنفاق السرّي على الإنفاق الجهري كما و غالباً ما يقدّم في هذا المضمار ذكر الليل على النهار[3]، و إنّ السبب في تقدّم السرّ على الجهر و الليل على النهار هو أنّ شهود الحقّ سيكون أشدّ جلاءً و صفاءً في نشأة الخلوة و الابتعاد عن الأغيار. ﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قيلاً﴾[4]. علماً بأنّ السالك الواصل إن أصبح مظهراً لـ «لا يشغله شأن عن شأن»[5]، فيسكون ليله و نهاره متّحدان و سرّه و جهره متساويان؛ إذ نال مرتبة لا سبيل للصباح و المساء و لا مجال للسرّ و الجهر الوصول إليها، لأنها اجتازت دائرة القياس و تعدّت حدود النسبة؛ و لو قضى سالك طوال الليل بذكر آية خاصة فهو إما من باب تعليم الغير أو أنه لم يصل بعد إلى الهدف النهائي كما ورد عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قضى ثلثي ليلة بتلاوة ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[6]، و كرّر ﴿بِسْمِ اللهِ

---

١. بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٢، ح٢١.

٢. نهج البلاغة، الخطبة الثانية.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٧٤. سورة الرعد، الآية ٢٢. سورة إبراهيم، الآية ٣١. سورة النحل، الآية ٧٥.

٤. سورة المزّمل، الآية ٦.

٥. من فقرات دعاء الجوشن الكبير و كذلك: بحار الأنوار، ج٨٧، ص١٥٤.

٦. سورة المائدة، الآية ١١٨.

﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ عشرين مرّة[١]، كما و قضىٰ سعيد بن جبير ليلة كاملة في هذه الآية: ﴿وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٢].

٦- هناك ثمة علامات للوصول إلىٰ أسرار العبادة منها ما هو شرط طولي لا عرضي لصحة العبادة و قبولها كالطهارة التي تعدّ شرطاً لصحة الصلاة: «لا صلاة إلا بطهور»[٣]؛ كما أنّ «فاتحة الكتاب» تعتبر جزءاً قطعياً منها: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[٤]؛ بيد أنّ مثل هذا الاشتراط و التوقّف و إن كان متصفاً بالتقدم الرتبي و لكنّه يقع من حيث معرفة الأسرار في عرض العبادة المشروطة و الموقوفة لا في طولها؛ لأن الشرط الطولي لقبول الطهارة و الصلاة أيضاً هو التقوىٰ: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٥].

و قبول التقوىٰ أيضاً رهن ولاية الإنسان الكامل حيث لا تقبل أية عبادة و حتىٰ التقوىٰ من دون تولي المعصومين عليهم السلام، بل و لا تقبل أيضاً مع عدم الاعتقاد بولايتهم التكوينية حتىٰ مع قبول كونهم ولاة أمر؛ لأن الولاية التكوينية هي سرّ ولايتهم و قيادتهم للمجتمعات البشرية، و معنىٰ ذلك أنّ قبول ولايتهم كالصلاة و الصوم و الزكاة و الحج و ما إلىٰ ذلك تعتبر من فروع الدين[٦]، و لكلّ فرع أصل يعدّ سرّاً لذلك الفرع، فالذي يدخل في عداد فروع الدين هو قبول ولايتهم و الذي يعتبر من أصول الدين هو الإيمان بضرورة تنصيبهم من قبل الله سبحانه و تعالىٰ و كونهم مظاهر لله عزّ و جلّ.

---

١. أسرار القرآن للغزالي، ص٢٦.

٢. نفس المصدر.

٣. بحار الأنوار، ج٧٧، ص٢٣٧، ح١١.

٤. مستدرك الوسائل، ج٤، ص١٥٨، ح٤٣٦٥.

٥. سورة المائدة، الآية ٢٧.

٦. وسائل الشيعة، ج١، ص١٣ و ١١٨، الباب ١ و ٢٩ من أبواب مقدمة العبادات.

و يتّضح من هذا المنطلق أنّ حقيقة الإنسان الكامل هي الحكمة لكلّ ضرب من ضروب العبادة و كلّ سالك يصل إلى سرّ العبادة بمقدار ما ناله من الكمال الإنساني و إنّ أكملهم و هم المعصومون عليهم السلام قد حازوا على أعلى مراتب أسرار العبادة و لذلك فهم الصراط المستقيم و ميزان الأعمال و.....

٧- للوصول إلى هذا المقام الرفيع و الانتصار على المنافس الذي لا تدوم مماشاته و الذي سيؤول أمره إلى الخسران لا مفرّ من التعقّل و اليقظة في الحفاظ على حرم القلب الآمن و لا محيص للحكمة من التدبّر و التعمّق و لا منال للاجتهاد من دون طهارة الضمير و صيانة السرّ: «الظفر بالحزم و الحزم بإجالة الرأي و الرأي بتحصين الأسرار»[١].

٨- هناك و بعناية الله رسالة أخرى قيد التدوين تعنى ببيان أسرار العبادة و لذا من الأنسب أن يدور الكلام عن الكتاب الحاضر. يحتوي هذا الكتاب على مجموعة من المحاضرات التي ألقيت في شهر رمضان المبارك سنة ١٤٠٥هـ على جمع من الأخوة في حرس الثورة الإسلامية بقم و تناولت البحث في حِكَم الصوم أكثر من حِكَم سائر العبادات و ذلك لمناسبة شهر رمضان و كذا جانباً من حِكَم القرآن حيث أنّ هذا الشهر هو ظرف لنزول الكثير من صحف الأنبياء عليهم السلام، كما و تم التعرض لنبذة من مباحث ليلة القدر و طائفة من كلمات الإمام المجتبى عليه السلام حيث ولادته في النصف من شهر رمضان، و لوقوع فتح بدر و فتح مكة في هذا الشهر المبارك و من جانب آخر فقد تواقتت تلك الأيام مع قصف المناطق السكنية و الهجوم الصاروخي و الكيمياوي من قبل حزب البعث العراقي بأمر صدام اللعين، جرى الحديث عن جانب من الجهاد و الإيثار و التضحية للشعب الإيراني المسلم، و لتعظيم هذا الشهر المبارك و تعريفه

---

١. نهج البلاغة، ٤٨.



استعين بخطبة الرسول الأكرم ﷺ في آخر جمعة من شهر شعبان و كذا دعـاء الـوداع للإمام السجاد عليه السلام، كما و تمّ بيان سرّ تسمية هذا الشهر بشهر الله في خطبة النبي ﷺ و دعاء الإمام السجاد عليه السلام.

ثم إنّ السرّ في سرعة انقضاء هذا الشهر المبارك عـلى المـؤمنين و كثـرة طولـه عـلى المجرمين كما جاء في دعاء الوداع: «ما كان أطولك على المجرمين» هـو نفـسه بالنـسبة ليوم القيامة حيث أنه للمؤمنين الصادقين بمقدار صلاة الفريضة و للآخـرين بمقـدار خمسين ألف سنة[1]! و دليل ذلك هو أنّ المؤمن نور ممثّل يسير في مراحل النـور، و سـير النور سهل و سريع لأنه يخرق كلّ حجاب؛ و إنّ ما هو مشهود من النور الحسي إنما هو غيض من فيض ذلك النور العقلي. يروي الإمام الصادق عليه السلام عـن آبائـه المعـصومين عن الإمام أمير المؤمنين عليهم السلام أنه قال: «المؤمن يتقلّب في خمسة من النور، مدخله نور و مخرجه نور و علمه نور و كلامه نور و منظره يوم القيامة نور»[2].

---

١ . سورة المعارج، الآية ٤ و رواية في تفسير هذه الآية.

٢ . الخصال، ج١، ص٢٧٧.

شكر و تقدير

لا يمكن تصوّر أيّ إحسان و لطف من قبل غير الله سبحانه بالاستناد إلى التوحيد الأفعالي: ﴿وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[1]، بيد أنّ المؤمنين الربانيين مظاهر فضل الله، و لذلك فإنّ شكرهم هو حمد لوليّ النعمة الذي ظهر في مقام الفعل في كسوتهم[2]، و من هنا قال صاحب المقام المحمود: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[3]، كما أن المبدأ الفاعلي لأي حمد و شكر هو ذات الله القدسية أيضاً، لأنّ الله عزّ اسمه حامد محض و محمود صرف كذلك و لذا فإن الحمد المطلق سواء كان بمعنى الحامد أو بمعنى المحمود مختص بالله. و بما أنّ سماحة حجة الإسلام الشيخ حسين رضواني ـ هداه الله إلى مقام الرضا ـ قام بخلوص نية و علوّ همة بنقل جميع المحاضرات من الأشرطة و استخراج مصادرها، لذلك نتقدم إلى سماحته بالشكر و التقدير سائلين العليّ القدير مزيد علم و عمل له و لسائر الفضلاء الكرام و كذا صيانة الحوزة المقدسة بقم و سلامة قائد الثورة الإسلامية. *قم، جمادى الثاني* ١٤٠٩

جوادي الآملي

---

١. سورة النحل، الآية ٥٣.

٢. من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٨٠.

٣. نفس المصدر.

القسم الأول:

العبادات و حكمتها

الإنسان و حكمة العبادات

إنّ لكلّ ما في عالم الدنيا باطن لأنها المنزل الأدنى للعوالم الأعلى، و كلّ ما في عالم الدنيا مثال لما في عالم المعنى. و الأحكام و القوانين الإلهية التي ظهرت في الدنيا على صورة دين و تعاليم عبادية تحمل في مكنونها أسرار و باطن.

و إنّ للعبادة التي تمثّل الهدف من خلق الإنسان حكمة و هي غير الآداب و الأحكام المختصة بها. فإنّ أحكامها هي الواجبات المبيّنة في الكتب الفقهية. من قبيل كيفية أداء الوضوء و كيفية الصلاة و ما هي واجباتها و أركانها و... .

و للعبادات آداب أيضاً منها ما هو مذكور في الكتب الفقهية باسم المستحبات و منها ما هو مدوّن في الكتب الأخلاقية. و القسم الثالث حكمة العبادات، فإنّ الإنسان يُحشر مع سرّ العبادة. و هي التي لم ترد في الكتب الفقهية و لا في الكتب الأخلاقية تمثل روح العبادة و باطنها المرتبطة بباطن الإنسان الذي سيكون حشره معها أيضاً.

فقد كتب الشهيد الأول واجبات الصلاة في كتاب موسوم بـ «الألفية»، و

مستحباتها البالغ عددها نحو ثلاثة آلاف في كتاب مدعوّ بـ «النفلية»؛ و أما المرحوم القاضي سعيد القمي و آخرون كسماحة الإمام الخميني ﷺ فقد ألفوا في أسرار الصلاة، و من الواضح أنّ حِكَم الصلاة و أسرارها غير آدابها. و قد أمرونا بتعلّم الحكمة و العمل بها. فإنّ الصلاة و الصوم و الوضوء و سائر التكاليف من الأحكام الإلهية و يتحتّم علينا إضافة إلى العمل بكل واحد من هذه الأحكام السعي لمعرفة حِكَمها النهائية أيضاً.

حكمة ألقاب المعصومين عليهم السلام و أوصافهم

لا تقتصر هذه الحقيقة على العبادات بل إنّ لألقاب المعصومين عليهم السلام و أوصافهم حِكَم تختلف عن معانيها الظاهرية. فيجب علينا التفوّه بهذه الكلمات و السعي أيضاً لمعرفة باطنها و حِكَمها.

سأل شخص الرضا أبا الحسن عليه السلام: لِمَ كُنّي النبيّ صلى الله عليه وآله بأبي القاسم؟ فقال: لأنه كان له ابن يقال له «قاسم» فكُنّي به. قال له: يا ابن رسول الله فهل تراني أهلاً للزيادة؟ فقال: نعم، ... أما علمت أن علياً قاسم الجنة و النار؟ قال: بلى، قال: فقيل له أبو القاسم لأنه أبو قاسم الجنة و النار[1]. و معنى ذلك أن علياً يوم القيامة يدعو أهل النجاة إلى الجنة و يرسل أهل الجحيم إلى النار ـ بإذن الله ـ فهو القاسم، و بما أن الله سبحانه نقل علياً في طفولته إلى أحضان النبي و صار عندها تلميذاً عنده، و أن كل طالب بمثابة الإبن لمعلمه، فعلي ابن النبي.

فإنّ هذا المعنى و التفسير لأبي القاسم هو من حكمة هذه الكنية. و هذا ما لا يتأتى لأيّ أحد معرفته و تفسيره.

---

١. معاني الأخبار، ٥٢، ح٣.

نقل المرحوم الحاج الشيخ محمد تقي الآملي ﷺ ـ ذلك الإنسان الكامل في العلم و العمل ـ هذا الحديث يوماً بعد درسه ثم قال: لو كان لهذا الشخص مزيد من شرح الصدر و كرّر سؤاله لذكر له الإمام بياناً آخر.

و لذا فإنّ ما ورد في كلمات المعصومين عليهم السلام من ألفاظ للعبادات إنما هو من باب أنهم يكلّموننا على قدر عقولنا لا أن تكون هذه الألفاظ التي نقرؤها هي حكمة الصلاة و حقيقتها؛ بل إنّ من وراء هذه الألفاظ و المعاني و المفاهيم حقائق. فإن وسّعنا فكرنا سنقف على شيء مما وراء هذه الألفاظ من مسائل أخرى. فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»[1]، و كلّ يفهم بمقدار فكره.

الإمام السجاد و حكمة العبادة

إنّ خطبة الإمام السجاد عليه السلام التي ألقاها على منبر الشام تدلّ على أنّ المعصومين عليهم السلام قد وصلوا إلى حكمة العبادات، حيث يقول في مقطع من كلامه: «أنا ابن مكة و منى، أنا ابن زمزم و الصفا»[2]، و معنى ذلك أني قد وصلت إلى تلك العبادة التي لابد من أدائها في مكة و منى و أنها هي التي ساقتني إلى هذا المكان، و ليس المراد بها أنني ابن أرض مكة و منى. فسكان منى و أهلها ليسوا أبناء منى و إنما أبناؤها هم الذين ضحّوا من أجل بقاء الدين على حياته مصوناً من الزوال و الاضمحلال. على الرغم من أنّ الحسين بن علي عليه السلام في هذا السفر رجع من مكة و لم يذهب إلى المشعر و منى و عرفات و لم يضحّ في منى، و قبل العاشر من ذي الحجة توجّه من مكة إلى الكوفة و كان الإمام السجاد عليه السلام أيضاً بصحبته و لكنه يقول رغم ذلك: «أنا ابن مكة و منى».

---

١ . الكافي، ج١، ص٢٣، ح١٥.

٢ . خطبة الإمام السجاد عليه السلام في جامع دمشق (بحار الأنوار، ج٤٥، ص١٣٨؛ تذكرة الخواص، ص١٤٩).

فمن كان موطّناً نفسه لتقديم أفضل الشهداء و التضحية بهم لصيانة دين الله قد نال حقيقة التضحية؛ و هو ابن منىٰ و إن لم يشهدها.

و قد ذكر الله سبحانه و تعالىٰ مبيناً حكمة التضحية بأنّ لها ظاهراً و باطناً؛ ظاهرها لا يصعد إلىٰ الله و باطنها يصل إليه: **﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى﴾**[1]، أي لن يصعد إلىٰ الله لحم الأضحية و دمها، و إنما الذي يصعد إليه هو التقوىٰ المقترنة بعملية التضحية و ذبح الغنم و الإبل التي تمثل روح العبادة و باطنها و حكمتها.

فقد كان أهل الجاهليّة إذا ذبحوا القرابين، علقوا علىٰ جدار الكعبة شيئاً من لحومها و لطّخوه بشيء من دمائها لكي تقبل! فجاء الإسلام و حكم علىٰ هذا العمل بالبطلان. إذن فالإنسان المتقي الذي نال في الواقع باطن العبادة و يسعىٰ إلىٰ نيل حكمتها النهائية هو الذي يصل إلىٰ الله.

عنصر العشق و المحبة في حكمة العبادات

إنّ السبيل للوصول إلىٰ حكمة العبادات هي أن لا يرىٰ العابد إلا المعبود. و الركن الأساسي لذلك هو اختصاص محبة الإنسان بالله و ثمرتها زوال التشويش و الاضطراب؛ لأن الفاني لم يعد محبوباً له و محبوبه باقٍ لا يعتريه الفناء. و لذا تجد العارف لا ينتابه الحزن و لا يغمره الهم و الغم.

فإنّ الإنسان قد يغتم علىٰ ما مضىٰ و يقلق علىٰ ما سيأتي. بيد أنّ الذي نجا من الماضي و المستقبل لا يعبأ بهما و قد جاء من زمن يفوق هذا الزمان و اجتاز الماضي و المستقبل. فلم يفقد قبل هذا شيئاً حتىٰ يعتريه الغم و لن يفقد بعد ذلك شيئاً حتىٰ ينتابه القلق من الآن. و علىٰ حدّ تعبير ابن سينا:

---

١ . سورة الحج، الآية ٣٧.

العارف هشّ بشّ بسّام، يُبجّل الصغير من تواضعه كما يُبجّل الكبير و ينبسط من الخامل مثل ما ينبسط من النبيه و كيف لا يهشّ و هو فرحان بالحق و بكلّ شيء فإنه يرىٰ فيه الحق[1].

و هذه هي علامة الوقوف علىٰ حكمة العبادات.

العشق و الشوق

قال الإمام الصادق عليه السلام: «هل الدين إلا الحبّ؟»[2]. و قد كان الأئمة المعصومون عليهم السلام يعبدون الله لأنهم أحبّوه و وجدوه أهلاً للعبادة، «بمحبتك يا أمل المشتاقين»[3]، و الشوق هو الذي يسوق الإنسان إلىٰ الله، لا أن تكون الجنة هي الهدف، و «الأمل» هو الأمنية التي تجرّ الإنسان إلىٰ الهلع و تسوقه إلىٰ الولع، فقد يكون الإنسان راجياً و قد يكون آملاً. و الشوق الذي يكون متعلّقه باطلاً إنما هو شوق كاذب، و الشوق الصادق هو المتّجه نحو الله سبحانه و تعالىٰ، بحيث يكون الإنسان بادئ الأمر مشتاقاً إلىٰ الله و بالتالي عاشقاً له.

و الفرق بين الشوق و العشق هو أنّه يُطلق «الشائق» علىٰ من يطلب الشيء و هو فاقد له و «العاشق» علىٰ من وصل إلىٰ مقصوده فيحفظه. إذ يقال للظمآن الذي يُفتّش عن العين بأنه: مشتاق للعين، و يقال للذي وصل إلىٰ الماء بأنه: عاشق للعين.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبَادَةَ فَعَانَقَهَا وَ أَحَبَّهَا بِقَلْبِهِ وَ بَاشَرَهَا بِجَسَدِهِ وَ تَفَرَّغَ لَهَا فَهُوَ لَا يُبَالِي عَلَىٰ مَا أَصْبَحَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ عُسْرٍ أَمْ عَلَىٰ يُسْرٍ»[4].

---

١ . الإشارات و التنبيهات، ج٣، ص٣٩١.

٢ . بحار الأنوار، ج٦٩، ص٢٣٧.

٣ . مفاتيح الجنان، مقطع من دعاء اليوم التاسع من شهر رمضان المبارك.

٤ . الكافي، ج٢، ص٨٣، ح٣.

إذن فأفضل الناس هو من يعشق العبادة و قد حرّضَنا هذا الحديث على اشتياق العبادة بادئ الأمر و بالتالي عشقها.

و قد قيل: إنّ كلمة «عشق» مشتقة من نبات خاص اسمه «عشقة» و هو نبات إذا التصق بجذع الشجرة لا ينفكّ عنها و يقطع عليها طريق نفسها حتى يصفرّ لونها شيئاً فشيئاً فتتساقط أوراقها و تيبس في آخر المطاف، فيقال عند ذاك: هذه الشجرة قد أخذتها «العشقة». و يُطلق العاشق على مثل هذا الإنسان.

فإنّ العبادة ليست بالأمر المهم؛ و إنما المهم هو عشق العبادة و حبّ الصلاة و باطنها. كما أنّ الحرب ليست مهمة و المهم أن يكون الإنسان محباً للجهاد في سبيل الله.

حيث نجد أنّ جميع المحاربين في عالم الطبيعة قد ضمر ذكرهم و أما أسماء المجاهدين المسلمين فقد بقي ذكرها في العالم و سيبقى إلى الأبد. فهل كان القتل الغاشم قليلاً في هجوم المغول؟ فكم من الذين قلعوا جلود رؤوسهم و ملؤوها بالتبن و وضعوها على القصب! فلِمَ دُفن ذكرهم في كتب التاريخ؟ و لِمَ لم يبق لهذا الكلام أثر؟ كما و قام المغول أيضاً بتقطيع البعض إرباً إرباً و تقسيم أعضائهم من الرؤوس و الأيادي و الأرجل ما بين بغداد و تبريز و شيراز ليبثّوا الرعب و الوحشة في قلوب سكّان تلك المناطق فيلجؤون إلى الجمود و الركود!

إلا أنّ هذه الوقائع دُفنت و لم يبق لها أثر سوى في كتب التاريخ و ذلك لتجرّدها من الروح و الباطن.

و أما المجاهدون المسلمون فهم يستجلبون أنظار التاريخ؛ لأن في حربهم روح و لم تكن طلباً للدنيا و الجاه و من أجل النفس. فمن يقاتل من أجل التراب ستكون قيمة دمه بمقدار التراب أيضاً و من يقاتل في سبيل الله فإن دمه «ثار الله» و مدعاة لذكر الله.

فإنّ المحب للجهاد في سبيل الله يحيى إلى الأبد و المصلي و الصائم يبقى خالداً أيضاً. و كم هناك فرق بين القائل: إني أصلي و قول سيد الشهداء عليه السلام: إني أحب الصلاة.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لا يجمع الله لمؤمن الورع و الزهد في الدنيا إلا رجوت له الجنة و إني لأحب للرجل المؤمن منكم إذا قام في صلاته أن يقبل بقلبه إلى الله تعالى و لا يشغله بأمر الدنيا فليس من مؤمن يقبل بقلبه في صلاته إلى الله إلا أقبل الله إليه بوجهه و أقبل بقلوب المؤمنين إليه بالمحبة له بعد حب الله إياه»[1].

أولياء الله و دار العبرة

يصف الله البعض في القرآن الكريم بأن له نوراً قائلاً: ﴿وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشي بِهِ فِي النّاسِ﴾[2]، فيتشعشع منه النور حين يمشي بين الناس؛ و مشيه و كلامه و عمله و سلوكه نور. إذا جالسه المرء يتذكر الله سبحانه؛ إذ لا يتكلم عن المتاع و المأكل بل يتحدّث عن الآيات و الروايات.

فإنّ أولياء الله يتكلّمون لا أنهم يسكتون و لكنهم في الخلوة يلزمون الصمت و يتفكرون. و تراهم بين الناس يتحدّثون ما بين جواب سؤال أو طرح مسألة. كما أن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن مجلساً بارداً حيث كان يجيب على الأسئلة إذا سألوا أو يبتدأ بالكلام إذا سكتوا.

فإنّ أولياء الله إذا نظروا إلى العالم اقترن نظرهم هذا بالنظرية التوحيدية؛ فيعتبرون و اعتبارهم هو العبور من الصفات الرذيلة إلى الصفات الحميدة[3]. فمن لم يعبر من الرذائل إلى الفضائل حين مواجهة الأحداث ليس بمعتبر و إنما هو ناظر. و من عبر من السيئة إلى الحسنة فهو معتبر، و تكون نظرته نظرة اعتبار، فهؤلاء هم أهل الذكر و لسانهم يلهج بذكر الله و كما أن الله سبحانه قد وصف القرآن الحكيم من أوله إلى آخره

---

١. الأمالي للمفيد، ص١٦٥، المجلس ١٨، ح٧.

٢. سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

٣. الكافي، ج٢، ص٢٣٧، ح٢٥.

بـ «الذكر»، فإن إرشاد هؤلاء و تعليمهم مقترن بالحكمة و حركتهم بين الناس توجب البركة و تعلّمهم طريقة الحياة و هي مجرىً لفيض الحق أيضاً. فبهم تحلّ بركات الله على الأمة الإسلامية و حياتهم و طريقتهم مباركة. و يقابلهم الذين يمشون على بطونهم ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾[1]، و يصبّون همّهم كالزواحف للعمل من أجل البطن.

كانت مدينة قم موطناً لبعض أصحاب الإمام الرضا عليه السلام و منهم «زكريا بن آدم» الذي كتب رسالة للإمام يقول فيها: إني أريد الخروج عن أهل بيتي فقد كثر السفهاء. فقال الإمام: لا تفعل فإن أهل قم يدفع عنهم بك كما يدفع عن أهل بغداد بأبي الحسن عليه السلام[2]. و هذا هو مقام العلماء و أولياء الله حيث أن مشيهم و حياتهم و قرارهم بركة.

عنصر اليقين في حكمة العبادات

إنّ للمحقق الطوسي قدس سره رسالة موسومة بـ «آغاز و انجام» تعنى بمباحث المبدأ و المعاد من أنّ الإنسان من أين و إلى أين و في أين. يقول فيها بعد بيان المعاد و معنى الصراط: المراد بهذه المقولة و هي أنّ الصراط أدّق من الشعرة و أحدّ من السيف هو أنّ تشخيص التكليف و العمل به أمر عسير. فإنّ معرفة التكليف بمنزلة العبور من طريق أحدّ من السيف و أدقّ من الشعرة. و العمل بهذا التكليف بشكل صحيح بعد تشخيصه كذلك بمثابة العبور من طريق أدقّ من الشعرة و أحدّ من السيف[3].

---

١ . سورة النور، الآية ٤٥.

٢ . زكريا بن آدم من كبار أصحاب الإمامين الكاظم و الرضا عليهما السلام، و اعتبره البعض كالشيخ الطوسي من أصحاب الإمام الصادق أيضاً.

له كتاب في الحديث. (راجع: الاختصاص، ص٨٧؛ بحار الأنوار، ج٢، ص٢٥١).

٣ . آغاز و انجام، ص٣٣.

فإنّ الوصول إلى حكمة العبادات ليس بالأمر الهيّن، و هناك صعاب كثيرة تواجه الإنسان في تشخيص الطريق و في سلوكه كذلك. و على حدّ تعبير المرحوم العلامة الطباطبائي رحمه الله فقد يعيش المرء طيلة حياته تحت ولاية الشيطان و هو لا يعلم. و لذا لابد من محاسبة النفس في كلّ يوم.

و إنّ الصراط المستقيم الذي نطلبه من الله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أدقّ من الشعرة و أحدّ من السيف، علماً بأنّ الإنسان إذا شخّص الطريق و سلكه سيجتاز مرتبة الملائكة و ستخضع بأسرها لخدمته فتفتح أبواب الجنة و تأتي لاستقبال المؤمن قائلة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدينَ﴾[1]. فإنّ مجيء الملائكة لاستقبال المؤمن و خدمتهم له لا يتم بلا ثمن.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من شيء أعزّ من اليقين»[2]، فهو الأثر المهم للعبادة. و قال الله سبحانه و تعالى: ﴿وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[3]، و هذا هو السرّ لكلّ العبادات، فإنّ الوصول إلى اليقين هو ذروة العبادة و نيل الكمال. و لا يُراد به الكفّ عن العبادة بعد الوصول إلى اليقين لكي تكون بمعنى الغاية و إنما المقصود منه هو الفائدة و المنفعة. و معنى ذلك أنّه لا سبيل لليقين بوجود مبدأ و معاد و مسير للعالم و لمعرفة مصير الإنسان إلا من خلال العبادة، فمن دونها لا يتيسر لأحد الوصول إلى اليقين بالمبدأ و المعاد بل يبقى في شكّ دائم.

---

١ . سورة الزمر، الآية ٧٣.

٢ . الكافي، ج ٢، ص٥١، ح١؛ و قال الإمام الرضا عليه السلام أيضاً: «لم يعط بنو آدم أفضل من اليقين» (بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٣٨).

٣ . سورة الحجر، الآية ٩٩.

حيرة الكافر و المنافق

إنّ الكافر و المنافق في تردد مستمر و لا يوجد عذاب أشدّ من أن يكون الإنسان في تيه و حيرة. يقول الله سبحانه في بيان عذاب المنافقين و الكفار: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1]، و يسيرون دوماً في دائرة مغلقة.

فمن يعرف الطريق لا يتردّد و يعود من حيث أتى، و الجاهل بالطريق ينحرف عن الجادة و يعود ثم يسير ثانية و هذا الردّ المكرّر يطلق عليه بالتردد. و هو يحصل إثر العمى فالكافر و المنافق لا يشهدون الطريق و لذا تجدهم يسيرون دوماً في دائرة الشك و يقضون أعمارهم في عذاب التردّد، يتحرّكون في نفس هذه الدائرة المغلقة للشك المكرر من جهة إلى أخرى و لا يجدون مخرجاً.

و قد عبّر عنهم القرآن الكريم ببيان آخر قائلاً: ﴿إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾[2]، فإنّ هذه القلوب مقفلة جاهلة تائهة إلا أن تُقطّع قطعة قطعة. و إنّ قلب الكافر و المنافق في عذاب أليم على الدوام، لا يدري على من يعتمد؛ و من هنا قال الله سبحانه و تعالى عن لسان رسوله الكريم: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[3]، لقد أضعتم الطريق. فتدلّ هذه الآية على أنّ للإنسان العابد هدف و هو يعرف الطريق و يصل إلى المقصد. و الإنسان التارك للعبادة لا يعرف الطريق و ليس له هدف و لا يدري بأي اتجاه يسير؛ و لذا يقول لهم رسول الله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

و قد مدح الله سبحانه رسوله قائلاً بأني قد بعثت إليكم رسولاً يسير نحو هدف و يعرف الطريق: ﴿وَ النَّجْمِ إِذا هَوى * ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى﴾[4]، لأن الضلالة

---

١ . سورة التوبة، الآية ٤٥.

٢ . سورة التوبة، الآية ١١٠.

٣ . سورة التكوير، الآية ٢٦.

٤ . سورة النجم، الآية ١ و ٢.



هي إضاعة الطريق. فمن لا يعرف ماذا يفعل أضاع الهدف و من يعرف ماذا يصنع و لكنه أضاع الطريق فهو ضالّ. و مثله مثل المسافر الذي يعلم أنّ مقصده هو مكة و هدفه زيارة الكعبة و لكنه لا يعرف الطريق. و على دليله أن يكون واقفاً على هدفه و عارفاً بالطريق الذي يؤدي إلى هذا الهدف. فالإنسان كالمسافر الذي طوى بعض العوالم و أمامه عوالم أخرى؛ و هدفه و طريقه معيّنان. و الإنسان الكامل هو الذي يعرف الهدف و الطريق كذلك و هو ليس إلا الإمام و النبي الذي يتولى قيادة الناس.

و بما أنّ للإنسان المؤمن هدف و طريق محدّدان فهو مطمئن و مستقر من دون أن تنتابه الحيرة. و قد مدح القرآن المؤمنين حين يذكرهم إبان الحروب قائلاً: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[1]، أو ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، و بهذا يمدح النبي و المؤمنين بالسكينة و الطمأنينة و القرار. إذن فالمؤمن في سكينة و قرار و الكافر في شك و تردّد. و الإنسان المردّد لا يقرّ له قرار و لا يصل إلى المقصد.

العبادة سلّم الترقي

ليس المراد بهذه المقولة: أعبد حتى يأتيك اليقين هو ترك العبادة بعد الوصول إلى اليقين. و ذلك كأن يقال للإنسان إن أردت الوصول إلى السقف لرؤية السطح استخدم المرقاة و اصعد درجاته لرؤية السطح، فلا يعني ذلك إذا رأيت السطح أن تقول لا حاجة بعدئذ إلى المرقاة. لأنك تنظر إلى السطح عبر الاتّكاء على هذا المرقاة. و كذلك حال العارف فهو يصل إلى اليقين باتّكائه على العبادة و تركه للعبادة بعد نيل مرتبة اليقين يستلزم السقوط، إذ لا يمكن الاستغناء عن العبادة في مرحلة من المراحل.

---

١ . سورة الفتح، الآية ١٨.

٢ . سورة الفتح، الآية ٤.

و إنّ العبادة أمر ذاتي للعبد في الدنيا أو الآخرة. بيد أنّ للعبـادة في الآخـرة ظهـور بنوع آخر. فتظهر في الدنيا على شكل صلاة و صوم و في يوم القيامة يُقال لـه: «اقـرأ و ارقه»[1]، فالدار الآخرة ليست بدار عمل و إنما هي دار ظهور نتائج الأعمال. و مـا يقـرأ الإنسان من آيات في الدنيا تظهر في يوم القيامة واحدة تلو الأخرىٰ و يرقىٰ كلّ واحدة منها.

و ليس المقصود من «اقرأ و ارقه» هو أن تقرأ و ترق في الآخـرة لأن خطـاب اقـرأ أولاً يُخاطب به المرء في دار الدنيا، و إنّ آيات القرآن خزائن إلهية، فيقرأ العبد و يرقىٰ و يحصل بكلّ درجة علىٰ مرقاة تسوقه إلىٰ الرقي أعلىٰ و تُحرّكه لا أن يبقىٰ واقفاً.

و ثانياً يقال للإنسان في الدار الآخرة: هذه الدرجات التـي تـشاهدها هـي وليـدة أعمالك في دار الدنيا. و ظهور أعمال الدنيا في يوم القيامة بأن تظهر لـك مـا قرأتـه هنـا علىٰ نحو الرقيّ و التكامـل في يوم القيامة. و لذا فإن العبادة مرقاة. بيد أنّ الإنـسان قـد يستخدم هذا المرقاة للنزول إلىٰ قعر البئر كالذي يعبد عن نفـاق و ريـاء. فلـو أعطيـت هذا المرقاة حافر الآبار لنزل به إلىٰ البئر و لـو أعطيته مهنـدس الكهربـاء لـصعد بـه إلىٰ الأعلىٰ. و هذا يتعلق بالذي تسلّمه هذا المرقاة. فالمنافقون يعبـدون لينزلـوا و المؤمنـون يعبدون ليرتقوا و دور العبادة للمؤمنين هو ﴿وَ اعْبُدْ رَبَّـكَ حَتَّـى يَأْتِيَـكَ الْيَقـينُ﴾[2] و دورها للمنافقين هو ﴿فَهُمْ في رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[3].

و كلّما ازدادت درجات هذا المرقاة كلما زادت المنافق نـزولاً في قعـر البئـر و كثـرة عبادته لا تزيده إلا شقاءً. و من جانب آخر كلّما ازدادت درجات إيـمان الإنـسان كلـما أدرك باطن العبادة و أدىٰ إلىٰ وصوله مرتبة لا يرىٰ فيها سوىٰ الله.

---

١. الكافي، ج٢، ص٦٠١، ح١٢؛ كنز العمال، ج١، ص٥٢٠، ح٢٣٣٠.

٢. سورة الحجر، الآية ٩٩.

٣. سورة التوبة، الآية ٤٥.

و إن شعر الإنسان بالطمأنينة فقد وصل إلى حكمة العبادة و لا يُخيفه بعد ذلك أمر و لا يُقلقه حادث. و هذا هو اليقين الذي لا يتأتى للإنسان من دون العبادة. فقد يصبح الإنسان عالماً و يعبد الله عبادة صورية و لكن ما لم يصل إلى سرّ العبادة لم يكن من أهل اليقين.

ثم إنّ «الربّ» هو المالك و المدبّر. و ربّ الإنسان هو مبدأ الوجود الذي بيده تقدير الإنسان و تدبيره و هو الذي لا يستطيع الإنسان من دونه سدّ احتياجاته. فإنّ الله هو المدبّر لا محالة، و العبادة هي أن يستفيد الإنسان من نفع المعبود و كماله؛ و لذا فإن تعليق الحكم على هذا الوصف حيث قال ﴿وَ اعْبُدْ رَبَّكَ﴾ ناظر إلى هذا الاستدلال، أي أنك اعبده لأنه ربك.

و لكن ما هو الهدف من العبادة؟ هل لأنها تُؤمّن رزق الإنسان؟ فإنّ الله رازق و لكن لا تنبغي عبادته لتأمين الرزق، و هو رحيم و لكن لا تتحبّذ عبادته لعدم دخول النار. بل على المرء أن يكون عالي الهمة فلا يعبد ربه لعدم دخول النار بل و لا لدخول الجنة أيضاً لأنه سيُدخل عبده الجنة و الأفضل أن يرى الإنسان نفسه أسمى من ذلك و يبعد الله لأنه يحبه كما هو حال الإمام الصادق عليه السلام.

فلا تعبد ربّك كالمستجدي للأجر لأنّ الله يعرف كيف يغمر عبده باللطف و الرحمة[1].

نعمة المعرفة و الشهود

لا توجد ثمة نعمة أعلى من نعمة المعرفة و الشهود و اليقين. فلو شاهد الإنسان حكمة العالم لما اعتبر لذات العالم لذّة. و من وصل إلى مرتبة اليقين سيشهد باطن العالم

---

١ . بيت بالفارسية و هذا نصه:

تو بندگي چو گدايان به شرط مزد مكن　　　كه خواجه خود روش بنده پروري داند

و باطن نفسه و باطن نفوس الآخرين و لذا تراه لا يستند إلى نفسه و لا يعتمد على الغير و لا يستمدّ منهم المعونة؛ لأنه يعلم بعدم وجود شيء في باطن الإنسان و غيره، و من وصل إلى هذا المقام لا يترك محبوبه الحقيقي بتاتاً و يعبده لذاته.

و إنّ القرآن الكريم يذكر المتمتعين بنعمة اليقين بإجلال و إكبار و منهم إبراهيم الخليل الذي يقول القرآن في شأنه: ﴿وَ كَذٰلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[١]، فوصل إبراهيم إلى مقام اليقين و حين قالوا رداً على تحطيمه للأصنام: ﴿حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾[٢]، لم يستند و لم يلجأ إلى أحد لأنه كان من أهل اليقين.

فإنّ لرؤية الملكوت هذه منافع منها الوصول إلى اليقين. و كما يتأتى لإبراهيم رؤية ملكوت العالم يتسنى لغيره أيضاً الوصول إلى هذا المقام. علماً بأنّ هذا المقام لا يناله كلّ أحد. و حاله حال المكتبة العامة الحاوية لكتب متوفرة لدى الجميع إلا أن فيها كتباً خطية و نسخاً فريدة لم توضع بين يدي الجميع و لا تُسلّم مفاتيح هذه الخزانة لأي أحد. قال الله سبحانه و تعالى: ﴿وَ لِلّٰهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ﴾[٣]، فقد شاهد إبراهيم خزائن كتاب التكوين هذا و باطنه و بإمكان غيره مشاهدته أيضاً.

و يحثّ على ذلك في موضع آخر قائلاً: ﴿أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ﴾[٤]، لماذا حبسوا أنفسهم على عالم الملك و اكتفوا بالتعاليم الظاهرية الجافة؟ لِمَ لم ينظروا في باطن العالم و ملكوته؟ و لِمَ لم يفتحوا هذه الخزانة ليطالعوا النسخ الخطية الأم و الأصيلة؟ فإنّ لسان هذه الآية الكريمة هو الحثّ على الخير.

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٧٥.

٢ . سورة الأنبياء، الآية ٦٨.

٣ . سورة المنافقون، الآية ٧.

٤ . سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

و إنّ النظر غير الرؤية و إنما يكون طريقاً لها. فقد ينظر الإنسان و لكنه لا يرىٰ و قد ينظر و يرىٰ. و مثله مثل الذي يصعد إلىٰ السطح لرؤية الهلال و عينه ضعيفة فيقول: «نظرت فلم أرَ الهلال». بيد أن البعض ينظرون و يرون الهلال في نفس الوقت؛ و يصل نظرهم إلىٰ الرؤية.

فقد قام الله سبحانه في هذه الآية الكريمة بحثّ بعض و تأنيب آخرين بأنهم لِمَ لم يذهبوا إلىٰ باطن العالم؟ و لِمَ لم ينظروا في ملكوته؟ فلو تعذّرت الرؤية لما دعانا الله إليها.

الأنبياء و باطن العالم

لم يكن الأنبياء كسائر الساسة يتركون الساحة عبر التهديد أو التطميع أو أنهم يفقدون الحزم و العزم. و لم ترد أي إشارة علىٰ تطميع الأنبياء في التاريخ؛ بأن يُجبروهم علىٰ السكوت بتسليمهم مقداراً من الأموال أو عبر بعض الأعمال و الغرائز الجنسية. و إنّ الحظ الأوفر من حياة الأنبياء كان بين الناس و كانوا في الأغلب يصلون إلىٰ المقام الشامخ للنبوة في سنّ الأربعين و إنهم لم يرتدعوا عن ارتكاب المحرمات فحسب بل كانوا يجتبون بعض المحللات أيضاً و قد انصبّ سعيهم لتسليم كل ما بأيديهم إلىٰ الناس. و إنّ الذي حدث في الحجاز أيضاً لم يتعدّ الاحتمال حين قالوا لأبي طالب: ماذا يطلب ابن أخيك... فقال النبي: «يا عم! و الله لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتىٰ يظهره الله، أو أهلك دونه»[1].

ثم إنّ الرسول ﷺ قد تزوّج في الخامسة و العشرين من عمره بامرأة تبلغ من العمر أربعين سنة[2]، و لذا لم يخطر ببال أحد أن يتمكّن من تطميع النبي عبر إرضاء

---

١. سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٦٦.

٢. بحار الأنوار، ج١٦، ص١٢.

الغريزة الجنسية، و كان سائر الأنبياء أيضاً كذلك.

و هذا هو قائد الثورة الإسلامية الكبير المتخرج من مدرسة الأنبياء الذي لم يجرأ أحد على تطميعه و أما تهديدات الأعداء فقد عاش بطريقة وقف من خلالها كالموج المنبثق من بحر الإمامة و النبوة أمام كلّ تلك التهديدات.

و يقول القرآن حول النبي صالح عليه السلام عن لسان المفسدين حينما خاطبوا قومه: ﴿قالُوا تَقاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾[1].

و هكذا فقد وردت مثل هذه التهديدات بشأن سائر الأنبياء أيضاً و لكن لم يكن تطميع في البين. لأنّ الأنبياء عاشوا بحيث كانوا يرون باطن العالم و من يشهد باطن العالم لا يتعلق بالميتة؛ إذ أنّ باطن الدنيا ميتة. و من وقف عبر مراعاة الأحكام و آداب العبادة على جانب من أسرار العبادة فإنه سيشهد جانباً من أسرار الدنيا أيضاً و هي ليست إلا جيفة. و إنّ الدنيا ليست هي الأرض و الصحراء و البحر فإنّ هذه الظواهر آيات إلهية، كما أنّ الأكل و الشرب و النوم و ما إلى ذلك ليست بدنيا بل هي جزء من قوانين نظام الخلق، و إنما الدنيا هي كلّ ما يحجب الإنسان عن الله، و هي الأوهام و التخيلات الباطلة، و التعلقات بأنّ يقول الإنسان أن هذه الأموال مختصة بي و لابد أن أحصل عليها أكثر من الآخرين، فهذه هي الدنيا و باطنها جيفة.

أولياء الله و باطن الدنيا

قال علي عليه السلام: «الدنيا جيفة و طلابها كلاب»[2]، و قال أيضاً: «... هيهات غرّي غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة فيها»[3]، و لا يعني بهذا الكلام أنه

---

١. سورة النمل، الآية ٤٩.

٢. بحار الأنوار، ج٨٧، ص٢٨٩.

٣. نهج البلاغة، الحكمة ٧٧.



قد طلّق الأكل و الشرب و النوم و الزراعة و إدارة أمور المسلمين على أساس العدالة بل الذي طلّقه ثلاثاً هو حبّ الجاه و طلب الحرام و التجاوز و التعدي و أشباه ذلك.

و في واقعة الجمل حينما احتلّ طلحة و الزبير بزعمهم البصرة فتحوا بادئ الأمر باب بيت المال فلما رأوا ما حواه من الذهب و الفضة قالوا: هذه الغنائم التي وعدنا الله بها و أخبرنا أنه يعجلها لنا! و لما هجم جيش أمير المؤمنين عليه السلام و استعادوا البصرة، دخل علي عليه السلام بيت مال البصرة فلما رأى ما فيه قال: «يا صفراء يا بيضاء غري غيري»[١]، لأنه قد طلّق الدنيا ثلاثاً فما بال الذهب و الفضة.

و لم يكن مراد الإمام بذلك الحكومة فإنّه كان يسعى للحفاظ عليها و إنّ الخلافة التي تقام لتطبيق الحقّ و العدالة ليست بدنيا، فقد قال الله سبحانه: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ﴾[٢] و ذلك لأنهم لا يفكّرون إلا بالدنيا.

و روي في أمير المؤمنين عليه السلام أنه سأله أعرابي شيئاً فأمر له بألف، فقال الوكيل: من ذهب أو فضة، فقال: كلاهما عندي حجران فأعط الأعرابي أنفعهما له[٣].

و قال علي عليه السلام بعد ذكره قضية أخيه عقيل حين طلب منه المعونة و أحمى له حديدة ثم أدناها من جسمه ليعتبر بها:

«وَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا وَ مَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَ صِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَقَالَ لَا ذَا وَ لَا ذَاكَ وَ لَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ، فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ، أَ عَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي، أَ مُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ، وَ اللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»[٤].

---

١. الغارات، ج١، ص٥٤؛ بحار الأنوار، ج٤٠، ص٣٣٣.

٢. سورة الملك، الآية ٢٠.

٣. بحار الأنوار، ج٤١، ص٣٢.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

فأظهر الإمام لنا في هذا الحديث جانباً من باطن الدنيا و شبّهه بالمعجون الناتج من قيء الحية أو بصاقها! و في قبال ذلك باطن العبادة الذي ليس إلا الروح و الريحان و الجنة و النعيم و لو استطعنا رفع الستار لشاهدنا ما وراءه. و قد قيل لنا: لا تستلزم مشاهدة ما وراء العالم سلوك طريق الدرس و البحث و المدرسة، فإنّ النفحة الإلهية هي التي ترفع الستار عبر التهذيب و توقف المهذّب على أسرار العالم؛ و من المؤسف أن يموت الإنسان و لا يشاهد الأسرار فإنّ لمشاهدتها من اللذة و العذوبة ما يعجز البيان عن وصفه! و الواقف على ما وراء عالم الطبيعة لا يشغله شاغل و لا يردعه التهديد و التطميع عن مواصلة هدفه و لا يتعلق بشيء و لا يخاف من شيء.

الفرق بين المدرستين

جاء جمع من المستشرقين من روسية (السابقة) إلى إيران عبر وزارة الخارجية و طلبوا أيضاً اللقاء ببعض رجال الدولة، فجاؤوا مع عدد من المسؤولين في تلك الوزارة إلى هيئة القضاء العليا. و كان عددهم ثلاثة و معهم مترجم، فقالوا بأن الشيوعية تنسجم مع الإسلام! فقلنا لهم: لا يوجد أي قاسم مشترك بين ذلك الحزب و بين الإسلام، لأنكم تعتقدون أن الإنسان كالثمرة على الشجرة، يسقط منها بانتهاء عمره و يفسد و يتبدّل إلى تراب و لا يوجد من وراء ذلك شيء، و نحن نرى أن الإنسان كالطير في القفص، يكسر القفص إذا انتهى عمره و يطير إلى عالم الخلود و له حياة خالدة إلى الأبد، إذن لا يوجد وجه اشتراك بين هاتين المدرستين على الإطلاق.
فباتوا ينظر بعضهم إلى الآخر بأن الإسلام ماذا يقول و نحن ماذا نقول!

و قد كان المجاهدون في صدر الإسلام ينتابهم الرعب و الخوف في الحروب غير العادلة، و لكن بعد أن اتّضحت آيات الشهادة و عظمة الروح و خلود الإنسان و طيرانه من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة، باتوا يُقطّعون أغلال الخوف و لا يتقاعسون عن الحرب و يبذلون قصارى جهدهم لإزالة الغبار عن الطريق و مشاهدة الحقيقة.

فإنّ جمال الحبيب لم يحجبه حجاب و لكن على المرء أن يشقّ غبار الطريق لينظر إليه.

و لا يستطيع المرء أن يبذل مهجته فيه إلا إذا استنار قلبه بنور الهداية[1].

و إنّ الطرق الانحرافية ترابية تثير الغبار و هو يحجب عن رؤية المناظر الطبيعية، و أما الصراط المستقيم فهو صاف لا غبار فيه و أمامه إطلالة واسعة جذابة.

يقول البعض: افتح عينيك لترى، و لكن يقول أهل المعنى، أطبق عينيك لترى، فعلى المرء أن يغضّ طرفه عن كثير من الأشياء لتُفتح عين قلبه، و عليه أن يسدّ أذنيه عن الكلام المحرّم ليسمع بأذن قلبه صوت الملكوت المنعش، و من أراد الاستماع إلى صوت قارئ الجنة عليه أن يراقب أذناه في دار الدنيا؛ يقول علي عليه السلام: «داود عليه السلام قارئ أهل الجنة»[2].

عالم الملك و الملكوت

«الملكوت» هو الباطن و «المُلك» هو الظاهر. فحيثما دار الكلام عن الملكوت جاءت سبحان ﴿فَسُبْحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[3]، و حيثما جرى الحديث عن المُلك ظهرت تبارك ﴿تَبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[4]. و الفرق بين الملك و الملكوت كالفرق بين الظاهر و الباطن. و قد دعانا الله بأجمعنا إلى أن نطلع على باطن العالم و أن لا نبيع أنفسنا بثمن بخس و لا نعتمد عليها و لا على الآخرين. و قد بيّن طريق

١. بيتان بالفارسية و هذا نصهما:

جمال يار ندارد نقاب و پرده ولي　　غبار ره بنشان تا نظر تواني كرد

دلا ز نور هدايت گر آگهي يابي　　چو شمع خنده كنان ترک سر تواني كرد

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

٣. سورة يس، الآية ٨٣.

٤. سورة الملك، الآية ١.

الوصول إلى باطن العالم من سلكه و وصل إلى المقصد.

روى الشيخ المفيد رحمه الله عن الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليهما السلام أنه قال: «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. و قال: من قال لا إله إلا الله فلن يلج ملكوت السماء حتى يتم قوله بعمل صالح، و لا دين لمن دان الله بتقوية باطل و لا دين لمن دان الله بطاعة الظالم»[1]، ألا يدعونا هذا إلى حكمة العبادة؟ و ألا يهدينا إلى حكمة «لا إله إلا الله»؟ و هل يتأتى لكل امرء الوصول إلى ملكوت العالم؟ بيد أنّ من يطّلع على ملكوت العالم و الملكوت يستجلب اليقين، سيبتعد عن التردّد و لا يشكّ في أيّ أمر.

الحرمان من رؤية الملكوت

قال عمار بن ياسر: و الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا السعفات من هجر لعلمنا أنا على الحق و أنهم على الباطل. و قال أيضاً و هو مع علي عليه السلام: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت.

و روي في نهج البلاغة عن علي عليه السلام أنه قال: «ما شككت في الحقّ مذ أُريته»[2].

فمن كان ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّه﴾[3] لا يدخل الشكّ في قلبه. و الشاك هو الذي لم يجد سبيلاً إلى الملكوت و لم تتعدّ عبادته الصورة و الظاهر و لم يصل إلى حكمة العبادة.

و إنّ حكمة العبادة هي الوصول إلى الملكوت و مشاهدة الملكوت مقرونة باليقين و لا يوجد في العالم شيء أسمى و أعلى من اليقين الذي وهبه الله لخاصة أوليائه.

---

١. الأمالي للشيخ المفيد، ص٢٠٣، المجلس ٢٣، ح٧.

٢. نهج البلاغة، الحكمة ١٨٤.

٣. سورة هود، الآية ١٧.

و لو كان إبراهيم الخليل عليه السلام حاضراً في هذا الزمان ألم يقل لنا نفس ما قاله لعبّاد الأوثان في زمانه؟ ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰه﴾[1] و ذلك لما نعبد ما صنعناه من أصنام في أنفسنا؛ حيث اتّبعنا أهواءنا و بتنا نفرح إذا ما مدحونا و نستاء إذا ما نقدونا نقداً بنّاءاً سالماً و نحبّ أنفسنا حباً جماً كاذباً، فهل نحن عبّاد أنفسنا أم لا؟ و لو كان إبراهيم الخليل عليه السلام فيما بيننا لما قال لنا: أفّ لكم و لما تعبدون من أهوائكم؟

و أما إذا وصلنا إلى الملكوت فسنشاهد باطن أنفسنا و لو شهدنا باطن أنفسنا و باطن الآخرين لما اعتمدنا على غير الله لحظة واحدة و سنكون عند ذاك من شيعة إبراهيم الخليل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ﴾[2] محمد صلى الله عليه وآله. و حينئذ سيستجيب الإنسان دعوة ربه حيث يقول: ﴿أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ﴾[3] و يصل إلى ملكوت العالم.

محاسبة النفس

على المرء أن لا يغفل عن محاسبة نفسه في كلّ حين. و لو قام بحركة و لو كانت بسيطة تؤدي إلى تعزيز الباطل سيبتعد بنفس ذلك المقدار عن دين الله. فقد قال الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[4]، حيث استند إلى حركة شفاهنا بأن لا تتحرّك بحيث تُؤذي أحداً أو تستحقره. كما و يتحدّث عن حركة العين و كيفية النظر قائلاً: ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾[5]، فلا ينبغي أن يغفل الإنسان عن محاسبة نفسه. و إذا ما قام بها يعين

---

١ . سورة الأنبياء، الآية ٦٧.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٦٨.

٣ . سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

٤ . سورة الهمزة، الآية ١.

٥ . سورة غافر، الآية ١٩.

الباطل فهو في تلك اللحظة غافل عن دين الله، لأنّ دين الله لا ينسجم مع أيّ باطل ﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعيدُ﴾[1] أي لا يبقىٰ مجال للباطل بمجيء الحق.

ثم إنّ الشيطان يخادع الإنسان عبر حباله الخاصة بالتكاثر. و أما الذي يصل إلىٰ الكوثر لا يركن إلىٰ التكاثر و هذا ما لا يناله إلا القليل من الناس.

إن كنت ما تحمله شوكاً فأنت الذي زرعته أو حريراً فأنت الذي غزلته[2].

فإنّ الإنسان يعمل ليلاً و نهاراً؛ إما أن يكون مشغولاً بسقي الشجر الشائك أو بغزل أقمشة الحرير و الإستبرق. و إذا ما لاقىٰ العذاب بعد الموت فلأنه تجشّم العناء طيلة حياته و قام بسقي شجرة شائكة، إذ أنّ سوء اللسان و سوء البيان و سوء البنان و أذىٰ الإخوان كلها شوك. و إنّ الذنب الذي يقترفه و الظلم الذي يرتكبه كالماء الذي يصبّه علىٰ أشجاره الشائكة. و لا يعرف الحقّ إلا بعد أن تهاجمه أشواك هذه الشجرة. و عندما يضعونه في القبر فكأنما يضعوه علىٰ فراش مليء بالشوك و الحسك. و لا يقرّ له قرار حتىٰ و إن تقلّب يميناً و شمالاً؛ لأنه لم يزرع طيلة حياته سوىٰ الشوك.

لا يهدأ من يتقلّىٰ متململاً علىٰ فراش حاكه من نسيج الأشواك[3].

بيد أنّ الإنسان إن دأب في حسن الخلق و الإحسان إلىٰ المسلمين و أصبح مصداقاً لقوله: ﴿رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾ بعد أن كان ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[4]، فمثله مثل الذي يغزل حريراً.

---

١ . سورة سبأ، الآية ٤٩.

٢ . بيت بالفارسية في مثنوي معنوي، الكتاب الثالث، و هذا نصه:

اگر بار خار است خود كشته اي — وگر پرنيان است خود رشته اي

٣ . بيت بالفارسية و هذا نصه:

چه آسايد به هر پهلو بغلطد — هر او كز خار سازد او نهالين

٤ . سورة الفتح، الآية ٢٩.

يقول الإمام الرضا عليه السلام في سجوده: «لك الحمد إن أطعتك، و لا حجة لي إن عصيتك، و لا صنع لي و لا لغيري في إحسانك، و لا عذر لي إن أسأت، ما أصابني من حسنة فمنك يا كريم...»[1]، فعلينا أن نرىٰ بأننا مبتلون بالتكاثر أم متذوقون من الكوثر الذي هو باطن هذا العالم؟

و قد جاء في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله واصفاً «الورع» بأنه أفضل الأعمال[2]، و هو أن يبتعد المرء عما حرّم الله فيكون بذلك ورعاً متقياً.

و روي عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال في «الورع»: «من عمل بما افترض الله عليه فهو من خير الناس، و من اجتنب عما حرّم الله عليه فهو من أعبد الناس و من أورع الناس، و من قنع بما قسم الله له فهو من أغنىٰ الناس»[3]. و ذلك لأنّ اقتراف الذنب قيام علىٰ المحبوب، و علىٰ الإنسان أن يتجنّبه لا لعدم دخول النار فإنها عبادة العبيد الذين يجتنبون الذنب خوفاً من النار. بل إنّ باطن الذنب ليس إلا النار و حقيقته ليست إلا الدنس.

الوصية بالتوحيد

أوصىٰ أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن ضُرب علىٰ رأسه الشريف الحسن و الحسين عليهما السلام بل و كلّ المسلمين لما جاء في هذه الوصية: أوصيكما و جميع ولدي و أهلي و من بلغه كتابي؛ قائلاً: «وصيتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً»[4]، أي أن لا تجعلوا شيئاً شريكاً لله و لا تنسبوا عملاً هو لله إلىٰ غيره.

---

١. بحار الأنوار، ج٤٩، ص١١٧.

٢. الخطبة الشعبانية، أربعين الشيخ البهائي، ص٧٣، ح٩.

٣. الأمالي للشيخ المفيد، ص٢٠٤، المجلس ٢٣، ح٩.

٤. نهج البلاغة، الكتاب ٢٣.

حيث إنّ المشركين ينسبون فعل الله إلى غيره، لا أنهم يشاركون الله في أعمالهم فيجعلون جزءاً منه له و جزءاً لغيره فإن ذلك ليس بالشرك المعهود و إنما هو الرياء. بل إنّ العمل الذي لابدّ و أن يُنسب إلى الله ينسبه المشركون في الأغلب إلى غير الله. و يعبدون الأصنام بدلاً من عبادة الله و يعتقدون على سبيل المثال في باب الشرك في العبادة بأن هناك مبدءان؛ أحدهما خالق للعالم و هو الله و الآخر مدير و مدبّر له.

و الوصية بالتوحيد هي أن لا ينسب الإنسان العمل لنفسه و لا لغيره بل ينسبه لله وحده و يعلم أن لا مدبّر في العالم إلا الله. فلا توجد نعمة أعلى من نعمة التوحيد و لا ذنب أسوء من الشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]. فهل من السائغ أن يجلس الإنسان في جميع حالات الوجود على مائدة الله الواحد و يعتبر غير الله مبدأ للأثر بوصفه ربّ؟ و هذا ما سيتبعه العار و الشنار في هذا العالم.

ثم يقول الإمام في تتمة وصيته: «و محمداً ﷺ فلا تضيّعوا سنته»، أي احفظوا بعد التوحيد رسالة النبي و احترموا الوحي و النبوة و قدّروا أخلاق النبي و آدابه و أكرموا ما نقل عن النبي و لا تضيّعوا سنته و دينه.

ثم قال بعد وصيته بأصل التوحيد و النبوة و دين الله: «أقيموا هذين العمودين و أوقدوا هذين المصباحين».

و قال بعد ذلك: «أنا بالأمس صاحبكم و اليوم عبرة لكم و غداً مفارقكم». فانظروا إليّ لتعرفوا بأن القدرة و الصحة و الثروة لا تدوم و لا يبقى أحد في العالم إلى الأبد. و قد كنت أترقّب الموت لسنوات مديدة «تالله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه»[2].

---

١. سورة لقمان، الآية ١٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٥.

الدار الباقية و اشتياق اللقاء

قال علي عليه السلام لأم كلثوم في مرضه الذي قبض فيه: ما يبكيك يا بنية... لو ترين ما يرىٰ أبوك ما بكيت. قالت: و ما الذي ترىٰ يا أمير المؤمنين؟ فقال: أرىٰ ملائكة السماوات و النبيين بعضهم في أثر بعض وقوفاً إلىٰ أن يتلقوني.

و كلام الإمام الحسين عليه السلام في سفره التاريخي إلىٰ كربلاء يؤيّد هذا المضمون: «ما أولهني إلىٰ أسلافي اشتياق يعقوب إلىٰ يوسف»[1]. فأراد الإمام بهذا البيان أن يقول بأننا لا نهاب الموت لأننا نترك الطالحين و نرد علىٰ الصالحين و هم الأنبياء.

و هناك في الحالات التي طرأت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله في أواخر حياته حِكَم قد ظهر جانب منها في الحديث الذي قاله لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا علي إذا أنا متّ فغسّلني و كفّني ثم أقعدني و سائلني و اكتب»[2].

فهل تنقطع علومهم بالموت؟ أم هل تعلّموا من مدرسة البشر حتىٰ يتعذّر تعليمهم بعد الموت؟ و إنّ الذي تنهمر علومه علىٰ كثيرين بإشارة واحدة، يكون بعد الموت أيضاً كذلك. ثم قال النبي: «ثم سلني أخبرك بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»، أي سلني عما حدث حين نزوع الروح و حين الورود إلىٰ ذلك العالم و حين ترك الدنيا، فهذه ليست من العلوم المتواجدة في المدرسة البشرية.

و لكنه قال لطائفة من الناس الذين كانوا يبكون حوله: «أنتم المقهورون و المستضعفون من بعدي»[3].

---

١. بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٦٦.

٢. بحار الأنوار، ج٤٠، ص١٥٢.

٣. الأمالي للشيخ المفيد، ص٢٣٤، ح٢.

النبي ﷺ و أسرار القيامة

قال رسول الله ﷺ: «أنا و الساعة كهاتين» ثم ضم السباحتين[1]. و كان إذا ذكر الساعة احمّر وجهه حتیٰ و كأنه يخبر عن خطر مخرّب قريب الوقوع، فإنّ من يُبلّغ خبراً مريراً ثقيلاً يتغيّر وجهه في الأغلب، ثم أقبل علیٰ الناس بوجهه فقال: أنا و الساعة كهاتين. أي لا يوجد بيني و بين القيامة فاصل و لا تأتي بعدي شريعة و لا دين و لا كتاب. (و هذا هو المعنیٰ المتوسط الذي ذكره بعض شرّاح أصول الكافي) و قال بأني أعرف حقيقة يوم القيامة. و إنما يحمرّ وجه النبي لأنه كان بمعية يوم القيامة و ليس ببعيد عنها.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»[2]، فلا فرق عندي بين خلف الغطاء و أمامه و كأني أنظر إلیٰ يوم القيامة. بيد أن النبي فاق هذا الكلام بقوله: أنا و الساعة كهاتين. فإنّ الإصبعين المتقاربين يعرف كلّ منهما خبر الآخر، و يشعر كلّ منهما بحرارة الآخر و برودته: أنا أعرف ماذا يحدث في يوم القيامة و أنتم ما زلتم في غفلة.

فإن بعض الناس يُحشر في يوم القيامة أعمیٰ، لأن عينيه اعتادت علیٰ رؤية ما لا يوجد في يوم القيامة، و ما هو موجود فيها يتطلب عيناً مناسبة لم يهيئها و لذا لا يریٰ شيئاً و يكون أعمیٰ و أبكم و أصم. فإنّ نظامها نظام آخر و تجارتها تجارة أخریٰ و الناس في راحة و دعة!

و إنّ الذي يأتي من منطقة تعرضت لقصف صاروخي من قبل الصهاينة الكفار، يستطيع القول: أنا و الحرب كهاذين الإصبعين؛ و أنا أعرف أخبارها و لكنهم لا تعرفون شيئاً عنها.

---

١. الأمالي للشيخ المفيد، ص٢٠٧، المجلس ٢٣، ح١٤.

٢. إرشاد القلوب، ج٢، ص١٤؛ بحار الأنوار، ج٤٠، ص١٥٣.



ثم قال النبي: «يا معشر الناس! إنّ أفضل الهدىٰ هدىٰ محمد ﷺ»، و هو الطريق الذي بلّغه الله سبحانه بواسطتي لأني لا أخبركم عن مكان بعيد و إنما أخبر عن قرب و كثب. فإن الإخبار عن النار و الجنة و بيان خصائص يوم القيامة لا يتيسر إلا من يخبر عن قرب.

علماً بأننا نستطيع الوصول إلىٰ مرتبة يمكننا القول فيها: «أنا و الساعة كهاتين»، إلا أنّ رسول الله هو الرائد في معيته ليوم القيامة كالإصبعين و نحن بإمكاننا مشاهدة جانب من أحوال يوم القيامة تبعاً للنبي ﷺ.

يقول المرحوم المولىٰ عبد الرزاق الكاشاني ﵀: «و قد شاهدناهم يأكلونها (غسلين) عياناً»[1] و الغسلين هو القيح، و هذا كلام عظيم للغاية! فقد قال الله سبحانه: ﴿وَ لا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلينٍ * لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ﴾[2]، فإنّ باطن الأكل الحرام هو الظلمة و باطن العبادة هو النور.

و يقول المرحوم صدر المتألهين بأن هناك أشخاص يشاهدون من يخرج من فمه نار حين التكلّم و كأنه جالس في التنور عند السكوت. لأنّ المعصية و السباب و الغيبة و التهمة و الإهانة و سوء الكلام و المهاترة و الكلام الجارح و الأذىٰ كلها نار يخرج من الفم و هذا هو باطن الذنب. فلو تعذّر علينا الوصول إلىٰ مرتبة يمكننا القول فيها نحن و القيامة متقاربين، يمكننا القول علىٰ الأقل بأننا و بعض أسرار القيامة متقاربين.

ضغطة الموت و عارضة النسيان

إنّ لحادثة الموت من الشدة بمكان تبعث الإنسان علىٰ نسيان علومه و مقروءاته.

---

١ . تفسير محيي الدين بن عربي، ج٢، ص٦٩٥. جدير بالذكر أن المشهور باسم تفسير محيي الدين بن عربي هو نفسه تأويلات المولىٰ عبد الرزاق الكاشاني.

٢ . سورة الحاقة، الآية ٣٦ - ٣٧.

فتارة نحفظ الكثير من المباحث و نعلم بها و لكن نُسأل عن أبسط المسائل الإسلامية فننسىٰ الإجابة عليها.

و السؤال في يوم القيامة لا يرد في المسائل الإسلامية المعقدة كأن يقال لنا ما هو المعراج؟ و ما هو التفويض و القضاء و القدر؟ و ما هو لوح المحو و الإثبات؟ و ما هو اللوح و القلم؟ و ما هو شقّ القمر؟ بل يتم السؤال منا من ربك؟ و ما دينك و كتابك؟ و من أيّ جهة قبلتك؟ فيسألوننا عن أبسط الأسئلة التي نُعلّم بها أطفالنا. بيد أنّ الكثير من الناس يصابون بالنسيان. لأن ضغطة الموت لا تذر ذاكرة لأحد. و ذلك كالمبتلىٰ بمرض الحصبة أو العوارض الدماغية الذي ينسىٰ كل ما قرأه لمدة طويلة. و إنّ الكثير من العلماء و المفكرين عندما يصاب بالدماغ و يبرأ من مرضه ينسىٰ ما تلقاه من معلومات. فإنّ الإنسان يرىٰ إثر ضغطة الموت فجأة أنه انتقل من الظاهر إلىٰ الباطن و من الملك إلىٰ الملكوت و هاجر من عالم إلىٰ آخر. فيُسأل و هو في هذا التحوّل العميق من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟ و قد نسي الجواب. و إذا قيل لنا اذكروا الله علىٰ الدوام: ﴿وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾[1]، فلأنّ ذكر الله لا يتحدّد بزمن و عدد. و إذا حدّدوا لنا العبادات قائلين: تكفي الصلاة في اليوم و الليلة خمس مرات يبلغ عددها سبع عشرة ركعة و الصوم خلال السنة شهر واحد و الحج في العمر مرة واحدة و....، و لكن لم يحدّدوا لنا ذكر الله بحدّ معين. ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثيراً﴾[2]، فعلىٰ الإنسان أن يذكر الله و يزرعه في قلبه علىٰ الدوام و أن يُجري ذكره في قلبه و اسمه علىٰ لسانه و لا يكون كالذي لا يذكر الله إلا إذا أحدق به خطر. و سيرد الكلام عن الذكر و حكمته في القسم العاشر.

---

١ . سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

٢ . سورة الأحزاب، الآية ٤١.

لقد كان للإمام الخميني ﵀ نصيحة آخر السنة الدراسية و في نهاية الدرس يـذكر هذا الحديث الشريف الذي شوهد فيها بعد في أبحاث يوم القيامة و هو أنه تُسأل طائفة من الناس في يوم القيامة من نبيكم؟ فيتذكرون بعد أحقاب من العذاب؛ أي ما يقارب ثمانين سنة أو قرناً، و يقولون: نبينا الذي نزل عليه القـرآن؛ و لكـنهم لم يتـذكروا اسـم النبي ﷺ.

و لقد كان رسول الله ﷺ إذا دار الكلام عن يوم القيامة و مسألة الموت و الحـشر و الصراط و الحساب و محكمة العدل الإلهية يتعامل و «كأنه منذر جيش». و كـان إذا يذكر الساعة و النار «تحمارّ وجنتاه».

ثم إنّ «من مات قامت قيامته (الصغرىٰ)»[1]، و لكن لا يُدرىٰ متىٰ تقـام القيامـة و يرىٰ الإنسان فجأة بأنه في عالم آخر و قد تغيّرت الأوضاع و هـو لا يعـرف أحـد و مـا كان يعرفه قد خلّفه وراء ظهره. فلو نقلوا الإنسان فجأة من شرق الأرض إلىٰ غربها أو العكس لا يقع في ضير و مشكلة لأن الناس هم أنفسهم و النظام الحاكم علىٰ الـشرق لا يختلف عن النظام الحاكم علىٰ الغرب، فهناك الشمس و القمر و الناس و الحياة مـع اختلاف يسير، بيد أنّ الإنسان عبر الموت سيدخل فجـأة في عـالم لا يوجـد لـه أدنـىٰ ارتباط بعالم الدنيا و يوجد فيه أمور أخرىٰ.

ثم يقول ﷺ: «صبّحتكم الساعة، مسّتكم الـساعة»، أي سـتردون يـوم القيامـة صباحاً أو مساءاً إلا أنّ الكثير من الناس يخـادعون أنفـسهم. و يقـول أيـضاً بـأنهم لا يعلمون ما هو الزاد و من الذي ينفعهم و ماذا يريدون من الإنسان هناك.

و قال بعد ذلك أيضاً: «من ترك مالاً فلأهله و من ترك دَيْناً فعـليّ و إليّ»[2]، أي مـن ترك مالاً بعد موته فهو لورثته، و من كان عليه دين و أهله فقراء فعليّ إعالتهم.

---

١ . بحار الأنوار، ج٥٨، ص٧.

٢ . بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٥٦، ح٣٦.

لقد خاض النبي و المسلمون في صدر الإسلام ما يقرب من سبعين إلى ثمانين معركة و كان المسلون آنذاك في ضعف و الحروب كلها غير عادلة، و رغم كلّ ذلك فهل كان النبي يحمرّ وجهه عند إعلان الحرب؟ و قد كان المسلمون يقنعون بنصف تمرة و المشركون ينحرون الإبل و يأكلونها. فهؤلاء يأكلون قشر التمرة و أولئك الكباب، و هؤلاء رجّالة و أولئك خيّالة، و هؤلاء مجرّدين عن السلاح و أولئك مسّلحون. ففي معركة بدر على سبيل المثال حيث كانت أول معركة مسلحة لا يمكن المقارنة بين الطرفين؛ بيد أن النبي ﷺ الذي كان قد تولى قيادة هذه الحرب غير العادلة لم يحمرّ وجهه بتاتاً.

و روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لقد كنا ليلة بدر و ما فينا إلا من نام سوى رسول الله ﷺ، إنه كان في أصل شجرة يدعو و يصلي إلى الصباح»[1]، و كان الجميع في قلق ممّا سيواجهونه في الغد إلا الرسول لم يعبأ بذلك. و لكن إذا جرى الحديث عن الموت و عقباته كانت تحمرّ وجنتاه و كأنه كان يرى نار جهنم: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[2]. فمن وصل إلى اليقين سيرى نار جهنم.

طريق الوصول إلى حكمة العبادات و أسرار العالم

لقد وضع الله سبحانه هذا الطريق أمام عباده و السالكين إليه و علّمنا سبل الوصول إلى هذه المراتب واحداً تلو الآخر. فإنّ الإنسان على سبيل المثال يشعر في شهر رمضان المبارك بالعظمة و بجد مجده و علوّه، و يقول: أنا أكبر من أن أقع في دنس الرذائل و اقترف الذنوب. و الشعور بالعظمة يحصل على أثر الصوم الذي من أولى مقدماته الإمساك و قلة الأكل. فقد سئل أرسطو: لماذا تأكل قليلاً؟ قال: أنا آكل لأبقى

١ . إرشاد القلوب، ج٢، ص٥٦.

٢ . سورة التكاثر، الآية ٥ – ٦.

و غيري يبقى ليأكل.

و إنّ كثير الأكل لا يطول عمره و لا يصل إلى المعارف الإلهية. فحقاً إنّ كثرة الأكل لبلاء عظيم.

قال النبي ﷺ: «قال لي جبرئيل عليه السلام في كلام بلغنيه عن ربي: يقول لك ربك يا محمد؛ ما أبغضت وعاء قط إلا بطناً ملآن»[1]، أي المليئة دائماً. لأنّ كثير الأكل يأكل كالحيوانات و يقع كالجمادات. و سنتحدّث في القسم الخامس بشأن هذا الموضوع.

و لا سبيل للوصول إلى حكمة العالم إلا عبر أن يكون الإنسان مُخِفّاً في سريرته فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «تخفّفوا تلحقوا»[2]، و هو على سبيل قوله تعالى: ﴿وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، والآية بشارة للذين لم يلحقوا بأنكم لاحقون، لذلك أنهم فرحون. و إنّ عبارة ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ...﴾ هي عدم ملكة. و المراد بهؤلاء الذين هم في وسط الطريق و يستطيعون الوصول إلى المقصد، و لا تُطلق هذه العبارة على من ليس في الطريق من الأساس، كالسيارة الواقفة في الموقف التي لا حركة فيها. و أما إن كانت إحدى السيارتين في الطريق أبطأ من الأخرى و تصل إلى المقصد في وقت متأخر يقال فيها: «لم تلحق بها».

و إنّ تخفيف الحمل هو عامل على الوصول. فقد يبلغ الإنسان في هذا الجانب درجة يكون سبباً في وصوله و إيصال الآخرين أيضاً.

وقع حريق أو سيل بالمدائن و كان الوالي عليها آنذاك سلمان الفارسي رضي الله عنه فأخذ سيفه و مصحفه و خرج من البلد و تضرّر الآخرون لكثرة ما أرادوا جمعه، فقال

---

١. بحار الأنوار، ج٦٣، ص٣٣٦.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢١.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٧٠.

سلمان: «هكذا ينجو المخفّون»[1].

و قال علي عليه‌السلام في جماعة باتوا يخضمون مال المسلمين: «بين نثيله و معتلفه»[2]، أي تتلخص حياتهم بين المطبخ و بيت الخلاء. لم يقدموا خدمة و لم يفهموا شيئاً و لم يعلموا لِمَ مجيئهم و ما هو تكليفهم.

* * *

١. قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لعلي عليه‌السلام: «يا علي نجا المخفّون و هلك المثقلون». (بحار الأنوار، ج٧٤، ص٥٢، ح٣).

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٣.

القسم الثاني:

النيّة و حكمتها

أفضلية النية على العمل

قال الله سبحانه و تعالى في كتابه: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1]، و لا يراد بقوله ﴿عَمَلاً﴾ هي أن تكون عبادتكم أكثر من غيركم، إذ ليس الكلام في الكمية.

سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى هذه الآية فقال: «ليس يعني أكثر عملاً و لكن أصوبكم عملاً و إنما الإصابة خشية الله و النية الصادقة و الحسنة ـ ثم قال ـ : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، و العمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز و جل و النية أفضل من العمل»[2].

فلا يصل الإنسان إلى الصواب و الحقيقة إلا إذا ازدادت خشيته من الله و كان له

---

١ . سورة الملك، الآية ٢.

٢ . قال الباقر عليه السلام: «نية المؤمن خير من عمله لأنه ينوي من الخير ما لا يدركه و نية الكافر شرّ من عمله و ذلك لأن الكافر ينوي الشرّ و يأمل الشرّ ما لا يدركه». (الكافي، ج٢، ص١٨٢).

قلب خالص. و العمل لا يكون خالصاً إلا إذا لم يرد بـه الإنـسان المـدح و الإطـراء و الشكر عليه. فمن المؤسف أن يقوم الإنسان بعمل عبادي خالص و ينتظر الـشكر مـن الآخرين، و من المؤسف أن يصغّر الإنسان من قدر ذلـك المقـام العظـيم الرفيـع بهـذا الانتظار الوضيع. علماً بأن مدح الله و ثناءه مما يطلبه عبـاد الله المخلـصون. و لـذا فقـد خُلق الموت و الحياة ليُعلم أيّ الناس أقرب عمله للحقيقة و الصواب.

و إنّ النية الصالحة خير من عملها؛ لأن النية إذا خلصت و قويت تسوق الإنـسان إلى العمل. كما أنّ النية أصعب من العمل. و ما ورد في الخـبر: «نيـة المـؤمن خـير مـن عمله»[1]، و كذلـك: «أفضل الأعمال أحمزها»[2]، لا يراد منه أنّ ثواب النية رغم سـهولتها أكثر من ثواب العمل. إذ لو درسنا هذين الأصلين الدينيين مع بعـض لتوصّـلنا إلى أنّ النية في غاية الصعوبة، و لو كانت أفضل الأعمال أصعبها و أحمزها تكون النيـة أفـضل من العمل.

فمن الممكن أن يشارك الإنسان في جبهات القتال و يُقتل أيضاً، إلا أنّ القتل لـيس بأمر عسير، بل الصعب هو إخلاص العمل لله و تطويع الـنفس و شـيطان البـاطن. و لذا قال الإمام: «نية المؤمن خير من عمله».

حقيقة النية

تحصّل مما أسلفناه أنّ النية هي روح العمل. و لا يعني وجوب النيـة حـين العبـادة أن يرسم الإنسان في ذهنه عند أداء الصلاة مثلاً بأني أصلي أربع ركعات لصلاة الظهـر قربة إلى الله تعالى، فإنها على حدّ تعبير أهل المعنى نيـة بالحمـل الأولي و غفلـة بالحمـل الشائع.

---

١. بحار الأنوار، ج٦٧، ص١٩١.

٢. الكافي، ج٢، ص١٦، ح٤.



و إنها النية هي انبعاث الروح و طيرانها. فلو اجتاز الإنسان عالم الطبيعة و ترقى فقد نوى و إلا فهي ليست إلا إخطار حصولي و مفهوم ذهني و هذه هي أدنى مراتب العبادة بأن تبرأ ذمتنا عن أداء الواجب و لا تبقى حاجة للإعادة و القضاء. و أما النية التي يرتبط باطن العمل بها و التي هي أسمى منه إنها هي انبعاث الروح و طيرانها. و لذا ورد في الخبر: «فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة».

ثم إنّ صحة العبادة مشروطة بالنية حيث يبطل العمل من دونها و بما أنّ للنية درجات تكون للصحة مراتب أيضاً.

و إنّ المواقف المهمة في يوم القيامة هي عبارة عن: النار و الجنة و الرضوان و من جانب آخر فإنّ للنفس الإنسانية أيضاً ثلاث حالات و هي الشهوة و الغضب و العقل الطالب للكمال، و لذا فإنّ للعبادة كذلك أقسام ثلاثة و ينقسم العبّاد أيضاً إلى ثلاثة أقسام: «إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار و إن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد و إن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار و هي أفضل العبادة»[1]، فإنّ هذه العبادات صحيحة بأسرها بيد أنها لا تتّحد في مراتب الثواب و الأجر.

إذن فالنية التي هي قصد القربة تمثّل روح العمل و هي أعلى و أهم منه؛ لأن حياة العمل متعلقة بالنية و إنّ لجزاء الأعمال على أساس نوع نية الإنسان و قصده مراتب مختلفة.

تأثّر الإنسان بالنية

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النية»[2]، لأنّ العمل

---

١ . نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٧.

٢ . وسائل الشيعة، ج١، ص٣٨، ح١٤.

الظاهري الصوري تابع للقصد القلبي وجوداً و عدماً و قوة و ضعفاً. فإن قويت النية و القصد سيكون البدن الضعيف العاجز قادراً على القيام بالأعمال المهمة و إن ضعفت النية سيتجه البدن القويّ إلى الضعف و العجز. فقيمة وجود الإنسان بنيته لا ببدنه. و هناك حديث من أوضح الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في بيان حدّ الإنسان حيث يقول بأن الإنسان «حيوان ناوٍ» أي القاصد.

و الشاهد الآخر على أنّ لنية الإنسان و قصده أصالة هي أنه لو تحققت هذه النية و قويت لانطلت على الصلاة صبغة المناجاة و أصحبت في الواقع معراجاً للمصلي. و إن ضعفت و غفل عنها المصلي لفقدت صبغتها المناجاتية و عندها سيكون المصلي مستحقاً لـ«الويل»؛ كما قال الله سبحانه: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾[1].

الإخلاص و الرياء

إنّ للعقل العملي شؤون و آثار كالإرادة و الإخلاص. و هو النور الذي يُعرف و يُعبد به الله و يكتسب به الجنة[2]. فإن أضاء هذا النور من دون مانع و خسوف ظهرت حالة الإيمان و الإخلاص و إن انكسف العقل و حجب لاتباع الهوى ظهرت حالة الكفر و الرياء.

روى الشيخ الكليني رحمه الله عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ليس بين الإيمان و الكفر إلا قلة العقل»، قيل و كيف ذاك يابن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: «إنّ العبد يرفع رغبته إلى مخلوق، فلو أخلص نيته لله أتاه الله الذي يريد في أسرع من ذلك»[3]. و مثله ما

---

١. سورة الماعون، الآية ٤ – ٧.

٢. سئل الإمام الصادق عليه السلام: ما العقل؟ قال: «ما عبد به الرحمن و اكتسبت به الجنان» (الكافي، ج١، ص١١، ح٣).

٣. نفس المصدر، ص٢٨، ح٣٣.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام معتبراً فيه الفرق بين الحق و الباطن هو قلة العقل.

فالمخلص عاقل و غير العاقل ليس بمخلص و لذا يقع في الرياء. كما أنّ العاقل ليس بمراء و المرائي ليس بعاقل.

يقول حذيفة بن اليمان: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإخلاص؟ قال: سألته عن جبرئيل؟ فقال: سألته عن الله تعالى؟ فقال: «الإخلاص سرّ من سرّي أودعه في قلب من أحببته»[1].

و إن أحبّ العبد السالك ربه سيكون تابعاً لما أنزله الله على لسان حبيبه النبي الأعظم صلى الله عليه وآله. فإنّ اتّباعه يسبب محبوبية الله سبحانه و تعالى لأن اتّباع المحبوب يستجلب المحبوبية كما قال الله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[2]، و في هذه الحالة سيتحقق وعد القرب الولائي حيث قال الله سبحانه: «و إنه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به و يده التي يبطش بها»[3].

إذن فللإخلاص الذي هو أساس في النية حكمة ملكوتية لا يصلها إلا من كان محبوباً لله، و لا يحبّ الله عبداً إلا إذا كان ممن يؤدي النوافل و الفرائض.

و الرياء هو أن يُري الناس بأنه يعمل لله مع أنه لا يعمل له و السمعة هي أن يُسمع الناس بأنه يعمل لله و لكنه ليس كذلك. فإن دخل الرياء و السمعة في متن العمل العبادي بطل العمل. و لذا يشترطون النية في العبادات و يعتبرون الرياء مبطلاً للعمل.

---

١ . جامع أحاديث الشيعة، ج١، ص٣٧٥، ح٧٧٢.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٣١.

٣ . الكافي، ج ٢، ص٣٥٢.

فقد ورد في بعض الأخبار: «يصل الرجل بصلة و ينفق نفقة لله وحده لا شريك له فتكتب له سرّاً ثمّ يذكرها فتمحىٰ فتكتب له علانية ثمّ يذكرها فتمحىٰ و تكتب له رياء»، مثله مثل المزارع الذي يزرع وردة ثم يلامس أوراقها الظريفة كراراً حتىٰ تؤول هذه الوردة شيئاً فشيئاً إلىٰ الذبول. فإنّ العمل الصالح الذي يقوم به المرء إن ذكره مرة للآخرين فكأنه لامس ورقة الوردة مرة واحدة و إن ذكره عشراً فكأنما لامس ورقة الوردة عشر مرات و عندها ستؤول إلىٰ التلف و الذبول.

إنّ النية ضرورية في العبادات و لكن لم يرد أمر في وجوب العمل لله في المسائل غير العبادية و التوصلية. بيد أنّ الإنسان إذا اتّخذ في هذه المسائل التوصلية طابعاً عبادياً و راءىٰ فيها فقد أوقع نفسه في الهاوية. فعلىٰ سبيل المثال لا يتحتّم غسل اليد الملوّثة بقصد القربة، بل يكفي للتطهير مجرّد الغسل. و لكن إذا قام المرء بهذا العمل إظهاراً للناس بأنه ابتغاء لوجه الله فهو شرك و معصية؛ إذ كان بإمكانه القيام بهذا العمل كسائر الأعمال التوصلية. و لكنه إن أراد الحصول علىٰ الثواب فعليه بقصد القربة.

إذن فالشرك أمر محرّم، إذ لو اتّخذ العبد في جانب من أعماله شريكاً غير الله فهو في ذلك الجانب ليس عبداً لله، و بالتالي لا يُقبل عمله من قبل الله سبحانه لنقصانه و لا يكون عبداً لله.

يقول رسول الله ﷺ في الخطبة الشعبانية: «فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة و قلوب طاهرة». و ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه‌السلام بأنّ القلب الطاهر هو القلب الذي لا يوجد فيه سوىٰ ذكر الله.

فإنّ الإنسان معرّض دوماً لهجوم وساوس الشيطان و الأخير ملازم له من خلال النفس. و قد قال الله سبحانه: ﴿وَ إِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، فإن داهمتكم فكرة الذنب فاعلموا أنّ الشيطان يريد الهجوم و عليكم حين

١. سورة الأعراف، الآية ٢٠٠.



هجوم العدو باللجوء إلى الملجأ.

و لا يكفي حين هجوم الوساوس قول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فإنّ الاستعاذة اللفظية و إن كانت عبادة و لكن لا يجتاز أثرها دائرة اللفظ، و حين سماع صفارة الإنذار لابد من اللجوء إلى الملجأ. فمن يسمع الصفارة و يقف في ساحة مفتوحة و يقول: أنا ألجأ إلى الملجأ! لا يعتبر ذلك لجوءاً؛ بل على المرء حين سماع الصفارة أن يوصل نفسه إلى الملجأ.

قال الله سبحانه بأنكم إن أحسستم في أنفسكم ضعفاً فالجؤوا إلى الله القوي جلّ جلاله الذي لا ملجأ إلا هو: ﴿وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾[1].

الملائكة و استشمام النية

من المعلوم أن الملائكة عندما تسجّل أعمالنا فإنها ترى ذلك، فمن أين لها معرفة ما نبطنه من نوايا حيث قال تعالى: ﴿وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾[2]، أي حتى مع عدم إفشاء الأسرار فلابد من المحاسبة عليها في يوم القيامة، فمن أين علمت الملائكة ذلك؟

من هنا سئل الإمام الكاظم عليه السلام عن الملكين هل يعلمان الذنب إذا أراد العبد أن يفعله أو الحسنة؟ فقال: ريح الكنيف و ريح الطيب سواء؟ قال: لا، قال: إن العبد إذا همّ بالحسنة خرج نفسه طيّب الريح فيقول صاحب اليمين لصاحب الشمال قم فإنه قد همّ بالحسنة فإذا هو فعلها كان لسانُه قلمه و ريقُه مداده فأثبتها له و إذا همّ بالسيئة خرج نفسه منتن الريح فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين قف فإنه قد همّ بالسيئة فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه و ريقه مداده فأثبتها عليه في الدنيا و الآخرة[3].

---

١. سورة الكهف، الآية ٢٧.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٨٤.

٣. الكافي، ج٢، ص٤٢٩، ح٣.

فكيف لمن يعيش وسط البشر أن لا يشعر بريحها و لا يستاء منها؟ و أما الذي وصل إلى الملكوت يشمّ ريح الآخرين الطيبة و المنتنة و يميز المؤمن من المنافق.

قال شخص: كنت أنا عند أمير المؤمنين عليه‌السلام إذ أتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين جئتك من وادي القرى و قد مات خالد بن عرفطة، فقال أمير المؤمنين عليه‌السلام: إنه لم يمت، فأعاد عليه الرجل، فقال عليه‌السلام: له لم يمت و أعرض عنه بوجهه، فأعاد عليه الثالثة فقال: سبحان الله أخبرك أنه قد مات و تقول لم يمت، فقال علي عليه‌السلام: و الذي نفسي بيده لا يموت حتى يقود جيش ضلالة حمل رايته حبيب بن جماز، فسمع ذلك حبيب بن جماز فأتى أمير المؤمنين عليه‌السلام فقال له: أنشدك الله فيّ فإني لك شيعة و قد ذكرتني بأمر لا و الله لا أعرفه من نفسي، فقال له علي عليه‌السلام: و من أنت؟ قال: أنا حبيب بن جماز، فقال له علي عليه‌السلام: إن كنت حبيب بن جماز فلا يحملها غيرك، فولى عنه حبيب و أقبل أمير المؤمنين عليه‌السلام يقول: إن كنت حبيب لتحملنها، قال الراوي: فو الله ما مات خالد بن عرفطة حتى بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي عليه‌السلام و جعل خالد بن عرفطة على مقدمته و حبيب بن جماز صاحب رايته[1].

و ها قد تحقق بعد ذلك علم غيب الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام و معرفته بالأسرار الباطنية للذي كان جالساً تحت منبره

فالإمام كالمَلَك الذي يرى الناس على حقائقهم ما بين من باطنه روضة و من باطنه جيفة، رأى حقيقة هذا الرجل. و على أيّ حال فنحن ما بين من يحفر الآبار أو من يسقي الأزهار. ﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبينَ * فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعيمٍ﴾[2]. فالمقرّب يكون روحاً و ريحاناً إضافة إلى ما سيتنعم به من ﴿جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾[3]. و

---

١. سفينة البحار، ج٢، ص٦٦٢.

٢. سورة الواقعة، الآية ٨٨ - ٨٩.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٥.

إلا فسوف يُفتضح أمام الجميع يوم تبلى السرائر.

و قد ورد في الخبر أن الناس يتأذون من ريح العالم التارك لعلمه لأنه أضلّ منهم بل و أهل النار أيضاً: «و إنّ أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه»[1].

يوم تبلى السرائر

من يفتضح في دار الدنيا يستطيع الاختباء وراء جدار أو شجرة أو في وادٍ أو سفح جبل لكي لا يراه أحد. و أما في غد حيث تظهر الحقائق و تكشف السرائر أمام الله فلا مفرّ و لا وادٍ و لا جبل.

يقول الله سبحانه و تعالى في القرآن الكريم رداً على من يسأل النبي: **﴿وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لَا أَمْتًا﴾**[2]، فالأرض في الآخرة أرض مستوية لا توجد فيها جبال و لا وديان و لا روابي و لا تلال و لا أشجار و لا جدران حتى يختبأ الإنسان الخجل فيها، بل إنّ بصر أهل المحشر حديد ينظرون حيثما يشاؤون: **﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾**[3]. و هناك الإنسان و أمامه مشهد واسع من المخلوقات. فأين يختبأ الإنسان الخجل؟ و كيف يسمح لنفسه من قضى عمره في الطعن و الهجاء أن يكون بين الناس يوم تبلى السرائر؟ و لذا فإن أشدّ خطر هو الخزي و الافتضاح.

يقول الله سبحانه في مدح النبي و المؤمنين: **﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَ الَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْديهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾**[4]. و من هنا يظهر أنّ الخطر شديد حيث يبين الله عظمة النبي قائلاً بأنّ

---

١. الكافي، ج١، ص٤٤.

٢. سورة طه، الآية ١٠٥ - ١٠٧.

٣. سورة ق، الآية ٢٢.

٤. سورة التحريم، الآية ٨.

كرامة النبي و أتباعه محفوظة في ذلك اليوم و لا يخزيهم الله و الآخرون في هاوية العار و الشنار.

لذا ينبغي علينا الآن أن نرىٰ هل أن ظاهرنا يحكي عما هو موجود في سرائرنا؟ أم إذا اختلينا و أنفسنا سلكنا طريقاً آخر؟ و أيّنا يحمل هذه الشجاعة بأن يُوحّد بين باطنه و ظاهره. فإنّ ذلك اليوم يوم الخزي و الافتضاح، و لا شيء أسوء من ذلك. فلو افترضنا أنّ الإنسان قادر علىٰ تحمّل النار و الاحتراق فيها و الصبر علىٰ ذلك العذاب و لكنه لا يستطيع و لو للحظة تحمّل الخزي و الفضيحة. و لذا يقول أولوا الألباب حيث يدور الحديث عن العذاب في يوم القيامة: ﴿رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾[1]، فالكلام عن الخزي و هو المهم و إن كان الاحتراق بالنار أمر عسير.

المنافق و سوء النية

إنّ الإنسان لا يخشىٰ من ظهور بعض الأمراض و لكنه يستاء من إفشاء بعضها الآخر. فالنفاق مرض قلبي كامن في النفس و قد هدّد الله سبحانه المنافقين: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ﴾[2]، و هؤلاء هم ضعاف الإيمان الذين يعتبرون أنفسهم مسلمين في وقت الهدنة و الاستقرار و لكنهم لا يرفعون قدماً للحفاظ علىٰ الإسلام و تعزيز أسسه عند الشدة و الابتلاء. و لذا يقول الله عزّ و جلّ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[3].

ففي بداية حركة الرسول الأكرم ﷺ حيث لم يكن هناك جهاد و لا دفاع و كان المسلمون يعيشون في هدوء و قرار ظانّين أن الاقتداء بالنبي ﷺ في المسجد كاف

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٩٢.

٢. سورة محمد، الآية ٢٩.

٣. سورة البقرة، الآية ٢١٤.



لدخولهم الجنّة، حتىٰ نزلت آية مبيّنة أن هذه الأعمال لا تكفي لدخول الجنة و الناس بعد لم يشهدوا حرباً و لم يخوضوا معركة.

و كانوا قبل نزول آية الجهاد يردون علىٰ النبي قائلين له هل نزلت آية أو سورة جديدة أو تكليف و أمر حديث لنعمل به و نثاب عليه؟ و لكن إذا نزلت سورة أو آية في القتال و الجهاد اثّاقلوا و أظهروا ضعفهم فعاتبهم الله عتاباً شديداً علىٰ ذلك[1].

و إنّ عمل المنافق كعمل الفأرة في جحرها حيث يتكوّن بيتها من منفذين؛ أحدهما للدخول إليه و يسمىٰ «نافق» و الآخر للخروج منه و يسمىٰ «قاصع». فتضع الفأرة علىٰ منفذها للخروج طبقة خفيفة من التراب، فإذا سمعت صوتاً و شعرت بالخطر أزالت التراب و فرت من الجحر.

يقول الله سبحانه بأنّ غطاء النفاق لا يبقىٰ إلىٰ الأبد، بل قد نسدّ علىٰ المنافق طريق الفرار و الهزيمة من الطرفين و نأخذ منه فرصة الخروج ثم نخزيه و نخرج أضغانه: ﴿وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[2].

فالنفاق يعتمد علىٰ عدم وجود أصالة و حقيقة لله. و يتمحور فكر المنافق حول الجهاد في إطار الحسّ لا في إطار العقل، و يُحدّد الناس أيضاً في هذا الإطار و لا يرىٰ لهم حقيقة إلا في دائرة الحسّ و الظاهر. و في الواقع فإن مثل هذا الإنسان لم يعرف الله و لم يطّلع علىٰ أسرار العالم و إنما يخادع نفسه لا غير.

و المنافق يسعىٰ إلىٰ القيام بالأعمال الصالحة أمام الناس ليشهدوا له علىٰ ذلك و القيام بالأعمال السيئة في الخفاء ليبتعد عن أنظارهم و إنّ رؤيته ترتكز علىٰ أساس الناس كما يقول الله سبحانه: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَ كانَ اللهُ بِما يَعْمَلُونَ

---

١ . سورة التوبة، الآية ٣٨.

٢ . سورة محمد، الآية ٣٠.

مُحيطاً﴾[1]. فيظهر من مراءاة المنافقين في إخفائهم سيئاتهم و إظهارهم حسناتهم أنّ معيارهم و ملاكهم هو الناس.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[2]، و يقول في موضع آخر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾[3]، و يقول أيضاً: ﴿وَ لا يَكْتُمُونَ اللهَ حَديثاً﴾[4].

فتدلّ هذه التعابير المختلفة على هذه الحقيقة و هي أنه لا يخفى على الله شيء. و سيعلم الإنسان في ذلك اليوم أنّ الله كان يرى في دار الدنيا لا أنه يرى في يوم القيامة. و إنّ قول الله عزّ و جلّ: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبيرٌ﴾[5]، لا يعني أنّ الله خبير في يوم القيامة؛ بل سيتضح للناس في يوم القيامة أنّ الله كان خبيراً و مطلعاً على الدوام.

* * *

١. سورة النساء، الآية ١٠٨.

٢. سورة غافر، الآية ١٦.

٣. سورة الحاقة، الآية ١٨.

٤. سورة النساء، الآية ٤٢.

٥. سورة العاديات، الآية ١١.

القسم الثالث:

الطهارة و حكمتها

الله يحبّ الطهارة

إنّ الأمر الوحيد الذي يُقرّب الإنسان من الله هو الابتعاد عن الطبيعة و الدنيا لأن المتعلق بالدنيا لا يصل إلى الله. و كلّ ما يُبعّد الإنسان عن الله فهو دنياه سواء كان مالاً أو جاهاً أو حباً للذات.

و لقد قال الله سبحانه بعد بيان عبادة الغسل و الوضوء و التيمم: **﴿وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾**[1]، فما لم يتطهّر الإنسان لا يمكنه الوصول إلى الله الطيب. إذن فإنّ السرّ في الأوامر الصادرة من عند الله سبحانه و تعالى سواء كانت عبادية أم مالية و هي عبادية أيضاً طهارة الضمير التي يحبها الله جلت عظمته.

و يقول أيضاً: **﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فيهِ فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرينَ﴾**[2]، فهم لا ينظرون إلى الطهارة كتكليف بل

---

١. سورة المائدة، الآية ٦.

٢. سورة التوبة، الآية ١٠٨.

ينظرون إليها بوصفها أمراً محبوباً لديهم و يحبون طهارة الضمير.

فإن اجتهدوا و تطهّروا تغمرهم محبة الله و عندها سينقاد لهم كلّ شيء. إذ لا يمكن أن يكون امرؤ محبوباً عند الله و لا يطيعه عالم الخلق لأن المحبوب لا تبقى له إرادة سوى ما يريده حبيبه و بما أنّ العالم بأسره منقاد لإرادة الله فسيكون العالم منقاداً لإرادة حبيب الله كذلك. و هو منتصر على الدوام و لا يضرّ به أيّ عامل لأن عالم الوجود بأسره جند لله: ﴿وَ للهِ جُنُودُ السَّماوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾[1]، و الله يحفظ حبيبه فلا يستطيع أن يتغلّب عليه شيء.

الله يحب الطاهرين

الإنسان الطاهر حبيب الله و من أحبه الله ظهرت عليه آثار الربوبية لأنّ الله سبحانه لا يترك حبيبه. فهو يحب الطاهرين و المسجد محل الطهارة. و إن سنّ الأحكام الظاهرية فقد وضع إلى جانبها نيل محبة الله حيث قال بأن المسجد و المعبد و مراكز العبادة إنما هي لتربية الإنسان الطاهر؛ أي لتربية الإنسان الذي يكون حبيباً لله.

و قد نزل القرآن الكريم من عند الله بوصفه فيضاً عظيماً و لا يكون له نصيب من هذا القرآن إلا من كان طاهراً كما قل الله سبحانه في كتابه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[2]، فالمطهّرون هم الذين ينهلون من المعارف القرآنية.

و المطهرون الحقيقيون هم أهل البيت عليهم السلام حيث وصفهم الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[3]. و قد ذكرنا في

---

١ . سورة الفتح، الآية ٤.

٢ . سورة الواقعة، الآية ٧٧ - ٧٩.

٣ . سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

الآيات السابقة بأنّ القرآن لا يصل إلى عمقه إلا المطهرين و أهل البيت هم المطهّرون، و هم المطّلعون على حقيقة القرآن و تلامذتهم أيضاً يستضيئون بالقرآن كلّ بحسب طهارته.

حكمة الطهارة في الرؤية القرآنية

اتّضح مما مرّ أن الطهارة هي سرّ العبادة و حكمتها و لكن ليس المراد بها الطهارة الظاهرية. فلا يزعم البعض حين أمرنا الله بالوضوء من أجل الطهارة بأنّ الماء يُطهّر ظاهر البدن و يضفي على الإنسان طهارة ظاهرية لأنه يذكر هذا المعنى في التيمم أيضاً حيث أمرنا بالتيمم و تعفير الوجه بالتراب من أجل الطهارة. فمن الممكن أن يطهر الماء البدن طهارة ظاهرية و أما وضع اليد على التراب و مسح الوجه بها تسوق الإنسان إلى الطهارة المعنوية.

إذ يقول الله في بيان التيمم: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْديكُمْ مِنْهُ ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

و قد اعتبر بعض الفقهاء عدم كفاية وضع الإنسان يده على حجر أملس و مسحه على وجهه مستدلين بقوله ﴿منه﴾ فلابدّ من تعفير الوجه بالتراب و التصاق غبار الأرض على الوجه.

ثم قال: ﴿ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، فيظهر أنّ الإنسان حين التيمم يتطهر بتعفير وجهه بالتراب، و لكن من أيّ شيء يتطهّر؟ مما لا شكّ فيه أنّ هذا العمل يسلب من الإنسان الغرور و الكبر و يُطهّره بذلك و عندها

---

١. سورة المائدة، الآية ٦.

سيرتدع عن الاعتراض على إرادة الله و عن الإدلاء برأيه، إذن فالطهارة المطلوبة لدى الله هي التطهّر من الغرور و الكبر.

و كما أنّ الله يقول بعد أن يحصي النعم الظاهرية: ﴿وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾، يذكر التيمم أيضاً بوصفه نعمة ليكون الإنسان شاكراً أمامه.

حِكَم الوضوء في كلام النبي ﷺ

لقد قيل لنا: تعلموا أسرار العبادة و اعملوا بها. فإنّ الصلاة و الصيام و الوضوء و سائر التكاليف من الأحكام الإلهية. و قد سُنّت هذه الأحكام لوقوف الإنسان على أسرارها و التحرر من الأسر.

روى الصدوق ﵀ بأن النبي ﷺ صلى يوماً بأصحابه الفجر ثم جلس معهم يحدّثهم حتى طلعت الشمس، فجعل يقوم الرجل بعد الرجل حتى لم يبق معه إلا رجلان أنصاري و ثقفي، فقال لهما رسول الله ﷺ : قد علمت أن لكما حاجة تريدان أن تسألاني عنها فإن شئتما أخبرتكما بحاجتكما قبل أن تسألاني و إن شئتما فاسألاني، قالا: بل تخبرنا يا رسول الله فإن ذلك أجلى للعمى و أبعد من الارتياب و أثبت للإيمان، فقال النبي: أما أنت يا أخا الأنصار فإنك من قوم يؤثرون على أنفسهم و أنت قرويّ و هذا الثقفي بدويّ أ فتؤثره بالمسألة؟ قال: نعم، قال: أما أنت يا أخا ثقيف، فإنك حئت تسألني عن وضوئك و صلاتك و ما لك فيهما، فاعلم أنك إذا ضربت يدك في الماء و قلت بسم الله الرحمن الرحيم تناثرت الذنوب التي اكتسبتها يداك، فإذا غسلت وجهك تناثرت الذنوب التي اكتسبتها عيناك بنظرهما و فوك بلفظه، فإذا غسلت ذراعيك تناثرت الذنوب عن يمينك و شمالك، فإذا مسحت رأسك و قدميك تناثرت الذنوب التي مشيت إليها على قدميك[1].

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٢٠٢، ح٢١٣٨.



و معنىٰ ذلك أنّ في مسح الرأس التطهّر من الخواطر الباطلة، و من أراد أن يذكر اسم الله بلسانه عليه أن يطهّر فمه، إذ لا يمكن ذكر الله بفم غير طاهر، فلابد من المضمضة و غسل الفم بالماء. هذا جانب من حِكَم الوضوء.

و يقول النبي الأكرم ﷺ: «يحشر الله عزّوجلّ أمتي يوم القيامة بين الأمم غُرّاً مُحجّلين من آثار الوضوء»[1]، أي ممتازين بالنور علىٰ غيرهم.

فإنّ السبب من عدم الالتذاذ بصلاتنا و سائر عبادتنا هو عدم الوقوف علىٰ هذه الحِكَم. و إنّ الذين يلتذّون بالعبادة لا يرومون عنها بدلاً.

حِكَم الوضوء في بيان الإمام الثامن عليه السلام

روىٰ المرحوم ابن بابويه عن الإمام الثامن عليه السلام أنه قال لأحد تلامذته و هو محمد بن سنان: «إنّ علة الوضوء التي من أجلها صار علىٰ العبد غسل الوجه و الذراعين و مسح الرأس و القدمين، فلقيامه بين يدي الله تعالىٰ و استقباله إياه بجوارحه الظاهرة و ملاقاته بها الكرام الكاتبين، فيغسل الوجه للسجود و الخضوع و يغسل اليدين ليقلّبهما و يرغب بهما و يرهب و يتبتّل و يمسح الرأس و القدمين لأنهما ظاهران مكشوفان يستقبل بهما كل حالاته و ليس فيهما من الخضوع و التبتّل ما في الوجه و الذراعين»[2].

إنّ لأسرار الله حقائق ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[3]، فإن لم يمكن الوصول إلىٰ حقيقة القرآن إلا للمطهّرين، لا يمكن الوقوف علىٰ حقيقة هذه العبادات إلا للمطهرين أيضاً. حيث إنهم يلتذّون بالعبادة و لا يشغلهم عنها شاغل.

ففي الوضوء لا يكفي غسل الوجه بالصابون، بل لابد من إقران الغسل بالنية.

---

١ . بحار الأنوار، ج٨٠، ص٢٣٧.

٢ . وسائل الشيعة، ج١، ص٣٩٥.

٣ . سورة الواقعة، الآية ٧٩.

فعلى المرء أن ينوي بأن يغسل وجهه و يطهره من الذنوب من أجل الوضوء و الصلاة امتثالاً لأمر الله و الوقوف أمامه و السجود له بوجه طاهر، حتى يطلع على أسرار العبادة، و يصاحب الملائكة. و أن يغسل يديه ليدعو الله بيد طاهرة و يبتهل إليه و يمسح رأسه و رجليه لأن رأسه مكشوف في الصلاة و رجليه باتجاه القبلة؛ فلابد أن يكون طاهر الفكر و طاهر الرجل و طاهراً من الرأس إلى القدم لكي يقف أمام الله و يشعر باللذة. و لذا قال الإمام: إنّ علة الوضوء التي من أجلها صار غسل الوجه و الذراعين و مسح الرأس و القدمين، فلقيامه بين يدي الله تعالى و استقباله إياه بجوارحه الظاهرة و ملاقاته بها الكرام الكاتبين.

الطهارة من الرجاسة و النجاسة

تكمن حكمة الوضوء في الطهارة من كلّ رجاسة و نجاسة تلوّث الإنسان. و إنّ المتوضئ بوضوئه يُطهّر نفسه من النجاسة و الرجاسة المختصة بالروح.

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، و يقول أيضاً: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[2]، و يقول كذلك: ﴿وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ﴾[3]، فالمراد بالنجاسة في هذه الآيات هي النجاسة و القذارة الباطنية، و إن كانوا متصفين بالطهارة من حيث الظاهر؛ لأنّ رؤية ما سوى الله و الاتّكال على غيره و نسبة الأقوال و الأفعال و الأحوال إلى غيره شرك باطني مخالف للتوحيد الخالص. و من يريد الوضوء يبغي الطهارة من هذا الرجس و النجس الباطني ليكون موحّداً مخلصاً للمناجاة مع الله و عندها سيكون هذا المتطهّر بحيث لا يُنجّسه شيء: «المؤمن لا يُنجّسه شيء»[4].

---

١ . سورة لقمان، الآية ١٣.

٢ . سورة التوبة، الآية ٢٨.

٣ . سورة يوسف، الآية ١٠٦.

٤ . المحاسن للبرقي، ج١، ص٢٢٥، ح٤٠٤.

ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الكذبة تنقض الوضوء»[1]، و كذا يستفاد من روايات أخرىٰ عن الإمام الباقر عليه السلام و غيره أن الظلم و إنشاد الأشعار الباطلة و اللهوية أيضاً تنقض الوضوء. و هذه المسألة الظريفة هي واحدة من الحِكَم الباطنية للوضوء.

فلو ثبت لأحد أنّ الإنسان موجود أبديّ و ثبت أيضاً أنه يستطيع الوصول إلىٰ مقام أسمىٰ، سيبذل كلّ ما بوسعه في هذا الطريق للوصول إلىٰ ذلك المقام.

و إنّ لكلّ من التعاليم الدينية من الطهارة إلىٰ التولي و التبري روح و جسم. و الجهاد أيضاً كذلك و هو بحاجة إلىٰ بحث مستقلّ ليتّضح ما هو سرّ الحرب و فلسفة مقاتلة العدوّ؟ و ما هي تلك الروح التي تسوق المجاهد إلىٰ مقام الشهادة الرفيع؟ و قد بدأ القرآن الكريم هذا الطريق بالطهارة ليوقفنا علىٰ أسرار سائر العبادات؛ فالهدف من الجهاد علىٰ سبيل المثال لا يقتصر علىٰ حفظ المساحات، بل المهم هو الوصول إلىٰ حِكَم العبادات و باطنها.

فيظهر من قول الله في سورة المائدة: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ... يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، أنّ الله سبحانه و تعالىٰ سنّ كلّ عبادة علىٰ هذا الأساس و هو أن يصل الإنسان إلىٰ عبودية الله و يتحرّر من عبودية الآخرين.

فلا عدوّ ألدّ من عدوّ الباطن[2] و لا نجس أشدّ من رجس النفس. و لذا فقد شُرعت كلّ العبادات ليتخلّص الإنسان من الغرور و الكبر عبر طرق شتىٰ. و جاءت كلّ التعاليم للتطهير، فالإنسان يُصلي ليطهر و يصوم ليطهر و يحارب ليعبّد الطريق للتطهّر.

* * *

---

١ . الكافي، ج٤، ص٨٩.

٢ . قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أعدىٰ عدوّك نفسك التي بين جنبيك» (بحار الأنوار، ج٧٠، ص٦٤).

القسم الرابع:

الصلاة و حكمتها

اطمئنان القلب

حينما يتحدّث القرآن الكريم عن الصلاة يقول: ﴿وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[1]، أي أقم الصلاة لأجل إحياء ذكري، و أنا بهذا الذكر سوف أكون ظاهراً بواسطة الصلاة، فإن ظهر ذكر الله عبر الصلاة يصل القلب إلى الاطمئنان. من جهة أخرى فإن ذكر الله يبعث على اطمئنان القلوب: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2]. و على هذا فإنّ قلب المصلي مطمئن و لا يخاف غير الله أبداً و لا يتأتى لأيّ عدوّ باطني أم خارجي أن يوقع الخوف في قلوب المصلين لأنهم يذكرون الله و ذكر الله يؤدي إلى اطمئنان القلب.

ثم إنّ القرآن الكريم يشير إلى حِكَم الصلاة في سورة المعارج قائلاً بأن طبيعة الإنسان لا تستقر عند الشدائد فإن أصابها خير سعت لأن تتفرّد بالانتفاع منه. فإنّ فطرة الإنسان جُبلت على التوحيد و طبيعته على الرجس و الخبث و الفطرة لا يحييها

---

١ . سورة طه، الآية ١٤.

٢ . سورة الرعد، الآية ٢٨.

إلا الأنبياء و الطبيعة ليس لها إلا الرجس. يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾[١]، لأنهم قمعوا الطبيعة و أحيوا الفطرة، إذ أنّ ميزة الصلاة إحياء الفطرة. فإنّ المصلي هو الذي ذلّل طغيان الطبيعة، و هو الذي لا يهن و لا يضعف أمام المصائب و النوائب و لا يجزع عند الصعاب و الشدائد عبر الطمأنينة التي حصل عليها من خلال الصلاة، و لا يمنع الآخرين ما أصابه من خير.

المواظبة على الصلاة و الإنفاق

يذكر الله المصلين و يبيّن أسرار الصلاة و خواصها قائلاً: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، و يهتدون ببركة الصلاة إلى أفعال الخير. ﴿وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ﴾[٢]، فالمصلي هو الذي لا يخصّص لنفسه كل ما هو باختياره، بل يجعل نصيباً من ذلك للفقراء. و الكلام عن المال الحلال لا الحرام، فمن يهب المال الحرام لا ينتفع بذلك. و أما الذي يكتسب أمواله من الحلال فهو مالك للمال و يقوم بالإنفاق من ماله، فالمصلي هو الذي يكون له في ماله حق معلوم للآخرين.

و الآخرون على صنفين: صنف من الفقراء يجرأ على السؤال، و صنف متصف بالعفة و لا يجرأ على السؤال. و المصلي هو الذي يُشارك الآخرين في أمواله.

كان أبو الحسن الرضا عليه السلام إذا أكل أتي بصحفة، فتوضع بقرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام مما يؤتى به، فيأخذ من كل شيء شيئاً، فيوضع في تلك الصحفة، ثم يأمر بها للمساكين[٣]، ثم يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَ مَا أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾[٤]، أي

---

١ . سورة المعارج، الآية ١٩ - ٢٢.

٢ . سورة المعارج، الآية ٢٣ - ٢٥.

٣ . تفسير البرهان، ج٤، ص٤٦٤؛ الكافي، ج٤، ص٥٢.

٤ . سورة البلد، الآية ١١ - ١٢.



أنّ الناس لا يقتحمون عقبات التفكير في العواقب و هم لا يعرفون ما هي هذه العقبات و يمشون في أرض مسطحة مستوية. فإن السير لا يصعب في سفح الجبال حيث الأرض مستوية و إنما السير في أعلىٰ الجبل يُوسّع أفق نظر الإنسان.

فإنّ إعطاء الثياب البالية و المندرسة للفقير ليس من الصراط المستقيم و لا اقتحام للعقبة. و إنّ هذه الآية تحثنا علىٰ صعود جبل المشاكل و عدم المكوث دوماً في سفح الجبل و تحرضنا علىٰ علوّ الهمة و السعي لاقتحام العقبات. فإن إعطاء الطعام المبيّت و الثياب البالية للغير عمل يسير و مكروه عند الله سبحانه: ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

و إنّ من مهامّ الحكومة الإسلامية الاهتمام بجميع الفقراء حتىٰ و لو لم يكن مسلماً. فقد ورد في الخبر أنه: «مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل، فقال أمير المؤمنين عليه‌السلام: ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نصراني، فقال: استعملتموه حتىٰ إذا كبر و عجز منعتموه! أنفقوا عليه من بيت المال»[2].

فهل أنّ الله سبحانه يتقبّل كلّ صدقة؟ يقول القرآن بشأن صدقة المنافقين بأنهم كلما أنفقوا لا يتقبل الله إنفاقهم و صدقاتهم لأنهم اتخذوه مغرماً و لم يفعلوه بإخلاص. ﴿وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً﴾[3]، و الله لا يتقبّل مثل هذا الإنفاق.

فلو أنّ مزارعاً غرس شجرة و قطع أغصانها الزائدة هل يعدّ عمله هذا غرامة و كلفة؟ و إنما يتم قطع الأغصان الزائدة لتثمر الشجرة فهل يعتبر هذا للشجرة مغرماً أم مغنماً؟.

---

١. سورة آل عمران، الآية ٩٢.

٢. وسائل الشيعة، ج١٥، ص٦٦؛ التهذيب، ج٦، ص٢٩٧.

٣. سورة التوبة، الآية ٩٨.

تربو الأموال بزكاة الزائد منها كما تزداد الثمار بقطع الزائد من أغصانها[١].

فمن أنفق شيئاً في سبيل الله و اعتبره مغنماً لا مغرماً جعل الله له بوزن كلّ شيء تصدق به مثل جبل أحد[٢]، و إن كان بنصف تمرة، و هذا ما يرتبط بحكمة الصدقة و أنّ أيّ الصدقات مقرونة بالحكمة و أيها مفارقة لها.

زهد النبي ﷺ

لقد ورد في التعابير الدينية أنكم إذا أردتم أن تعرفوا قيمة الدنيا و ثروتها فانظروا إلى من يملكها فإن كانت بيد الصالحين فاعلموا أنها قيّمة و إن كانت بيد الطالحين فاعلموا أنها سيئة و إلا لأعطاها الله سبحانه للصالحين.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة: «و لقد كان في رسول الله ﷺ ما يدلك على مساوئ الدنيا و عيوبها إذ جاع فيها مع خاصته و زويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته»، ثم طرح فكرة منطقية استدّل فيها خلال مقدمتين.

المقدمة الأولى: «فلينظر ناظر بعقله أ أكرم الله بذلك محمداً أم أهانه»، و مما لا شكّ فيه أنّ أكرم العباد عند الله هو النبي و ما من كرامة و لا عزة و لا حرمة إلا و أعطاها الله نبيه و قال: ﴿وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٣].

المقدمة الثانية: «قضم الدنيا قضماً و لم يعرها طرفاً أهضم أهل الدنيا كشحاً و أخمصهم من الدنيا بطناً... أعرض عن الدنيا بقلبه و أمات ذكرها من نفسه و أحب أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشاً و لا يعتقدها قراراً و لا يرجو فيها مقاماً فأخرجها من النفس و أشخصها عن القلب و غيبها عن البصر».

---

١. بيت بالفارسية و هذا نصه:

زكات مال به در كن كه فضله مو را   چو باغبان ببرد بيشتر دهد انگور

٢. أمالي الشيخ المفيد، ص٤٠٦، المجلس ٤٢، ح٧؛ و كذلك نفس المصدر، ص٢٦٦.

٣. سورة الانشراح، الآية ٤.



فلنعلم أن من شغله الله بالمال فقد أزواه عن المعارف، فلا نبيع أنفسنا بثمن بخس. و التاريخ يشهد لنبيّنا أنه لطالما بات جائعاً سواء في سنوات شعب أبي طالب الثلاث أم في غيره، و كان إذا حصل على المال من خديجة عليها السلام فإنه يبذله للإسلام لا لشخصه

ثم قال في مقام الاستنتاج: «أ أكرم الله بذلك محمداً أم أهانه فإن قال أهانه فقد كذب و الله العظيم و أتى بالإفك العظيم و إن قال أكرمه فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له و زواها عن أقرب الناس منه»[1].

الصلاة و الإيمان بيوم القيامة

إحدى صفات المصلين ﴿وَ الَّذينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[2]، لأن ذكر المعاد يطهّر الإنسان و المشاكل بأسرها إثر نسيان يوم القيامة.

فإنّ القرآن حين يذكر سبب فسق الفاسقين يقول: ﴿لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾[3]. و أما المصلّون فإنّهم لا ينسون يوم القيامة و يصدّقون به: ﴿وَ الَّذينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾[4]. فإنّ الصلاة تجعل الإنسان خائفاً من يوم الدين و متذكراً للمعاد. ﴿إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[5]. فمن المأمون من عذاب الله؟ و هل أنّ الإنسان قد تسلّم صكّ الأمان؟

يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «و اعلموا أن الله تعالى أقسم بعزّته أن لا يعذّب المصلّين

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

٢. سورة المعارج، الآية ٢٦.

٣. سورة ص، الآية ٢٦.

٤. سورة المعارج، الآية ٢٧.

٥. سورة المعارج، الآية ٢٨.

و الساجدين و أن لا يرّوعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين»[1]، لأنهم: ﴿لايَسْمَعُونَ حَسيسَها﴾[2].

و قد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا صلّيت صلاة فريضة فصلّها لوقتها صلاة مودّع يخاف أن لا يعود إليها أبداً...»[3] بسبب طول الأجل.

المصلّي و العهد و الشهادة

و في تتمة استعراضه لخصائص الصلاة و صفات المصلين يقول الله سبحانه: ﴿وَ الَّذينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ﴾[4]، فهؤلاء هم الراعون لأماناتهم المالية و غيرها و المتمسكون بمواثيقهم مع الله و مع الناس. حتىٰ يقول: عاهدوني و اتخذوني طرفاً لمعاملاتكم.

و قد كتب بعض الأعلام رسائل موسومة بـ «رسالة العهد» و منهم ابن سينا الذي يذكر فيها عهوده و مواثيقه. فهم يعاهدون أن لا يفتحوا ألسنتهم إلا بذكر الله و أن لا يحضروا مجالس المعصية و محافل اللهو. و يبيّنون في رسائل العهد هذه العهود فيما بينهم و بين الله. فللمؤمن مع الله عهدٌ و هذا يدلّ علىٰ أنّ الله قريب بحدّ يستطيع المؤمن أن يتّخذ معه عهداً.

﴿وَ الَّذينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ﴾[5] و صامدون، يثبتون علىٰ ما يشهدون به من وحدانية الله و الرسالة و علىٰ ما يشهدون به من حقّ في سائر المسائل الحقوقية.

---

١. الأربعون حديثاً للشيخ البهائي، ح٩.
٢. سورة الأنبياء، الآية ١٠٢.
٣. الأمالي و المجالس، ص٢١٢، المجلس ٤٤، ح١٠.
٤. سورة المعارج، الآية ٣٢.
٥. سورة المعارج، الآية ٣٣.

المحافظة على أوقات الصلاة

﴿وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[١] و يواظبون على أوقاتها.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ العبد إذا صلى الصلاة في وقتها و حافظ عليها ارتفعت بيضاء نقيّة تقول حفظتني حفظك الله و إذا لم يصلّها لوقتها و لم يحافظ عليها ارتفعت سوداء مظلمة تقول ضيّعتني ضيّعك الله»[٢].

فإنّ الصلاة في أول وقتها تظهر بيضاء نقيّة؛ و من هنا يُعلم أنّ للصلاة حقيقة حية و روح خالدة، تدعو و دعاؤها مستجاب على الدوام و صلاة التارك لها أو الذي لم يحافظ عليها في وقتها تظهر سوداء مظلمة تقول ضيّعتي ضيّعك الله!

إكرام الله المصلّين

يقول في تتمة هذه الآيات: ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[٣]. فلم يقتصر الكلام في التنعّم بنعم الجنة كالجنات و الأنهار و الحرير و الإستبرق و المأكولات و المشروبات بل الكلام عن الكرامة و إكرام المصلين في الجنة.

و «الكرامة» تعبير لطيف يراد به الشرف و العظمة المتصف بها الإنسان الكريم. و قد اعتبر الله الكرامة صفة الملائكة قائلاً: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ﴾[٤]. و هي صفة المصلين أيضاً. و قد نعت الله الملائكة بنعوت محرّضاً على اكتسابها حيث قال: ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٥]. ثم يقول في سورة الحجرات: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

١ . سورة المعارج، الآية ٣٤.

٢ . من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٩، ح٦٢٧.

٣ . سورة المعارج، الآية ٣٥.

٤ . سورة الأنبياء، الآية ٢٦.

٥ . سورة الأنبياء، الآية ٢٧.

آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَ رَسُولِهِ﴾[1]، أي اتبعوا أوامر الحقّ كالملائكة لتتصفوا بصفاتهم و تكونوا أمثالهم. فإنّ لذة صحبتهم كرامة. و إنّ المصلّين في الجنة مكرّمون لأنّ المصلي قد تحلّى بصفات الملائكة و بات يتمتع بما يتمتعون به.

بالاجتهاد يصل الإنسان إلى مرتبة الملائكة كما تتبدّل ورقة التوت تدريجياً إلى حرير[2].

الحشر مع الملائكة

جاء في تفسير هذه الآية ﴿الْحَمْدُ للهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] بأنّ جعفر الطيار عليه السلام حينما قُطعت يداه في سبيل الله، أعطاه الله جناحين «يطير بهما في الجنة»[4] مع الملائكة. و قد ذُكرت فضيلة الحشر مع الملائكة التي لا تضاهيها لذة في الروايات بشأن العبد الصالح أبي الفضل العباس أيضاً[5] و مثل هذه العطايا الغيبية إنما هي ظهور لأسرار العبادة و الإطاعة و بروز لروح العبودية.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ما من عبد من شيعتنا يقوم إلى الصلاة إلا اكتنفته بعدد من خالفه ملائكة يصلّون خلفه و يدعون الله عزّ و جلّ له حتى يفرغ من صلاته»[6].

---

١. سورة الحجرات، الآية ١.

٢. بيت بالفارسية في ديوان سنائي و هذا نصه:

تو فرشته شوي ار جهد كني از پي آنك   برگ توت است به تدريج كنندش اطلس

٣. سورة فاطر، الآية ١.

٤. الكافي، ج١، ص٤٥٠؛ تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٣٤٥.

٥. بحار الأنوار، ج٢٢، ص٢٧٤.

٦. الكافي، ج٨، ص٣٦٥؛ من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٩.

كما و يستطيع الإنسان أن يكون إماماً للملائكة. و قد حرضّنا القرآن الكريم على أنّ باستطاعتنا الوصول إلى مرتبة يمكننا القول فيها: ﴿وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾[1] فهم التابعون و نحن المتبوعون.

قال الإمام الباقر سلام الله عليه: «للمصلي ثلاث خصال»:

الخصلة الأولى: «إذا هو قام في صلاته حفّت به الملائكة من قدميه إلى أعنان السماء».

فما هي هذه العبادة التي تكون الملائكة مأمورة بأسرها لحفظ الإنسان من الوساوس و الشيطان و الوهم و الخيال أن تسوق المصلي إليها؟ حتى إذا قام المصلي لصلاته مع حضور قلب دخل في حصن أمن الملائكة.

فقد تكون الصلاة سوداء مظلمة تقول: «ضيّعتني ضيّعك الله» و قد تكون بيضاء نقيّة تقول: «حفظتني حفظك الله»[2].

فإنّ الشيطان بالمرصاد للصلاة و الصيام و الأعمال الصالحة يقعد إلى جانب الحسنات و يبدأ بالوسوسة. حيث قال بنفسه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3] و أمنعهم من اجتياز هذا الصراط. فإنّ مراكز الفساد و الفسوق مكمن للشيطان. و إنّ الشيطان يبدأ بالوسوسة عند الصلاة و لا يتوجه الإنسان إلا حين الفراغ منها و هو يقول: «السلام عليكم و رحمة الله و بركاته»!

الخصلة الثانية: «و يتناثر البرّ عليه من أعنان السماء إلى مفرق رأسه».

فما هو البر؟ و أيّ شيء نعتبره براً؟ نحن نجد بعض الأعمار مباركة. و إنّ الصديق الجيّد، و الأستاذ الجيّد، و التلميذ الجيّد، و الولد الصالح، و الإخلاص كلها مبرّات و

---

١. سورة الفرقان، الآية ٧٤.

٢. من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٩، ح٦٢٧.

٣. سورة الأعراف، الآية ١٦.

وسائل للوصول إلى البرّ النهائي. و كلها تُكتسب في ظلّ الصلاة، و المصلي بمدد هـذه العبادة يستحق نزول الخيرات و المبرّات.

الخصلة الثالثة: «و ملك موكّل به ينادي: لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل»[1].

و لذا روي عن الإمام المعصوم عليه السلام أنه قال: «و أذقني حلاوة ذكرك»[2]. و بما أننـا لم نذق هذه الحلاوة نجد الصلاة أمراً طبيعياً، و عدم شعورنا بالنورانيـة عنـد الـصلاة لكوننا لا نؤديها بآدابها و أسرارها.

تواضع الإنسان في السجود

أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجل فقال: يا رسول الله ادع الله لي أن يدخلني الجنة، فقـال: «أعنّي بكثرة السجود»[3] حتى أدعو فيستجاب.

فالسجود يجعل الإنسان خاضعاً متواضعاً و المتواضع خارج عن الأنانية.

و إن رضي و فرح المـرء بـصالح عمـل قـوم لم يُوفّـق للقيـام بـه أشرك في ثوابـه و ستنحسر عنه الحسرة عند ذاك، قال علي عليه السلام: «الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم و لكل داخل في باطل إثمان: إثم العمل به و إثم الرضا به»[4]. و أما ما ابتُلي به الكثير من الناس من التأسف على تفويت العمـل فلأنهـم لم يطلبـوا العمـل الـصالح بـل طلبـوا أنفسهم. فقد يصدر العمل الصالح من الآخرين و الإنسان المتقـي يُـشرك في عملهـم لأنه رضي به حقيقة. و حيثما استطعنا تطويـع أنفـسنا التـي لا تنفـكّ عنّـا و ترويـضها سندخل في راحة و قرار و ذلك لا يتيسّر إلا بالعبادة[5].

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢١٠، ح٦٣٦.

٢. مفاتيح الجنان، المناجيات الخمسة عشر؛ بحار الأنوار، ج٩٤، ص١٨٢.

٣. التهذيب، ج٢، ص٢٣٦.

٤. نهج البلاغة، الحكمة ١٥٤.

٥. قال علي عليه السلام: «إنما يجمع الناس الرضا و السخط فمن رضي أمرا فقد دخل فيه و من سـخطه فقـد خـرج منه». (وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٤٠).

و من وصايا أمير المؤمنين عليه السلام و رسول الله صلى الله عليه وآله: «و لا تباغضوا فإنها الحالقة»[1]، أي تحلق الدين. و الحلق هو إزالة شعر الرأس بالموس. و الشعر الذي يُزال بالموس لا ينبت بسهولة. قال: لا تباغضوا فإنها تحلق الدين و تقلعه من الأساس. و ذلك كأن يلجأ الإنسان إثر العداء إلى الكافر. و إنما قالوا لنا: ادعوا الله و اطلبوا منه أن لا يكلنا إلى أنفسنا لحظة واحدة، لأن الحسد و الضغينة و المباغضة تحلق الدين و تقتلع جذوره من أساسها و لا يبقى للدين باقية. فلا تملؤوا قلوبكم حقداً و عداوة على الآخرين فإنّ منشأها الأنانية و الصلاة تزيل الأنانية.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «عليك بطول السجود فإنّ ذلك من سنن الأوّابين»[2]. فعلى المرء أن لا يرفع رأسه من السجود بسرعة. فليصلّ الصلوات العامة بصورة طبيعية و ليطيل السجود في حالاته الخاصة. لأنّ عدوّ الباطن لا يدع الإنسان مطمئناً و يسعى أن يخادع الإنسان حتى آخر لحظة.

و لذا فإنّ أفضل حال في الصلاة هو حال السجدة كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ أقرب ما يكون العبد من الربّ عزّ و جلّ و هو ساجد باك»[3]. فإنّ الإنسان كلّما قرب من التراب كلما ازداد قربه من الله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في الخطبة الشعبانية: «ظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخفّفوا عنها بطول سجودكم»[4].

فهل تلاحظون مدى أثر السجود؟ قد لا يستطيع الإنسان أن يطيل السجود في الصلوات الواجبة؛ بيد أنّ أصل السجود في الصلاة و غيرها أمر مطلوب و مؤثّر. فإن تخلّص الإنسان من شرّ نفسه سيبيت بعيداً عمّا يُؤذيه و يُضنيه.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

٢. بحار الأنوار، ج٨٥، ص١٦٢.

٣. الكافي، ج٢، ص٤٨٣.

٤. بحار الأنوار، ج٩٣، ص٣٥٧.

حكمة سلام المصلي

يقول أحد كبار عرفاء الإسلام و قد ورد مضمون كلامه في كتاب «سرّ الصلاة» للإمام الخميني ﵀ أيضاً: من كان في الصلاة متوجهاً إلى غير الله و ملتفتاً إلى ما يخص حياته كيف يسمح لنفسه القول في نهاية الصلاة: «السلام عليكم و رحمة الله و بركاته»؟ لأن النبي الأكرم ﷺ يقول: «المُصلّي يُناجي ربّه»[1]، و لذا فهو ليس حاضراً بين الناس، فإذا فرغ من صلاته و انتهى من مناجاته مع الله سبحانه و عاد من الحضرة الإلهية و دخل في جمع الناس يقول: «السلام عليكم...». فإن الأشخاص الجالسين جنباً إلى جنب في مجلس و محفل واحد لا يُسلّم أحدهم على الآخر لأنهم حاضرون في المجلس. و إنما يُسلّم من لم يكن حاضراً معهم في المجلس و يدخل عليهم من مكان آخر.

فإنّ السلام في آخر الصلاة لا دعاء و لا ذكر و إنما هو تحية. و لذا فمن يقول في وسط الصلاة عامداً: «السلام عليكم» بطلت صلاته، و من يقولها سهواً عليه الإتيان بسجدتي السهو. إذن فالسلام في آخر الصلاة تحية؛ لأنّ المصلي يناجي ربّه و يبتعد عن الناس، فإن فرغ من صلاته و عاد من مناجاته مع ربّه إلى الأرض و التحق بجمع الناس يُسلّم عليهم. و قد ذكر الفقهاء بأن على الإمام في صلاة الجماعة و حين قوله «السلام عليكم» أن ينظر إلى الجهة الفلانية و المأمومين إلى الجهة الفلانية.

فيقول ذلك العارف الكبير: إنّي لأعجب ممن كان متوجهاً إلى مسائل حياته و لم يناجي ربه و لم ينفصل عن الناس، كيف يسمح لنفسه أن يقول: «السلام عليكم...»[2]؟!

---

١. بحار الأنوار، ج٦٨، ص٢١٥.

٢. للمزيد من الفائدة راجع سرّ الصلاة للإمام الخميني ﵀، ص١٠٨ - ١١٥.



أدب الصلاة

إنّ من أمثلة الأدب في الصلاة الواردة في حديث شريف لرسول الله ﷺ هي: «من اتّقىٰ علىٰ ثوبه في صلاته فليس لله اكتسىٰ»[1]، أي أنّ من كان له ثوبان أحدهما جيّد و الآخر مندرس و كان يلبس الثياب القديمة المندرسة في الصلاة فليس لبسه لله و إنما هو لخلق الله. أو أنه لبس الثياب الجيدة و لكنه أخّر صلاته أو تركها (و العياذ بالله) لئلا تتلوّث ثيابه و يقع عليها الغبار، فيظهر أنه لبس لغير الله. فقد قال الله سبحانه: ﴿يا بَني آدَمَ خُذُوا زينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[2].

الباطن المثالي للصلاة

إنّ لكلّ عبادة باطن مثاليّ و باطن عقلي؛ و الباطن المثاليّ يشاهده الإنسان في البرزخ، و البرزخ هو عالم القبر نفسه. فقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن البرزخ فقال: «القبر منذ حين موته إلىٰ يوم القيامة»[3]، حيث أنّ الإنسان إذا دخل القبر دخل عالم البرزخ. فما يرتبط بعالم المثال يشاهده المرء في البرزخ و أما الباطن العقلي للعبادة فيشاهده في ما فوق البرزخ.

يروي أبو بصير أحد أبرز تلامذة الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام عن أحدهما أنه قال: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستة صور فيهن صورة هي أحسنهن وجهاً و أبهاهن هيئة و أطيبهن ريحاً و أنظفهن صورة فيقف صورة عن يمينه و أخرىٰ عن يساره و أخرىٰ بين يديه و أخرىٰ خلفه و أخرىٰ عند رجليه و يقف التي هي

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٦، ح٦١٩.

٢. سورة الأعراف، الآية ٣١.

٣. تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٥٥٣.

أحسنهن فوق رأسه فإن أتي عن يمينه منعته التي عن يمينه ثم كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الست، فتقول أحسنهن صورة من أنتم جزاكم الله عني خيراً؟ فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة».

فإنّ باطن الصلاة هو نفس هذه الصورة النورانية التي تقف على يمين المصلّي في القبر، فيتأتى له في البرزخ مشاهدتها و التكلّم معها و طلب الشفاعة منها و الصلاة إنما هي مثال و العبادات بأسرها على هذا المنوال.

«و تقول التي عن يساره: أنا الزكاة». و الزكاة لا تختص بالمال، بل على الإنسان أن يدفع زكاة كلّ نعمة إلهية و هو مسؤول عنها بأجمعها، فقد ورد في الأخبار: «زكاة العلم تعليمه من لا يعلمه»[1]، و كذا: «زكاة الجمال العفاف»[2]، و أيضاً: «زكاة الشجاعة الجهاد في سبيل الله»[3]، إلى غير ذلك من الروايات.

هذه كلّها من مصاديق الزكاة، فإن دفع المرء زكاة النعمة، ستظهر هذه الزكاة في القبر إلى جانبه بصورة مشرقة تعينه و تصونه من الأخطار و الأضرار.

«و تقول التي بين يديه: أنا الصيام»، حيث يتجلى السرّ المثاليّ للصوم الذي أتي به لوجه الله في القبر على نحو إنسان بهيّ الوجه.

«و تقول التي خلفه: أنا الحج و العمرة».

قال علي بن الحسين عليه السلام و هو واقف بعرفات للزهري: كم تقدّر هاهنا من الناس. قال: أقدّر أربعة آلاف ألف و خمسمائة ألف كلهم حجاج قصدوا الله بآمالهم و يدعونه بضجيج أصواتهم. فقال له: يا زهري ما أكثر الضجيج و أقل الحجيج! فقال الزهري: كلهم حجاج، أ فهم قليل؟. فقال له: يا زهري ادن لي وجهك. فأدناه إليه،

---

١. بحار الأنوار، ج٢، ص٢٥.

٢. شرح غرر الحكم، ج٤، ص١٠٥.

٣. نفس المصدر، ص١٠٦.

فمسح بيده وجهه، ثم قال: انظر. فنظر إلى الناس، قال الزهري: فرأيت أولئك الخلق كلهم قردة، لا أرى فيهم إنساناً إلا في كل عشرة آلاف واحداً من الناس. ثم قال لي: ادن مني يا زهري. فدنوت منه، فمسح بيده وجهي ثم قال: انظر. فنظرت إلى الناس، قال الزهري: فرأيت أولئك الخلق كلهم خنازير، ثم قال لي: ادن لي وجهك. فأدنيت منه، فمسح بيده وجهي، فإذا هم كلهم ذئبة إلا تلك الخصائص من الناس نفراً يسيراً[1].

فإنّ لكلّ إنسان باطن و هو متّحد مع باطن أعماله؛ و العامل متحد مع عمله و كلّ يُحشر على نيته. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «يُحشر الناس على نياتهم»[2]. و المعصومون عليهم السلام يشهدون باطن الناس و قد يميطون اللثام عن الآخرين أيضاً.

«و تقول التي عند رجليه: أنا برّ من وصلت من إخوانك، ثم يقلن: من أنت؟ فأنت أحسننا وجهاً و أطيبنا ريحاً و أبهانا هيئة فتقول: أنا الولاية لآل محمد صلى الله عليه وآله»[3]. فإنّ محبة عليّ و أولاده تظهر بهذه الصورة و اتّباعهم يتجسّم بهذه الهيئة بأن تكون أبهى وجهاً من بقية الأعمال و ترفرف فوق رأس المؤمن مشرفة عليه. و إنّ محبة أهل البيت عليهم السلام الصادقة لا الصورية تؤدي إلى الحشر معهم كما سيأتي في القسم التاسع.

النيران المتّقدة و كوثر الصلاة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في الصلاة: «ما من صلاة يحضر وقتها إلا نادى ملك بين يدي الناس قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفئوها بصلاتكم»[4].

---

١ . بحار الأنوار، ج٩٦، ص٢٥٨.

٢ . بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٠٩.

٣ . بحار الأنوار، ج٦، ص٢٣٤.

٤ . من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٨، ح٦٢٤.

فما من ذنب نقترفه أو كلام سيء نتفوّهه أو طريق منحرف نسلكه إلا و هو مقترن بنا و هي كلها نيران قد أوقدناها بأيدينا و نحتطبها على ظهورنا من غير أن نشعر بذلك.

حتىٰ أنّ الإنسان بنفسه قد يكون حطباً لجنهم و يتجسم بصورة نار و حطب مشتعل: ﴿وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[١]. فإن كان الله ولياً لأهل القِسط و العدل، فهو عدوّ لأهل القَسط و الظلم. و إنّ الكثير من أعمالنا تتجلىٰ علىٰ هيئة نار موقدة علىٰ ظهورنا و لكن لا نشعر بها. و من هنا يظهر أنّ المصلّي لا يتورّط بعد الصلاة بذنب بل و يعمد من خلالها إلىٰ النيران التي أوقدها من قبل فيطفئها.

فإنّ الصلاة بمنزلة النهر الجاري و العين الكوثرية التي تطفئ النيران الموقدة سابقاً و تردع الإنسان عن الوقوع في النار لاحقاً. و إنها تحول دون اقتراف السيئات و تمحو ما ارتُكب من الخطيئات. فهذه هي خاصية الصلاة التي أشير إليها في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَ اللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ﴾[٢].

بركات صلاة النبي زكريا

روي عن الإمام الصادق عليه‌السلام أنه إذا أراد الله أن يغمر عبده برحمة، يهبها له و هو في أحسن حال. و أحسن حالة أن يكون الإنسان في محراب عبادته و في جهاده مع نفسه. فإنّ الله سبحانه و تعالىٰ علىٰ سبيل المثال حينما وهب لزكريا يحيىٰ إنما بشّره به و هو في حال العبادة. قال عليه‌السلام: «إن طاعة الله عزّ و جلّ خدمته في الأرض، و ليس شيء من خدمته يعدل الصلاة، فمِن ثَمّ نادت الملائكة زكريا عليه‌السلام و هو قائم يصلي في المحراب»[٣]. و قد استشهد يحيىٰ عليه‌السلام في سبيل الدين و عُرف بيحيىٰ الزاهد الشهيد،

---

١. سورة الجنّ، الآية ١٥.

٢. سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

٣. من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٨، ح٦٢٣.



فمن فاز بكلتا الحسنيين و قام بالتضحية عبر السلاح في سبيل الدين، فعليه إلى جانب استخدام السلاح، التسلّح بالمعرفة التي هي سلاح العقل.

فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله: ﴿خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ﴾[1] قوة الأبدان أم القلوب؟ فقال: جميعاً[2]. و يحيى عليه السلام الذي قال الله له: ﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ﴾[3]، قد أخذ كتاب الله بقوة العقل و المعرفة و بقوة البدن كذلك، و ذاد عن هذا الكتاب حتى نال الشهادة. و قد ظهرت كل هذه ببركة صلاة زكريا عليه السلام.

الصلاة و طهارة الروح

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«أول ما يُحاسب به العبد عن الصلاة، فإذا قُبلت قُبل منه سائر عمله و إذا رُدّت عليه رُدّ عليه سائر عمله، فإذا صلّيت فأقبل بقلبك إلى الله عزّ و جلّ، فإنه ليس من عبد مؤمن يُقبل بقلبه على الله عزّ و جلّ في صلاته و دعائه إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين إليه و أيّده مع مودّتهم إياه بالجنّة»[4].

و قد عرّف القرآن الكريم الصلاة و المُصلّي بشكل جيد؛ فإنّ المصلي هو البعيد عن الأموال، الخالي من الحرص و الطمع. حيث أنّ الله سبحانه حين يُبيّن طبيعة الإنسان المادية قائلاً: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[5]، يقول بعد ذلك: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾[6]. فيذكر في بادئ الأمر مفاسد الإنسان

---

١ . سورة البقرة، الآية ٦٣.

٢ . بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٠٩.

٣ . سورة مريم، الآية ١٢.

٤ . الكافي، ج٣، ص٢٦٨.

٥ . سورة المعارج، الآية ١٩ - ٢١.

٦ . سورة المعارج، الآية ٢٢.

الطبيعية ثم يقول بعدها بأن المصلّين محفوظون من هذه الرذائل. و من هنا يتضح أن الصلاة تحفظ الإنسان و تُطهّره من هذه الرذائل. و لذا فإن الإنسان يستقي فضله و كماله من الصلاة؛ لأنها تستجلب للإنسان الكثير من الفضائل و تردع عنه الكثير من الرذائل.

و قد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «تعاهدوا أمر الصلاة و حافظوا عليها و استكثروا منها... و شبّهها رسول الله صلى الله عليه وآله بالحَمّة (الجمّة) تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم و الليلة خمس مرات فما عسى أن يبقى عليه من الدَرَن؟»[1]. فإنّ الصلاة كالعين الصافية التي يغتسل فيها المصلي في الأوقات الخمسة.

و الصلاة كوثر تُطهّر الإنسان. فإن لم نشعر بهذه الطهارة إثر الصلاة في أنفسنا لا بد أن نقبل بأننا لم نؤدّ الصلاة الحقيقية. إذ قد تكون الصلاة صحيحة و لكنها غير مقبولة؛ لأنه لا تُقبل إلا الصلاة التي تُطهّر روح الإنسان. و عندها سيتوجّه الله إليه و يُؤيّده بالجنة و يُقبل عليه بقلوب المؤمنين و يجعله محبوباً لديهم.

و هل هناك ذخر أعلى من أن تتجه قلوب المؤمنين إلى الإنسان؟ فإنهم أعوانه عند الشدائد، و دعاؤهم له يؤثر فيه. فإن أراد الإنسان أن يتصدى المؤمنون لحلّ مشكلته و يدعون و يستغفرون له، لابد أن يتوجه بقلبه إلى الله سبحانه و لاسيما في حال الصلاة.

و لا يتأتى للإنسان أن يأخذ بزمام قلبه في الصلاة إلا إذا سيطر على جوارحه خارج الصلاة. فمن حافظ عليها في خارجها لا يهجم عليه عدوّ الباطن في أثنائها. فالمهم أن يحفظ الإنسان نفسه في خارج الصلاة.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٩.

حكمة صلاة الليل

خطب رسول الله ﷺ يوماً بالناس و قال بعد التأكيد على الصلاة و أثر الاستدامة عليها على التطهير من الذنوب: «أيها الناس ما من عبد إلا و هو يضرب عليه بحزائم معقودة فإذا ذهب ثلثا الليل و بقي ثلثه أتاه ملك فقال له قم فاذكر الله فقد دنا الصبح، قال: فإن هو تحرك و ذكر الله انحلّت عنه عقدة و إن هو قام فتوضأ و دخل في الصلاة انحلّت عنه العقد كلّهن فيصبح حين يصبح قرير العين»[١].

فيظهر أن عُقد اليوم تُحلّ بصلاة الليل. يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «إنّ الوصول إلى الله سفر لا يُدرك إلا بامتطاء الليل، من لم يحسن أن يمنع لم يحسن أن يعطي»[٢].

و ورد بنفس المضمون حديث عن الإمام الصادق عن أمير المؤمنين عليهما السلام أنه قال: «نبّه بالتفكّر قلبك، و جاف عن النوم جنبك، و اتّق الله ربّك»[٣]. فإنّ التفكر يوقظ القلب، إذ قد يستولي النوم على القلب و يفقد الإنسان إدراكه. يقول علي عليه السلام: «نعوذ بالله من سبات العقل»[٤].

وصية الأنبياء بالصلاة

يقول الإمام الصادق عليه السلام حول عظمة الصلاة: «أ لا ترى أن العبد الصالح عيسى بن مريم عليه السلام قال: وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ».

---

١. أمالي الشيخ المفيد، ص٢٠٩، المجلس ٢٣، ح١٦.

٢. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٧٩.

٣. أمالي الشيخ المفيد، ص٢٢٩، المجلس ٢٣، ح٤٢.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

قالها حين سأله معاوية بن وهب عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم و يزيدهم حباً له فقال: «ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة! أ لا ترىٰ أنّ العبد الصالح عيسىٰ بن مريم عليه السلام قال: وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ»[1]، لأن المعرفة من أصول الاعتقادات و يمكن على أساسها التقرب إلى الله عبر الصلاة.

صلاة الظهر و رحمة الله الواسعة

إنّ لكلّ واحدة من الصلوات ميزة و لصلاة الظهر بين سائر الصلوات ميزة خاصة. فقد قال الله عز و جل: ﴿**حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى**﴾[2]، و قد فُسّرت الصلاة الوسطىٰ في الروايات بصلاة الظهر التي هي أولى الصلوات التي أدّاها رسول الله صلى الله عليه و آله[3].

و قد قيل: إذا زالت الشمس عن دائرة نصف النهار و حلّ وقت الظهر، فلا تُأخّروا صلاة الظهر، لأنّ أبواب الرحمة تتفتّح عند زوال الشمس. فاسألوا الله سبحانه الرحمة، و لا تتفكروا حينها بأنفسكم أو آبائكم و أمهاتكم أو أصدقائكم فحسب، بل ادعوا للجميع. فقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«لك الحمد إن أطعتك و لا حجة لي إن عصيتك و لا صنع لي و لا لغيري في إحسانك و لا عذر لي إن أسأت، ما أصابني من حسنة فمنك يا كريم اغفر لمن في مشارق الأرض و مغاربها من المؤمنين و المؤمنات»[4].

و روي عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «إذا زالت الشمس فتحت أبواب السماء و

---

١. الكافي، ج١، ص٧٥.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٣٨.

٣. وسائل الشيعة، ج٤، ص١١ و ٢٢.

٤. بحار الأنوار، ج٤٩، ص١١٧.

أبواب الجنان و استُجيب الدعاء فطوبىٰ لمن رفع له عند ذلك عمل صالح»[١].

و إنّ من أحكام الحرب في الإسلام استحباب البدء بالحرب بعد الزوال و كره ذلك قبله[٢]، إلا إذا هجم العدوّ، فعندها لابد أن يردّ الإنسان هجومه في كل وقت و يجب الدفاع حتىٰ إذا هجم في الأشهر الحرم (ذي القعدة، ذي الحجة، محرم، رجب).

يقول الله في كتابه: إنّ لحقوق الله و أحكامه قصاص كما في المسائل الفردية، فلو قتل شخصٌ آخرَ ظلماً يكون لأولياء الدم حقّ القصاص: ﴿وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ﴾[٣]، و إن هجم عليكم العدوّ في واحد من الأشهر الحرم فادفعوهم و اقتصوا منهم في نفس الأشهر أيضاً: ﴿وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ﴾[٤]، لأنّ الرضوخ للظلم ذلّ و الله لا يُحبّ الذلّ. كما قال أمير البيان علي عليه السلام: «لا يمنع الضيم الذليل»[٥]، و قال في موطن آخر: «ردّوا الحجر من حيث جاء، فإنّ الشرّ لا يدفعه إلا الشرّ»[٦].

إذن فالبدء بالحرب يُكره قبل الزوال و يُستحبّ بعده و قد ورد سرّ ذلك في كتبنا الفقيهة مقتبساً من الروايات حيث قيل: «و يستحب أن يكون القتال بعد الزوال... لأن عنده تفتح أبواب السماء و تنزل الرحمة و النصر... و أجدر أن يقلّ القتل و يرجع الطلب و يفلت المنهزم»[٧]، و لعل الله يهدي الكفار و المنافقين إلى الإسلام. كما أن سيد الشهداء عليه السلام في طف كربلاء كان قتاله و مبارزته بعد الزوال، و قام قبله بإرشاد الأعداء و وعظهم لعدة مرات.

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٩، ح٦٣٣.

٢. وسائل الشيعة، ج١٥، ص٦٣؛ سنن البيهقي، ج٩، ص٨٠.

٣. سورة البقرة، الآية ١٧٩.

٤. سورة البقرة، الآية ١٩٤.

٥. نهج البلاغة، الخطبة ٢٩.

٦. نهج البلاغة، الحكمة ٣١٤.

٧. جواهر الكلام، ج٢١، ص٨١.

الإنسان السماوي

إذا ارتفع العمل ارتفع العامل لأنّ العمل لا ينفصل عن العامل بأن يُكتب لوحده في كتاب و يرتفع بمفرده. و لا يمكن انفصال روح العمل و هي النية عن الإنسان. و إنّ العمل لا يشبه البخار و الدخان بل له حقيقة مرتبطة بالروح الإنسانية. و الحقيقة التي هي المنشأ لهذا العمل لا تفارق صاحب العمل بتاتاً. فإن ارتفع العمل ارتفع العامل أيضاً و عندها سيكون الإنسان رفيعاً ملائكياً و خُلقُه سماوياً.

و قد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام هذا المعنىٰ العقلي في بيان لطيف حيث قال: «فاعل الخير خير منه و فاعل الشرّ شرّ منه»[1]. فالمؤدّي للعمل الصالح أفضل من أيّ عمل صالح، فلو كان للصلاة فضل و هي تصعد إلىٰ السماء يكون الأفضل منها هو المصلي لأنّ الصلاة هذه من فعله. و كيف يمكن أن ترتفع الصلاة و لا يرتفع المصلي و يرتفع الصوم و لا يرتفع الصائم. و المرتكب للعمل السيء أسوء من أيّ عمل سيء، لأنّ الشرّ أثر فاعله فكيف يمكن أن يكون الأثر أقوىٰ من المُؤثّر.

و إن كانت الأعمال الصالحة ترتفع في بُعد الفضيلة فإنّ روح الإنسان الفاعلة لهذه الأعمال أيضاً سترتفع علىٰ اليقين.

و قد جاء في القرآن الكريم عن لسان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ...﴾[2]، و قول «تعال» يختلف عن قول «إليّ». فلو تساويا شخصان في المستوىٰ يقول أحدهما للآخر: «إليّ» أي، ادن منّي، و إن اختلفا و كانا من طبقتين، يقول الأعلىٰ للأدنىٰ: «تعال» أي اصعد إليّ. و هذا هو كلام الأنبياء حيث يدعون إلىٰ الرفعة و العلوّ.

---

١ . نهج البلاغة، الحكمة ٣٢.

٢ . سورة الأنعام، الآية ١٥١.

و قد وردت هذه اللطيفة في تفسير البيضاوي حيث يقول هذا الأديب: «﴿قُلْ تَعالَوْا﴾ أمر من التعالي و أصله أن يقوله من كان في علوّ لمن كان في سفل»[1]، حيث كان و لا يزال مرسوماً بين العرب من أهل البدو أنهم يبنون بيوتاً في المناطق الجبلية وسط الجبال و يهيّئون السفح المستوي للزراعة. و الأطفال يشتغلون باللعب في المناطق المستوية حتىٰ الغروب فيأتي الأبوان إلىٰ ردهة الدار و يقولون لهم: «تعالوا تعالوا».

و هذا هو كلام الأنبياء أيضاً. إذ عندما ينقل القرآن الكريم كلام النبي يقول: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ...﴾[2].

الميل إلى الطبيعة

يشير صدر المتألهين إلىٰ أنّ الإنسان الذي لم تكن حصيلة عمره سوىٰ بناء قصر و إعداد سلسلة من الأمور المادية و المالية لا يترقىٰ بتاتاً. فإنّ الأغصان المرتفعة للشجرة إنما هي فرع الشجرة لا أصلها و الأصل الذي يمثّل الحلق و العين و الجذر و الدماغ و الرأس إنما هو مدسوس في التراب. و كذلك الإنسان المنغمس في الطبيعة، المهتمّ بالدنيا، الذي لا يكون همّه سوىٰ الاستخراج من الأرض و تزيينها فهو مثله مثل الشجرة المنكوسة الرأس و المرتفعة أغصانها إلىٰ الأعلىٰ. فأنّىٰ له الرقيّ؟ قد جمع تراباً علىٰ تراب، و كلما انغمس في التراب أكثر كلّما ازدادت أغصانه و فروعه. و لذا تجد أغصان بعض الأشجار أعلىٰ لأن جذورها أكثر عمقاً في التراب[3].

و قال: إنّك إنسان فكن كالمَلَك و لا تكن كالشجرة. و ارتفع و خلّص نفسك من

---

١. تفسير البيضاوي، ج١، ص٣٢٦.

٢. سورة الأنعام، الآية ١٥١.

٣. تفسير صدر المتألهين، ج١، ص١١٧.

التراب. و لكن متىٰ نعلم بأننا ارتفعنا؟ فإنّ الإنسان الذي لا يفهم و لم يضع فهمه علىٰ صراط العقل لا يرتفع. و إنما يعلو من جعل عقله وسيلة لعقال شهوته و غضبه و كبّل شهوته و غضبه و غروره. فإلىٰ متىٰ نتّجه باتجاه التراب و الطبيعة؟!

كن كالسرو و السنبلة مرتفع الرأس و لا تكن كالصفصاف مطأطأ الرأس[١].

و علىٰ الإنسان أن لا يقارن نفسه بالفاجر و الفاسق و المنافق و يقول: الحمد لله، هنيئاً لنا بأننا سلكنا هذا السبيل و لم نقع في شراك الكفر و النفاق. فقد نهىٰ الإمام المجتبىٰ عليه السلام عن مقارنة الإنسان نفسه بالسيئين و أهل الدنيا لأن ذلك يتسبب الخسران. بل علىٰ المرء أن يقارن نفسه بشهداء كربلاء و أصحاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام الخُلّص و أولئك الذين أدّوا صلاة الصبح بوضوء صلاة العشاء لمدة أربعين سنة! فإنّ الطريق مفتوح و لم يكن الوصول إلىٰ المقام الرفيع حكراً علىٰ أحد، بل لابد من علوّ الهمة. و قد علّمونا في دعاء كميل بأن نسأل الله في كلّ ليلة جمعة بأن يوصلنا إلىٰ حيث لا يصل إليه أحد: «و أقربهم منزلة منك و أخصّهم زلفة لديك»، و أن لا يقتصر همّنا علىٰ عدم الدخول في النار، فإن الله لا يُحرق الكثير من الناس في يوم القيامة كالأطفال و المجانين و المستضعفين الذين لم تصل أيديهم إلىٰ المعارف و الأحكام الإلهية، فعدم الدخول إلىٰ النار ليس بالأمر العسير[٢].

و قد روىٰ أمير المؤمنين عن رسول الله أنه قال: «إنّ الله عزّ و جلّ يُحبّ معالي الأمور و يكره سفسافها»[٣] أي الوضيع و المنحط منها. و الناتج من هذا الكلام الرفيع هو تربية فتىً كالحسين بن علي عليهما السلام الذي علّمنا كيف يصل الإنسان إلىٰ المراتب

---

١. بيت بالفارسية و هذا نصه:

چو سرو و سنبله بالا روش باش بسان بيد سوي پست منگر

٢. «و إنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد» (نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٧).

٣. بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٢٣.

العالية و كيف يكون الشعب عالي الهمة. و قد قيل له إلى أين ذاهب و الأحوال في اليمن و الحجاز و العراق و في كثير من البقاع مضطربة، فقال: «لو لم يكن في الدنيا ملجأ و لا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية»[1].

فقد غُلب الخوف في مدرسة الإمامة و لا يحقّ له أن يظهر أمام أولياء الله!

حبّ باطن الصلاة

قال سيد الشهداء عليه السلام في عصر عاشوراء لأخيه العباس عليه السلام: «إن استطعت أن تصرفهم عنا في هذا اليوم فافعل لعلنا نصلي لربنا في هذه الليلة فإنه يعلم أني أحب الصلاة له»[2]. فقال إني أحبّ الصلاة و لم يقل أنا من المصلين. (إذ أنّ الجميع يقوم بهذه الأعمال الصورية و الظاهرية، و آداب الصلاة أيضاً متيسرة لدى الكثير من الناس) إني أحبّ باطن الصلاة و حقيقتها و أريد أن أودّع هذا الحبيب.

فالمصلي و الصائم يبقى حياً إلى الأبد. و كم هناك فرق بين قول القائل: إني أصلي، و بين قول سيد الشهداء عليه السلام: إني أحبّ الصلاة.

و كان أولاد الإمام السجاد و الإمام الباقر و سائر المعصومين عليهم السلام يبدؤون باللعب حين اشتغال والدهم بالصلاة لأنه عند ذاك لا يلتفت إليهم فيكونوا أحراراً في لعبهم وإن علت أصواتهم[3].

و في ذات يوم وقع حريق في بيت و الإمام فيه ساجد فجعلوا يقولون يا ابن رسول الله النار النار، فما رفع رأسه حتى أطفيت، فقيل له بعد قعوده: ما الذي ألهاك عنها؟ قال: ألهتني عنها النار الكبرى[4].

---

١. بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٩.

٢. مقتل الحسين للمقرّم، ص٢٣٢.

٣. الأنوار البهية، ص٤٩.

٤. بحار الأنوار، ج٤٦، ص٧٨.

و لكن هل من الممكن أن يرى الإنسان النار في ذلك العالم؟ نعم، يراها. فقد قال الله سبحانه: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[١]، فيتضح من ذلك أن باطن الذنب هو النار و باطن الثواب و باطن الصلاة و الصوم هو الجنة. قال: لو كنتم من أهل الطريق لرأيتم جهنم الآن. و أما الاستدلال على وجود جهنم فهو لا يعدو الألفاظ:

العالم هو الذي يرى النار بالعيان، لا الذي يقول: دلّ على النار الدخان

فإن دليله هذا لدى العاقل اللبيب أدنى في الحقيقة من دليل ذلك الطبيب[٢]

فإنّ من يقول بأن هناك قيامة و نار لدلالة الدخان عليها و أراد معرفة النار عبر الدخان فهو بلسان أهل المعنى لم يعدو الألفاظ و لم يكن عمله هذا شيئاً مهماً، و إنما المهم أن يرى الإنسان وفق الآية المذكورة باطن الذنوب و هو نار جهنّم.

و إن للذنوب أيضاً أحكام و آداب و حِكَم. فإن باطن الذنب النار و باطن الصلاة و الصوم الجنة.

و قد وصلت طائفة من تلامذة المعصومين عليهم السلام إلى هذه الحِكَم. حيث روي عن حارثة بن مالك أنه قال: «كأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون فيها... و كأني أنظر إلى أهل النار فيها معذبين يصطرخون و كأني أسمع الآن زفير النار»[٣]. إذن فلا تختص

---

١. سورة التكاثر، الآية ٥ - ٨.

٢. بيتان بالفارسية في كتاب مثنوي مولوي و هذا نصهما:

خود هنر آن دان كه ديد آتش عيان — ني گپ دلّ على النار الدخان

اي دليلت گندتر نزد لبيب — در حقيقت از دليل آن طبيب

٣. الكافي، ج٢، ص٥٣.

نسب مولوي هذه الحادثة في شعره إلى زيد بن حارثة، فإما أنه أخطأ في النقل أو نقل عن كتب أهل السنة، فإنّ الغزالي في إحياء العلوم (ج٤، ص١٥٧) و أبي الفتوح في تفسيره (ج١، ص٤٣) نسبوا هذا القول إلى زيد بن حارثة، كما و نسب هذا القول ابن الأثير في أسد الغابة (ج١، ص٦٥١) إلى حارثة بن سراقة، و أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (ج١، ص٢٤٢) إلى معاذ بن جبل.

معرفة أسرار العبادات بالأئمة و الأنبياء عليهم السلام و إن كانت لديهم مقامات لا تطمع أفكارنا في إدراكها و إنّ أهل البيت عليهم السلام لا يقاسون بأيّ أحد، كما قال أمير البيان: «لا يُقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد»[1].

* * *

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢.

القسم الخامس:

الصوم و حكمته

ذمّ البِطنة

يعتبر شهر رمضان المبارك خير فرصة للوقوف على أسرار العالم، و لابدّ في الطعام من الاكتفاء بالمقدار الذي يُؤمّن طاقة الإنسان، فما من أحد يصل عبر كثرة الأكل إلى المقصد و قد ورد في التعابير الأخلاقية الإسلامية: «ما ملأ آدميّ وعاءً شراً من بطن»[1]، فإنّ البطن إذا امتلأت أُغلق طريق الفهم، و الإنسان الأكول لا يفهم بتاتاً و لا يقف على أسرار العالم و باطنه على الإطلاق.

و إنّ البِطنة تورث الخمول و ضعف الإرادة و مراعاة الاعتدال في الأكل تورث الصحة و طول العمر و نورانية القلب. و إنّ كثرة الأكل تبعث الروح على هضم الغذاء الزائد و البدن كذلك إلى مزيد من الأيض و التفاعل و بالتالي تسوق الإنسان سراعاً إلى الضعف و الانهيار، و إنّ من يكثر أكلهم في الأغلب لا تطول أعمارهم.

---

١ . بحار الأنوار، ج٦٣، ص٣٣٠.

ثم إنّ الإكثار من الأكل يزيد في الكسل و النوم. و قد كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال لأصحابه: «هل من مبشّرات»[١]، يعني به الرؤيا التي توجب البشارة. فإنّ الإنسان يلجأ إلى النوم ليفهم لا أنه يُكثر من الأكل ليطول نومه.

و روي أن رجلاً تجشّأ في مجلس رسول الله ﷺ فقال: «أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا»[٢].

و ورد في أحوال أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال ذات يوم لمزارع له: هل عندك من طعام؟ فقال له: طعام لا أرضاه لأمير المؤمنين عليه السلام قرع من قرع الضيعة صنعته بإهالة سنخة، فقال: عليّ به. فقام إلى الربيع و هو جدول فغسل يده ثم أصاب من ذلك شيئاً... و قال: من أدخله بطنه في النار فأبعده الله[٣].

قيمة الحرية في الإسلام

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لذة ما في النداء أزال تعب العبادة و العناء»[٤]، يريد بالنداء قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ﴾[٥].

و قال رسول الله ﷺ في خطبة له في آخر جمعة من شهر شعبان: «يا أيها الناس إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكّوها باستغفاركم»[٦]، فالناس سجناء و ليسوا بأحرار و هم لا يعلمون بذلك، و قد سجنتهم ذنوبهم فعليهم بتحرير أنفسهم في شهر رمضان

---

١ . الكافي، ج٨، ص٩٠.
٢ . وسائل الشيعة، ج١٦، ص٤١٠.
٣ . الكنى و الألقاب، ج٣، ص١٣٨.
٤ . مجمع البيان، ج٢ - ١، ص٤٩٠.
٥ . سورة البقرة، الآية ١٨٣.
٦ . الأمالي و المجالس للشيخ الصدوق، ص٨٥، المجلس ٢٠، ح٤؛ عيون أخبار الرضا، ج١، ص٢٩٥.

المبارك عبر الاستغفار. و الإنسان المذنب مدين و على المدين إعطاء رهن. و لا يُقبل هنا العقار و الأرض للرهن بل ترُتهن النفس. و إنّ من يقول: أنا أفعل ما أريد و أذهب إلى حيث أشاء و أقول ما أبغي فهو أسير الهوى و عبد الطمع و ليس بحرّ.

و لا شيء في الإسلام يضاهي قيمة الحرية. و روي عن علي عليه السلام أنه قال: «من ترك الشهوات كان حراً»[1]. و قد أوصانا المعصومون عليهم السلام في الكثير من كلماتهم بالتحرّر، و هو من العدوّ الخارجي لا يتمتع بأهمية بالغة، بل المهم التحرّر من العدوّ الداخلي.

و الطريق لمعرفة الرقّية و الحرّية هي أنّ الإنسان إذا اتّبع هواه فهو أسير في سجن الحرص و الطمع و إن اتبع الله سبحانه فهو حرّ و الإنسان الحرّ لا يُفكّر بغير الله.

و إنّ من أهمّ الوظائف في شهر رمضان المبارك هو التحرّر و التخلّص. فعلى الإنسان أن يُحطّم القيود و الأغلال الفولاذية التي صنعها بنفسه.

و الطريق للحرية هو الاستغفار و طلب العفو. و لذا قالوا: كرّر في اليوم و الليلة قول «استغفر الله ربي و أتوب إليه»[2].

فاستغفروا الله في الصلاة و غيرها لأنفسكم و لغيركم و لا يكون الهدف من ذلك هو الخلاص من النار أو الدخول إلى الجنة و التنعّم فيها بل لابد و أن يكون الهدف أسمى من ذلك.

و قد اندلعت الثورة الإسلامية أيضاً للحرية و التحرر، و لكن لا التحرّر من عبودية الله. بل الهدف منها هو عبادة الله ليس إلا، و إنقاذ الدين من حكومة الآخرين ليكون لله لا غير.

---

١ . بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٣٩.

٢ . قال النبي: «إني لأستغفر الله في اليوم و الليلة سبعين مرة» (بحار الأنوار، ج١٧، ص٤٤).

و قد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه لمالك الأشتر أنه قال: «إنّ هذا الدين كان أسيراً في أيدي الأشرار، يُعمل فيه بالهوىٰ و يُطلب به الدنيا»[1].

فإنّ الذين يُهزمون في الحياة الدنيا قد وقعوا في أسر النفس، يرغبون في البقاء في الدنيا و يهابون التحرّر منها، و قد رفض الإسلام هذين الأصلين و استبدلهما بأصلين أصيلين هما: عدم التعلق بالطبيعة و عدم الخوف مما وراء الطبيعة.

حيث قال الإمام علي عليه السلام: «ألا حرّ يدع هذه اللّماظة لأهلها»[2]. فإنّ ما هو موجود حالياً باسم الدنيا كالمقام و المسكن و الأرض أو الثروة و ما شاكلها قد استخدمتها الأجيال الغابرة و بقيت بين أسنانها و وصلت اليوم إليكم. و ما هو موجود علىٰ الأرض حالياً و كلّ هذه المقامات و الثروات و الأوهام و التخيلات إنما هي متبقية و لماظة لابد للحرّ أن يتخلّص منها.

و قد قال الله سبحانه: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾[3]، و قال أيضاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[4]، سوىٰ طائفة من الأحرار: ﴿إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ﴾[5]، فإنهم يُصاحبون و يُجالسون بيمن و بركة. و لا يُتوقّع منهم إلا البركة و لا يصدر منهم من عمل إلا و هو مقرون باليُمن و البركة. و هذه هي أفضل نعمة دعانا الله سبحانه إلىٰ اكتسابها.

إنّ شهر رمضان هو شهر التحرّر؛ و يتحتّم في كلّ يوم يمضي منه فكّ قيد من القيود التي ربطناها بأيدينا لنتحرّر. و إنّ أفضل طريق للتحرّر هو الوقوف علىٰ حِكَم العبادات.

---

١. نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.
٢. نهج البلاغة، الحكمة ٤٥٦.
٣. سورة الطور، الآية ٢١.
٤. سورة المدثر، الآية ٣٨.
٥. سورة المدثر، الآية ٣٩.



الصوم و جزاء الصائم

ورد في بعض الروايات بأن الصوم يزيل الطراوة و الحيوية و البهجة في غير شهر رمضان المبارك؛ لأنها نشاط كاذب و عابر. فإن صام الإنسان و تعلّق بالصوم، توصّل شيئاً فشيئاً إلى باطنه الذي يسوقه إلى لقاء الله حيث قال سبحانه و تعالى: «الصوم لي و أنا أجزي به»[1]، و لم يرد هذا التعبير إلا في الصوم.

ثم إنّ جميع الأشياء و الموجودات في عالم الإمكان لله سبحانه، و لا يوجد في عالم الخلق شيء خارج عن دائرة ملكه؛ لأنها مخلوقة و مملوكة له. كما أن أبصارنا و أسماعنا أيضاً لله: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ﴾[2].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «... أعضاؤكم شهوده و جوارحكم جنوده و ضمائركم عيونه و خلواتكم عيانه»[3]. انتبهوا و اعلموا أنكم في الخلوة و الجلوة و السرّ و العلن في محضر الله سبحانه، و خلواتكم و جلواتكم في مشهده و مرآه.

و لا يوجد في العالم شيء إلا و يذكر الله سبحانه. و هذا الإنسان قد يكون غافلاً و قد لا يكون غافلاً. و إنّ الملائكة تعدّ أنفاس الخلائق لترى لم يتنفّس الإنسان. و إذا كان العالم بأسره على حدّ تعبير القرآن مِلك لله و مُلك له[4]، فإنّ أعضاءنا و جوارحنا جنود لله كذلك: ﴿وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ﴾[5].

و في قوله: «الصوم لي» خصوصية جديرة بالالتفات و النظر.

---

١. روضة المتقين، ج٣، ص٢٢٥. قرأ البعض كلمة «أجزى» في هذه الرواية بصيغة المجهول: «الصوم لي و أنا أُجزىٰ به» أي أنا أكون جزاؤه! (راجع: النهاية لابن الأثير، ج١، ص٢٧٠، مادة «جزا»).

٢. سورة يونس، الآية ٣١.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٩.

٤. سورة آل عمران، الآية ١٨٩.

٥. سورة الفتح، الآية ٤.

فقد يُمسك الإنسان منذ السحر حتىٰ الإفطار؛ و هذه هي مرتبة من مراتب الصوم و جُهدٌ بأن لا يحترق بالنار في يوم القيامة أو يدخل الجنة علىٰ أكثر تقدير؛ و هي ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾[1]، و لكنه يُمنع الدخول في تلك الجنة التي يقول فيها: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبادِي * وَ ادْخُلِي جَنَّتِي﴾[2]، فكما أنّ للصوم حكم و أدب خاص، له حكمة و هي لقاء الله و محبته.

و إنّ هذا الحديث يبعث الشوق في الإنسان ليكون عاشقاً. فإنّ الإنسان من دون اشتياق لا يسعىٰ و من دون سعي لا يصل. و إن كان الصوم لله، فإنّ الله بنفسه هو الذي يتكفّل بجزاء الصائم.

يذكر المرحوم المولىٰ محمد تقي المجلسي ﰩ الذي يعدّ من أساطين الفقه إضافة إلىٰ ضلوعه في كثير من المعارف الإسلامية و العلوم العقلية؛ بأنّ الله سبحانه لم يكتف بقول: «الصوم لي» بل أردفها بقوله: «و أنا أجزي به»، و معنىٰ ذلك أنه قد طرح نفسه بتقديم ضمير المتكلم قبل الفعل منفصلاً و بقوله: «أنا»[3].

كيفية الجزاء

للذين يصومون نفلاً كأولياء الله و يهبون إفطارهم لليتيم و الأسير و المسكين علاوة علىٰ أنّ لهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾[4]، يُقال لهم: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبادِي * وَ ادْخُلِي جَنَّتِي﴾، لأنهم يصومون لهدف أسمىٰ. و أما الصوم لدخول الجنة و الالتذاذ بثمارها فهو ضرب من التجارة.

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٥.

٢. سورة الفجر، الآية ٢٩ - ٣٠.

٣. روضة المتقين، ج٣، ص٢٢٥.

٤. سورة البقرة، الآية ٢٥.



و إنّ من الفروق بين الصوم و سائر العبادات هي أنّ ملائكة الله فيما يخص باقي الأعمال يستقبلون المؤمنين عند الموت قائلين لهم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾[1]، و أما حول الصائم فيقول الله سبحانه: أنا أجزي به. و هذه لا تدخل في عداد أحكام الصوم و آدابه؛ و لذا لم ترد في سلسلة الأبحاث الواجبة و المستحبة الذي يتناولها الفقه و لم ترد كذلك في بحوث آداب الصوم؛ و إنما هي من حِكَم العبادات التي تبيّن كيفية وصول الإنسان إلى مرتبة يكون الله سبحانه و تعالى هو المتكفّل مباشرة بجزائه.

يقول ابن الأثير: «(الصّوم لي و أنا أَجْزِي به) قد أكثر الناس في تأويل هذا الحديث... و أحسن ما سمعت في تأويل هذا الحديث أن جميع العبادات التي يتقرّب بها العباد إلى الله عزّ و جل - من صلاة، و حجّ، و صدقة، و اعتكاف، و تبتّل، و دعاء، و قربان، و هدي، و غير ذلك من أنواع العبادات - قد عبد المشركون بها آلهتم، و ما كانوا يتّخذونه من دون الله أنداداً، و لم يسمع أن طائفة من طوائف المشركين و أرباب النّحل في الأزمان المتقادمة عبدت آلهتها بالصّوم، و لا تقرّبت إليها به، و لا عرف الصوم في العبادات إلا من جهة الشرائع، فلذلك قال الله عز و جل: (الصوم لي و أنا أَجْزِي به): أي لم يشاركني أحد فيه، و لا عبد به غيري، فأنا حينئذ أَجْزِي به و أتولّى الجَزَاء عليه بنفسي، لا أَكِلُهُ إلى أحد من ملك مقرّب أو غيره على قدر اختصاصه بي»[2].

درجات التقوى و لقاء الله

إنّ الهدف من الصوم هو الوصول إلى التقوى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3]. و للمتقي

---

١. سورة الزمر، الآية ٧٣. فيما يخص روايات البرزخ راجع: تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٥٠٦ و ٥٠٧؛ بحار الأنوار، ج٦، ص١٣٩؛ علم اليقين، ج٢، ص١٠٦٠.

٢. النهاية لابن الأثير، ج١، ص٢٧٠، «جزا».

٣. سورة البقرة، الآية ١٨٣.

درجتان: الأولىٰ هي تلك الجنة التي تضم نعماً كثيرة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ﴾[1] و هي للّذائذ الظاهرية، و الثانية هي مرتبة المُقام عند الله ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[2]، و الكلام في هذه المرحلة لا يدور حول التفاح و الكمّثرىٰ، لأن الجنات و الأنهار إنما هي مأكولات و مشروبات للجسم و البدن و أما لقاء الله فهو للروح. و هذا هو سرّ الصوم و باطنه.

يقول الإمام الصادق ﷺ: «للصائم فرحتان، فرحة عند إفطاره و فرحة عند لقاء ربه»[3]، و يقول في موضع آخر: «للصائم فرحتان، حين يفطر و حين يلقىٰ ربّه عزّ و جلّ»[4].

و في بعض الأدعية يطلب الصائم من الله الجمال التام: «اللهم إني أسألك من جمالك بأجمله و كلّ جمالك جميل»[5].

و يقول الشاعر نظامي كنجوي في بيان العشق المجازي و العشق الحقيقي: حين مرضت ليلىٰ في نهاية الأمر أوصت أمها قائلة: أماه أوصلي رسالتي إلىٰ قيس و قولي له: إن أردت التعلّق بأحد فلا تتعلق بموجود يفنىٰ بحمّىٰ.

فمن المؤسف أن يتعلق الإنسان بنفسه و بغير الله و بكل ما هو متغيّر؛ لأنّ كلّ ما سوىٰ الله معرّض للزوال و التغيير و لا يمكن أن يكون هذا هو جزاء الإنسان، فإنّ جزاء الصائم هو لقاء الله.

و قد قالوا لنا اطلبوا الجمال المطلق في أسحار شهر رمضان المبارك و لا تكتفوا

---

١ . سورة القمر، الآية ٥٤.

٢ . سورة القمر، الآية ٥٥.

٣ . وسائل الشيعة، ج١٠، ص٤٠٣.

٤ . روضة المتقين، ج٣، ص٢٢٦؛ وسائل الشيعة، ج١٠، ص٤٠٠.

٥ . مفاتيح الجنان، دعاء السحر.



بالاستماع، لأن الاستماع غير الطلب. فيا لهذا المقام الرفيع الميسور للإنسان حتى حرّضونا على أن نقول: «اللّهم إنّي أسألك من نورك بأنوره و كلّ نورك نيّر»، و قد علّمونا هذه الأدعية في شهر رمضان المبارك لأنه يليق بالإنسان الصائم هذا الكلام و بإمكانه أن يقول: «اللّهم إني أسألك من جلالك بأجلّه و كلّ جلالك جليل»[1].

فالكلام ليس في الحور و الغلمان و التفاح و الكمّثرى و الجنات و النهر، بل الكلام في الكمالات المعنوية، و هذا المقام متوافر للإنسان إذ لو لم يكن كذلك لما أمرونا بقراءة هذه الأدعية. إذن يمكن الوصول إلى ذلك المقام، لأنه يمكن الصوم نفلاً و إعطاء الإفطار لأسير غير مسلم.

فإنّ جزءاً من أحكام الفقه الإسلامي هي الأحكام المتعلقة بـ «الوقف»، و قد قال الفقهاء بأنّ الإنسان يستطيع وقف مزرعة أو ملك أو محلّ لإمرار معاش الكافر و هو بذاته عبادة إلا أن يكون الكافر حربياً و مهدور الدم. و روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكلّ كبدٍ حرّاء أجر»[2]، و قد تمسّك الفقهاء بإطلاق هذا الحديث و قالوا بأنّ من أشبع حيواناً جائعاً أو روى سَبُعاً فله الجنة.

فمن الممكن أن يصوم الإنسان نفلاً و يعطي ما صنعه من رغيف بالرحى للأسير قائلاً له: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾[3]، لأنه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[4]. و إن كانت

---

١ . نفس المصدر.

٢ . بحار الأنوار، ج٧١، ص٣٧٠. يقول المرحوم المحقق الحلي: يجوز الصدقة على الذمي و إن كان أجنبياً لقوله ﷺ : «على كلّ كبدٍ حرّاء أجر» (شرائع الإسلام، كتاب الصدقة). و هذه المسألة من باب الإنسانية لا لتعزيز قوتهم و مذهبهم. و الشاهد على ذلك هو أنّ المحقق الحلي لا يُجوّز الوقف على الكنيسة و معابد أهل الكتاب. لاكتساب المزيد من المعلومات راجع: جواهر الكلام، ج٢٨، ص٣٠؛ بحار الأنوار، ج٧١، ص٣٧٠ – ٣٧١.

٣ . سورة الدهر، الآية ٩.

٤ . سورة البقرة، الآية ١١٥.

فضة، خادمة أهل بيت العصمة حاضرة في عملية الإطعام، يظهر أنّ بإمكاننا الوصول إلى هذا المقام، و إن بعنا أنفسنا بثمن بخس فقد خسرنا.

قيمة الإنسان

نقل المرحوم الكليني عن الإمام الكاظم عليه السلام رواية لطيفة و للمحقق الداماد في شرحها بيان عذب.

يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «إنّ أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها»[1].

و يقول المرحوم المحقق الداماد: «جعله عليه السلام الجنة ثمن البدن، إشارة إلى أنّ ثمن جوهر النفس المجرّدة هو الله سبحانه فكأنّه عليه السلام قال: أما إنّ أبدانكم ثمنها الجنة فلا تبيعوها و أما نفوسكم المجرّدة و أرواحكم القدسية فإنما ثمنها هو الله سبحانه و الفناء المطلق فيه و في مشاهدة نور وجهه الكريم فلا تبيعوها بغيره»[2].

فإنّ باطن الصوم يظهر بصورة لقاء الله و لا تفترض للإنسان همة أعلى من لقاء الله. لأنّ الإنسان موجود أبدي لا يفنى أبداً، بل ينتقل في نهاية المطاف من عالم إلى آخر. فإن حاز على باطن الصوم فهو في محضر الحق على الدوام، من دون أن يصيبه سأم و ضجر من هذا الحضور الدائم. فإنّ الرتابة في الجنة غير مقرونة بالملل بل و لا يوجد ملل و لا كلل فيها؛ سواء كانت الجنة الظاهرية ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أو الجنة المعنوية.

و إنّ الإنسان يشعر بلذة الشبع من دون تذوّق السأم و التعب و العطش و الجوع، لأن الجنة تختلف في حالاتها عن الدنيا.

---

١. الكافي، ج١، ص١٩، ح١٢.

٢. تعليقة الميرداماد على أصول الكافي، ص٣٨.

دور الصوم في حلّ الصعاب

تواجهنا في مسيرة حياتنا صعاب و مشاكل و قد أمرونا بالصوم في تلك الشدائد.

و معنى ذلك أننا إذا طلبنا الاستعانة من الله سبحانه في كلّ صلاة عدة مرات قائلين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فقد علّمنا الله طريق الإعانة أيضاً، إذ لا يتم ذلك عبر التفوّه بالاستعانة فيعيننا من دون عمل، بل أرشدنا إلى طريق ذلك قائلاً: ﴿وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ﴾[١]، و قد تم تفسير هذا الصبر و تطبيقه على الصوم و ورد في الحديث: «إذا نزلت بالرجل النازلة و الشديدة فليصم»[٢].

و لا يقتصر هذا الأمر بالحرب بل يرد في كل نازلة و شدّة تحلّ بالإنسان.

فما هو دور الصوم في حلّ الشدائد؟ و إلى أين يوصل الإنسان حتى يتغلّب على الصعاب؟ و هذا هو الإمساك الظاهري؛ و أما الصوم فله حِكَم حيث يأخذ بالروح إلى مقام رفيع و الروح العالية مهيمنة على الطبيعة.

فإن صام المرء لله يتولى الله تسهيل صعابه لأن الأمور بيده فقد قالوا: «يا مُسهّل الأمور الصعاب»[٣]، و قال الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى * وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[٤]، فإنّ الله يُيسّر الأعمال لمن يسير في الصراط المستقيم و قد بيّن لنا نماذج من ذلك في الأنبياء العظام.

فإنّ موسى كليم الله حين طلب من الله قائلاً: ﴿وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾[٥]، أجابه الله:

---

١ . سورة البقرة، الآية ٤٥.

٢ . الكافي، ج٤، ص٦٣.

٣ . دعاء ورد على لسان الكبار من الحكماء.

٤ . سورة الليل، الآية ٥ - ٧.

٥ . سورة طه، الآية ٢٦.

﴿قالَ قَدْ أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾[1]، فأعطاه ما طلبه منه من تيسير الأمور للإطاحة بفرعون الطاغية و أعطاه كلّ ما سأله منه من شرح الصدر و حلّ عقدة اللسان و إشراك أخيه في أمره و وزارته له و جعله ممن يوحىٰ إليه.

و قال أيضاً في رسول الله: ﴿أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَ وَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَك﴾[2].

فقد بيّن لنا القرآن هذه الطرق؛ لأن الصوم قويّ بدرجة يجعل الإنسان بإذن الله مهيمناً علىٰ عالم الطبيعة.

الملائكة و الدعاء للصائم

إنّ الملائكة موكّلون بالدعاء للصائم؛ قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تبارك و تعالىٰ وكّل ملائكة بالدعاء للصائمين، و قال: أخبرني جبرئيل عليه السلام عن ربّه تعالىٰ ذكره أنه قال: ما أمرتُ ملائكتي بالدعاء لأحد من خلقي إلا استجبتُ لهم فيه»[3]، و إنّ دعاء الملائكة للإنسان طلب الخير و الصلاح له.

بالاجتهاد يصل الإنسان إلىٰ مرتبة الملائكة كما تتبدّل ورقة التوت تدريجياً إلىٰ حرير[4].

فإن تتبدّل ورقة التوت في هذا العالم إلىٰ حرير و تستطيع دودة القزّ أن تصنع من ورقة التوت الإبريسم، فيمكن كذلك أن يصبح الإنسان مَلَكاً، و التكامل مُيَسر كصناعة دودة القزّ الحرير من ورقة التوت!

---

١. سورة طه، الآية ٣٦.

٢. سورة الانشراح، الآية ١ - ٤.

٣. روضة المتقين، ج٣، ص٢٢٨.

٤. بيت بالفارسية في ديوان سنائي و هذا نصه:

تو فرشته شوي ار جهد كني از پي آنك   برگ توت است به تدريج كنندش اطلس

يقول الله سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[١]، و الله أعلم بظواهرها لأن للفرش بطانة تقع على الأرض و ظهارة يجلس عليها الإنسان، و لفُرُش الجنة بطائن و ظواهر، بطائنها من حرير و إستبرق و لكن ما هي ظواهرها؟ إذ لا يوجد في عالم الطبيعة شيء أسمى من الحرير و الإستبرق حتى يحرضونا به. و لذا لم يذكر ظهارتها فلابد أن نذهب و نرى بأعيننا.

و هذه الفُرُش التي بطائنها من حرير لم تُنسج بواسطة دودة القزّ، بل نسجها الصوم و الصلاة. فإنّ الحرير المنسوج بواسطة دودة القزّ، يتضرّر بدودة أخرى؛ و أما الفرش المنسوج بالصلاة و الصوم لا يتضرّر أبداً. علماً بأنّ هذه الفُرُش من اللذائذ الجسمانية. و أما «جنة اللقاء» التي لا تُثمّن فهي باطن الصوم حيث قال: «الصوم لي و أنا أجزي به»[٢]، و إنّ الذي يسأله الملائكة للصائمين هو باطن الصوم.

يقول الله حول الملائكة: ﴿وَ ما مِنّا إِلاّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾[٣]، فالمَلَك الموكّل بالدعاء للعباد المخلصين الصائمين هو غير المَلَك الموكّل بالدعاء لغير الصائمين. كما و أنّ درجات الملائكة و أدعيتهم متفاوتة.

فإلى أيّ درجة نتعرض نحن لباطن الصوم بحيث أن لا نقتصر على صوم ظاهرنا و الإمساك عن الطعام و الشراب فحسب، بل لابد و أن يصوم سرّنا و باطننا كذلك؟ و أن نمنع الخواطر المبغوضة لدى الله أن تخطر في القلب. فلا نحمل الضغائن في قلوبنا لأحد، و لا يُتصوّر أن الخواطر إن مرّت عابرة من قلوبنا فإنّ الله سبحانه لا يعلم بها أو أنها لا تسوّد قلب الإنسان.

---

١ . سورة الرحمن، الآية ٥٤.

٢ . روضة المتقين، ج٣، ص٢٢٥.

٣ . سورة الصافات، الآية ١٦٤.

و هناك فرق بين صوم العوام و الخواص و الأخص. فلو صمنا و بتنا نفكّر لا سامح الله بأذئ أحد أو بالوصول إلى مقام و منصب أو لم نعدّ أنفسنا إن تقلّدنا منصباً أن لا نولي له أهمية، لم يصم باطننا و من أجل ذلك لم نصل إلى باطن الصوم.

قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تبارك و تعالى وكّل ملائكة بالدعاء للصائمين، و قال: أخبرني جبرئيل عليه السلام عن ربّه تعالى ذكره أنه قال: ما أمرتُ ملائكتي بالدعاء لأحد من خلقي إلا استجبتُ لهم فيه»[1].

طيب فم الصائم

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أوحى الله تبارك و تعالى إلى موسى عليه السلام: ما يمنعك من مناجاتي؟ قال: يا ربّ أجلّك عن المناجاة لخُلوف فم الصائم، فأوحى الله عزّ و جلّ إليه: يا موسى، لخُلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك»[2].

ألا يريد الإنسان أن يكون مُطيّباً و مُعطّراً في ذلك العالم، و لا يوجد هناك خبر عن الغزال و سُرّة الغزال ليفوح منها العطر، بل هناك الصوم هو الذي يُعطّر الإنسان. فإنّ باطن الصوم يظهر على هيئة عطر على الجسد و أما ما فوق ذلك فلا يعلمه إلا الله سبحانه.

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من صام يوماً في الحرّ فأصابه ظمأ وكّل الله عزّ و جلّ به ألف ملك يمسحون وجهه و يبشّرونه حتى إذا أفطر قال الله عزّ و جلّ: ما أطيب ريحك و روحك، يا ملائكتي اشهدوا أني غفرت له»[3].

---

١ . روضة المتقين، ج٣، ص٢٢٨.

٢ . روضة المتقين، ج٣، ص٢٢٩.

٣ . نفس المصدر.

فإنّ باطن الصوم يسوق الإنسان إلى مرتبة يكون فيها مخاطباً لله، فإن كان حتى الآن يقول: «يا الله» للبعيد، سيقول الله له من الآن فصاعداً: «يا عبدي».

و إن دعا الله شيئاً بالعظمة فلا يمكن أن يُشبّه بسُرّة الغزال، «فإنّ المسك بعض دم الغزال»، و لا يُقاس بالعطر الذي يذكره الله سبحانه.

و من جانب آخر فقد ورد في مواضع عدة من القرآن الكريم بأن الملائكة يضربون البعض على وجوههم و أدبارهم عند الموت: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ﴾[1].

إنّ للمرحوم الشيخ محمد علي الشاه آبادي، أستاذ الإمام الخميني ﵀ في العلوم العرفانية كتب نافعة، منها «شذرات المعارف» يقول فيه: إن الذين يقع عليهم ضرب الملائكة عند الموت هم الذين لم يقوموا بعمل و لم يتعلموا، فيقوم الملائكة الموكلون بالدنيا بضربهم بشدة على أدبارهم قائلين لهم: اخرجوا من هنا فقد انتهى وقتكم في الدنيا. و يقوم الملائكة الموكلون بذلك العالم بضربهم على وجوههم لأنهم يرون هذا الشخص قد وفد عليهم بيد خالية و وجه أسود قائلين له: لماذا أنت خلو اليدين مع أنك عشت عمراً في الدنيا[2]؟

رمضان شهر الله

نقل علي بن موسى الرضا ﵇ عن آبائه الطاهرين عن أمير المؤمنين علي ﵇: «إنّ رسول الله ﷺ خطبنا ذات يوم فقال: أيها الناس قد أقبل إليكم شهر الله»[3]. و ذلك لأنّ الكلام في هذا الشهر عن صوم الله، فإنّ الصوم لله و الشهر هذا هو شهر الصوم، فأُطلق على شهر رمضان المبارك «شهر الله». كما أنّ شهر رجب هو «شهر

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٥٠.

٢ . راجع شذرات المعارف، ص٦٤.

٣ . الأربعين للشيخ البهائي، ص١٧٩، ح٩.

الولاية» و شهر شعبان أيضاً هو «شهر النبوة و الرسالة». و من هنا فنحن نسأل الله في أدعية شهر رجب أن يُوفّقنا للعبادة في شهر رمضان المبارك لتتهيأ أرضيتها من شهر رجب، و ما دام الإنسان لم يطوِ بعض المقدمات، لا يستطيع إدراك عظمة شهر رمضان المبارك.

و ورد في رواية: «لا تقولوا هذا رمضان، و لا ذهب رمضان و لا جاء رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله عزّ و جلّ»[1]، بل قولوا: جاء شهر رمضان و ذهب شهر رمضان. فإنّ شهر رمضان في الحقيقة هو «شهر الله». فإن لم يصل الإنسان في شهر الله إلى لقاء الله، لم يدرك باطن الصوم، بل صام على مستوى الطبيعة و لا يكون جزاؤه إلا بنفس ذلك المستوى.

و قال ﷺ: «بالبركة و الرحمة و المغفرة» فاستقبلوه و استعدّوا له لتدركوه بشكل صحيح.

و إنّ البركة هي الخير الدائم. و يُطلق على الوهاد التي تجتمع فيها المياه في الصحاري «البِركة». و الرحمة و المغفرة لا تختص بغفران الذنوب؛ فإنّ الله سبحانه يُطلق على تلك الدرجات العالية بالرحمة أيضاً، علماً بأنّ الرحمة الخاصة مختصة بالمؤمنين: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]. و اكتساب هذا النوع من الرحمة يتيسّر في شهر رمضان المبارك.

و قال في تتمة كلامه: «شهر هو عند الله أفضل الشهور»، و قد عيّن الله فضل هذا الشهر. فكما أن الإنسان المتقي و الورع يكون أكرم عند الله، كذلك الشهر الذي تزيد فيه البركة و الرحمة و المغفرة يكون أفضل الشهور.

---

١ . تفسير نور الثقلين، ج١، ص١٦٦، في وجه تسمية رمضان و راجع أيضاً: مجمع البحرين، ج٢، ص٢٢٣، مادة «رمض».

٢ . سورة الأعراف، الآية ٥٦.

و هناك في شهر رمضان المبارك أمران:

١- عام: بأن يعتبر الإنسان جميع الشهر أمراً واحداً و ينوي له و ذلك بأن ينوي في الليلة الأولى منه أن يصوم إلى آخر الشهر.

٢- خاص: بأن يكون لكل يوم منه تكليف مستقل و منفصل أيضاً. «و أيامه أفضل الأيام و لياليه أفضل الليالي و ساعاته أفضل الساعات».

و قوله: قد أقبل إليكم شهر الله، يتناسب مع الحديث الشريف «الصوم لي»، فإن كان الصوم لله يكون هذا الشهر أيضاً شهر الله. و بنفس تلك النسبة تكون سائر الأعمال علاوة على الصوم لله أيضاً كأدعية الأسحار و العبادات الأخرى لأنّ هذا الشهر هو شهر الله، فإن كان كذلك، تكون أعمال هذا الشهر برمّتها سواء أدعية الليل و السحر أو عبادات اليوم و الصوم كلها لله.

شهر رمضان و التخلّق بأخلاق الله

قال: «هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله»، و على الضيف أن يماثل عمله ربّ البيت. فإنّ الصائم ضيف ربّ «يُطعِم و لا يُطعَم»[1]، فيمكنه أن يكون كذلك «يُطعِم و لا يُطعَم». و إن كان الله سبحانه يُعطي و لا يأخذ، فلابد للإنسان في هذا الشهر أن تكون خصلته الإعطاء لا الأخذ؛ إذ لا يد أفضل من اليد المُعطية و لا يد أدون من اليد الآخذة. لأنّ الله يبغض خصلة الاستجداء و يحبّ خصلة الإعطاء. فإن حاول أحد أن يذهب الآخرون من جنب مائدته إلى الجنة تكون يده يدٌ مُعطية، و إن سعى أحد لأن يذهب إلى الجنة ببركة الآخرين تكون يده يدٌ آخذة.

---

١ . قال الإمام الصادق عليه السلام: «اذكر اسم الله عزّ و جلّ على الطعام فإذا فرغت فقل: الحمد لله الذي يُطعِم و لا يُطعَم» (الكافي، ج٦، ص٢٩٤).

و من كلمات رسول الله ﷺ الرفيعة التي لم يسبقه أحد بها هي: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»[١]، فإنّ الإنسان إن أعطى تكون يده هي العليا و إن أخذ تكون هي السفلى.

و إنّ من الأدعية في ليالي شهر رمضان المبارك هي امتلاك مثل هذه الروح حيث نقول لله تعالى: إلهي أنت الذي تحفظ دينك و لا تتركه فوفّقني لإحياء دينك على يديّ، لا أن يقوم بإحيائه الآخرون و أنا أجلس إلى جانب مائدة الدين. و وفّقني لإحياء الصلاة و الصوم على يديّ و عبر دمي و يكون الآخرون ضيوف مائدتي، لا أن يجاهد الآخرون و يسفكون دمائهم لإحياء الدين و أنا أصلي و أصوم. «و اجعلني ممّن تنتصر به لدينك و لا تستبدل بي غيري»[٢].

و قد هدّد الله سبحانه طائفة قائلاً لهم: أنا أدافع عن ديني و لا أتركه و لكنكم إن لم تُوفّقوا لإجراء هذا الفيض فسأستبدلكم بقوم غيركم: ﴿وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾[٣]. فإنّ الله لا يترك دينه إن اصطفّ الأعداء أمام الإسلام و سيتولى حفظه على اليقين. فإن لم يتم حفظ الدين على أيديكم و فقدتم الخلوص، سيُبعدكم و يأتي بقوم غيركم.

و بالاستناد إلى هذا التهديد و التعليم القرآني أوصونا بأن نقول في ليالي شهر رمضان المبارك: «و اجعلني ممّن تنتصر به لدينك و لا تستبدل بي غيري» فهذه هي اليد المعطاء و الهمة العالية.

و في أدعية هذا الشهر عرّفوا لنا ربّ البيت: «و هو يُطعِم و لا يُطعَم و يُجير و لا

---

١. الكافي، ج٤، ص١١.

٢. مفاتيح الجنان، أعمال ليالي شهر رمضان، الدعاء الثالث عشر.

٣. سورة محمد، الآية ٣٨.

يُجار عليه»[١]، أو: «يُهلك ملوكاً و يستخلف آخرين»[٢]، ثمّ قالوا لنا أنتم ضيوف لمثل هذا الربّ.

شهر رمضان و طلب كرامة

و قال أيضاً: «و جعلتم فيه من أهل كرامة الله»، فاطلبوا الكرامة في هذا الشهر؛ لأنّ الله لا يريق ماء وجه الإنسان الكريم و يحفظ كرامته إلى الأبد. و إنّ الكرامة هي الصفة الخاصة بالملائكة فهم عباد مكرمون[٣]، و قد دعيتم أنتم كذلك إلى مائدة الكرامة فحاولوا أن تتصفوا بها.

و الكرامة هي النزاهة عن الدناءة و الحقارة؛ و إنّ جميع تعاليم الإسلام تهب للإنسان روح الكرامة لأنها نزلت من عند الله الكريم. يقول علي عليه السلام: «من وجد ماءً و تراباً ثم افتقر فأبعده الله»[٤]، فإنّ هذا الكلام يدعو إلى الإنتاج و الابتعاد عن البطالة، حيث أنّ الإمام يلعن الشخص أو الجماعة العاطلة و يهب للأفراد روح الكرامة.

و يستدلّ أيضاً في نهج البلاغة بصورة منطقية قائلاً: «و لقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله ما يدلك على مساوئ الدنيا و عيوبها إذ جاع فيها مع خاصّته و زويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته فلينظر ناظر بعقله أكرم الله بذلك محمداً أم أهانه فإن قال أهانه فقد كذب و الله العظيم بالإفك العظيم و إن قال أكرمه فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له و زواها عن أقرب الناس منه»[٥]، و من يلتهي بالمال لا يسعى

---

١ . بحار الأنوار، ج٦٣، ص٣٨١.

٢ . من فقرات دعاء الافتتاح.

٣ . ﴿... بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُون * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، سورة الأنبياء، الآية ٢٦ – ٢٧.

٤ . بحار الأنوار، ج١٠٠، ص٦٥.

٥ . نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

لاكتساب المعارف.

و لم يتناف هذا التحليل مع ما ورد في سورة الفجر حيث جاء فيها: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ﴾[1]، و لم يقل بأن الذي عنده مال فهو ليس بحقير. و حصيلة ما ورد في نهج البلاغة هو أن من بسط الله له الدنيا سيقضي كلّ عمره في الصرافة و ليعلم أنه مطرود من عناية الله.

و إنّ الكرامة لا تُحدّ بحدود الاعتبارات الدنيوية، و كل ما انطلى عليه طابع الدنيا فهو لا يورث الكرامة بل و يوجب الدناءة أيضاً.

و قد ورد في الأخبار ـ على ما يبدو عن الإمام السجاد عليه السلام ـ بأنه إذا جرى الكلام في القرآن عن العلم و المعرفة و التوحيد، قرن الله أصحاب هذه النعم بالملائكة و إن دار الكلام عن المأكل و الملبس و... قرن الله أصحابها بالأنعام فقال في الطائفة الأولى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ﴾[2]، حيث ذكر العلماء إلى جانب الملائكة.

و لكن إذا جرى الكلام عن الأمور المادية قال: ﴿... أَمِ السَّماءُ بَناها * رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها * وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها * وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها * أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها * وَ الْجِبالَ أَرْساها * مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ﴾[3]، و قال أيضاً: ﴿كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ﴾[4].

فلو صرف الإنسان عمره للدنيا أكثر مما يحتاج إليه لحفظ كرامته فقد خسر و صار

---

١. سورة الفجر، الآية ١٥ - ١٦.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٨.

٣. سورة النازعات، الآية ٢٧ - ٣٣.

٤. سورة طه، الآية ٥٤.

وبالاً عليه. إذ أنّ الإسلام يأمرنا من جانب بعدم التعلّق بالدنيا و يوصينا من جانب آخر بالحياة الكريمة و بالإنتاج من أجل كرامة المجتمع الإسلامي و بالسعي و الجهد لعزة النفس و المجتمع الإسلامي و إشراك الآخرين في هذا النتاج.

و قد روي أنه بعد أن حفر عليّ عليه السلام قناة أو بئراً بتعب و عناء أوقفها و قال: «هذه صدقة»[1].

قبول العمل و تقبّل الصالح

و يقول في تتمة الخطبة الشعبانية: «أنفاسكم فيه تسبيح»، فكأنّه يقول في كلّ نَفَس يخرج منه: «سبّوح قدّوس».

«و نومكم فيه عبادة و عملكم فيه مقبول» و قبول العمل مقدمة لأن يتقبّل الله الإنسان نفسه. و لذا تجد في القرآن الكريم نمطين من التعبير:

١. أنّ الله يقبل عمل البعض.

٢. أنّ الله يتقبّل البعض، لا أن يكون عملهم مقبولاً فحسب.

إذ أنّ البعض له عمل صالح و البعض الآخر صالح بذاته. فمن كان من ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[2]، و كانت له أعمال صالحة و لكنه لم يصل بعد إلى مقام الصلاح في ذاته فهو قد يتعرّض للخطر.

و أما الطائفة الثانية فهم من «الصالحين»، كإبراهيم الخليل عليه السلام الذي يقول القرآن في شأنه: ﴿وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3]، فالصالح هو الصالح في جوهر ذاته و هو الذي يكون مقبولاً عند الله.

---

١. الكافي، ج٧، ص٤٩.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٥.

٣. سورة النحل، الآية ١٢٢.

فقد قال الله سبحانه في شأن السيدة مريم عليها السلام: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾[1]، و لم يقتصر قبوله على عباداتها و صلاتها و صيامها؛ إذ أنه يقبل صلاة الآخرين و صيامهم؛ بل أنه يتقبّل جوهر ذات الشخص الكريم، و قبول العمل طليعة لوصول الإنسان إلى أن تكون ذاته مقبولة كذلك.

الصوم و الإيمان بيوم القيامة

لما يتمتع به شهر رمضان المبارك من أهمية بالغة، قال النبي في شهر شعبان ــ حاثاً على الاستعداد و الطلب من الله بدرك شهر رمضان الذي ملؤه البركة و الرحمة و المغفرة: «فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة و قلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه و تلاوة كتابه. فإنّ الشقيّ من حُرم غفران الله عزّ و جلّ في هذا الشهر العظيم. اذكروا بجوعكم و عطشكم فيه جوع يوم القيامة و عطشه»[2].

و قد ورد في بعض الروايات حول فضل الصوم بأنه سبب لأن يشعر الإنسان بالجوع و يحسّ بألم الفقير الجائع[3]. و هذا هو من باب التكلّم على قدر عقولنا و من الخطى الأولى و إلا فلماذا يكون الإنسان شبعاناً على الدوام و إلى جانبه شخص جائع؟ فإنّ في يوم القيامة ثمة طائفة جائعة حقيقة، يأكلون الطعام و لكنهم لا يشبعون أبداً كما أنهم كانوا لا يشبعون في دار الدنيا أيضاً. إذ ليس للحرص و الطمع زوال و انتهاء و هو يظهر في الآخرة على صورة ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾[4].

---

١. سورة آل عمران، الآية ٣٧.

٢. الأربعين للشيخ البهائي، ص١٧٩، ح٩.

٣. من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٧٣.

٤. سورة ق، الآية ٣٠.

و من هنا قال النبي: «اذكروا بجوعكم و عطشكم فيه جوع يوم القيامة و عطشه» و لم يقل جوع الآخرين و عطشهم فإنّ هذا ما لابد من تأمينه في المراحل الأولى.

التصدّق و الإطعام

لقد ورد في بعض الأخبار عن المعصوم عليه السلام بأن المؤمن كريم و إن كان فقيراً، و الفقر ليس بذلّ؛ فإنّ الخزي و الضعة أمر مشين و قد يقترن بالغني.

و قد دارت شبه مناظرة بين علي بن أبي طالب و الخضر عليهما السلام فقال الخضر عليه السلام: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله»، و قال الأمير عليه السلام: «و أحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتّكالاً لما عند الله»[1]، فإنّ الفقير الذي لا يعتني بالأغنياء يكون قد اتّكل على الله و هي بذاتها كرامة أسمى من التواضع.

ثم يقول النبي في تتمة الخطبة و بيان وظائف الصائمين: «و تصدّقوا على فقرائكم و مساكينكم»، و لابد أن يكون التصدّق هذا مقروناً بالاحترام و قصد القربة لا بالتحقير و الترحّم.

و في مقطع آخر من هذه الخطبة، دعا النبي صلى الله عليه وآله الجميع إلى إطعام الصائمين: «أيها الناس، من فطّر منكم صائماً لله في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق رقبة و مغفرة - فقيل يا رسول الله و ليس كلنا نقدر على ذلك فقال صلى الله عليه وآله: - اتقوا النار و لو بشقّ تمرة» و لعل علة العتق (لأن الصائم قد حرّر نفسه).

حيث كانت تلك الفترة فترة عصيبة و لربّما كان يُحسب شق التمرة إفطار أيضاً، فقد كان يُخيّم الفقر أحياناً على المسلمين إثر أحداث طارئة كأصحاب الصفة الذين كانوا لا يتمتعون بأبسط الإمكانيات، و كان يقع المسلمون أحياناً و لمدة مديدة في حصار اقتصادي و عسكري. و استمر الوضع على هذا المنوال بعد ذلك أيضاً و بات

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ٤٠٦.

أهل الباطل تبريراً لفقر الناس و ثروتهم يُروّجون مذهب الجبر[١].

ففي يوم خطب معاوية مدلّساً في جمع من الناس محذّرهم من الاعتراض عليه في عدم توفّر ما يحتاجونه أو ارتفاع الأسعار و قال: إن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[٢]، فعلامَ تلومونني إذا قصّرت في إعطائكم؟ (هنا يضعف عن الجواب من لم يقرأ القرآن و لم يكن عنده نصيب من فهمه) فقال الأحنف بن قيس: إنا و الله ما نلومك علىٰ ما في خزائن الله و لكن علىٰ ما أنزله لنا من خزائنه فجعلته أنت في خزائنك و حلت بيننا و بينه (فإذا تخلط بين المفاهيم).

فلو وقف الجميع علىٰ وظائفهم و لم يعمد البعض كالفئران إلىٰ الادّخار و الاحتكار لما وقع سائر الناس في مشكلة. فإنّ البعض في يوم القيامة يُحشرون علىٰ هيئة نمل و فأر لأنّ صفات هذه الحيوانات كانت في دار الدنيا قد ترسّخت في نفوسهم.

توقير الكبار و العطف على الصغار

«وقّروا كباركم و ارحموا صغاركم»، و الكِبَر ليس بالعمر فحسب؛ فمن كان أعظم منزلة و أصغر سناً يتوجّب احترامه و إكرامه.

---

١. لقد كان لبني أمية و بني العباس دور هام في ترويج مذهب الجبر و استخدام هذه الحربة لتحكيم أسس سلطتهم. حيث كانت حكومة بني العباس يدعمون الأشاعرة القائلين بالجبر و يقفون بوجه المعتزلة القائلين بالتفويض و كذا بوجه الإمامية الذين لا يعتقدون بالجبر و التفويض و ذلك بعدم إدخالهم في السلطة. و كان يُقوّىٰ هذا المذهب لتبرير جرائم الهيئة الحاكمة. و نجد اليوم أيضاً طائفة من وعّاظ السلاطين أشعريون في أصول الدين و المسائل الكلامية و وهابيون و حنبليون في فروع الدين و المسائل الفقهية.

٢. سورة الحجر، الآية ٢١.

سُئل العباس، عمّ النبي ﷺ: «أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟: قال: هو أكبر و أنا أسنّ»، أو «هو أكبر و أنا وُلدت قبله»[١] و هذا هو الأدب في الكلام.

فلابد في شهر رمضان المبارك من العطف و الملاطفة مع من هو تحت تكفّلنا و قد يتحدّد الأدنىٰ و الأعلىٰ في يوم القيامة: «إنّ الفقر و الغنىٰ بعد العرض علىٰ الله»[٢].

فكم من راجل يأتي هناك راكباً و كم من راكب يأتي هناك راجلاً
و كم من أسير يأتي هناك أميراً و كم من أمير يأتي هناك أسيراً[٣].

حفظ اللسان

«و صلوا أرحامكم و احفظوا ألسنتكم» و لا تقتصر مراعاة هذه الأمور خلال النهار و حين الصوم بل لابد من مراعاتها طوال الشهر أيضاً. إذ أنها ليست من آداب الصوم بل هي من آداب شهر الصيام. فلا كلام في أن الصائم مكلّف بحفظ لسانه و لكنه إذا حان الليل فهل بإمكانه التكلم بما يشاء؟ قال: احفظوا ألسنتكم طيلة هذا الشهر.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه الطاهرين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عرف الله و عظّمه منع فاه من الكلام و بطنه من الطعام و عنّا نفسه بالصيام و القيام»[٤]، فحفظ اللسان يستوجب معرفة الله، و من عرف الله و عظّمه لا يرد علىٰ لسانه كلّ كلام أمام الله العظيم و لا يُلوّث بطنه بكل طعام و إن لم يكن حراماً فإنّ لذة

---

١ . كحل البصر في سيرة سيد البشر، ص٥٨.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة ٤٥٢.

٣ . بيتان بالفارسية و هذا نصها:

بسا پياده كه آنجا سواره مي آيد   بسا سواره كه آنجا پياده خواهد شد
بسا اسير كه آنجا امير مي آيد   بسا امير كه آنجا اسير خواهد شد

٤ . الأربعين للشيخ البهائي، ص٧٦، ح٢.

الأكل لا تجتاز اللحظات التي يكون الطعام فيها داخل الفم، و من عرف الله لا يجلس عند كلّ مائدة، و يُربّي بالصوم نفسه و لا يغفل عنها.

كتب رجل من طلاّب النصيحة إلى أبي ذر: يا أبا ذر أطرفني بشيء من العلم، فكتب إليه أنّ العلم كثير و لكن إن قدرت أن لا تسيء إلى من تحبّه فافعل، فقال: هل رأيت أحداً يسيء إلى من يحبّه؟ فقال: نعم، نفسك أحبّ الأنفس إليك فإذا عصيت الله عز و جل فقد أسأت إليها[1].

فمن حفظ لسانه و منع بطنه من كثرة الأكل أو أكل كل شيء و صام و صلى فهو مؤمن عادي و ليس من أولياء الله. فإنّ أولياء الله هم أهل التأمّل و التفكّر و التعمّق. يجانبون الكلام و إن نطقوا كان نطقهم ذكر الله[2]. إذ يُقال للمؤمن العادي: تكلّم قليلاً، و يُقال للمؤمن العارف: تكلّم كثيراً و اهدِ الناس و ذكّرهم بالله.

قيمة اكتساب العلم

لقد أدرك رسول الله ﷺ عدة آلاف[3]؛ و كان كلّهم من جانب و علي بن أبي طالب عليه‌السلام من جانب آخر. و قد شهد النبي ﷺ اثني عشر ألف صحابي و جلسوا تحت منبره سنين عديدة و ائتموا به في الصلاة سنوات مديدة و حضروا مجالس درسه و بحثه كراراً و لكنهم لم يستفيدوا منه و لم يتحدّثوا بمثل علي عليه‌السلام. فقد كان ديدنهم أن يأتون النبي و يجلسون لفترة عند مجلس درسه و ينتابهم بذلك ابتهاج و سرور و

---

١. إرشاد القلوب، ج١، ص٣٤٥.

٢. قال رسول الله ﷺ: «إن أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً، و نظروا فكان نظرهم عبرة، و نطقوا فكان نطقهم حكمة، و مشوا فكان مشيهم بين الناس بركة، لولا الآجال التي كتب الله عليهم لم تستقرّ (تقرّ) أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العذاب و شوقاً إلى الثواب»، (الكافي، ج٢، ص٢٣٧).

٣. أسد الغابة، ج٤، ص٨٧.

لكنه عابر و زائل؛ و أما علي عليه السلام فقد كان ملازماً للنبي في كل مكان: «وضعني في حجره و أنا ولد... كنت أتبعه اتّباع الفصيل أثر أمه»[1].

و روي أن رجلاً من الأنصار كان يجلس إلى النبي صلى الله عليه وآله فيسمع منه الحديث فيعجبه و لا يحفظه فشكا ذلك إلى النبي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «استعن بيمينك» و أومأ بيده أي خُطّ[2].

و كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا قدم من السفر أتى رسول الله صلى الله عليه وآله و سأله عن نزول الآيات و فحواها و تفسيرها. أو كان يبعث إليه رسول الله بعد قدومه من السفر و يخبره بالآيات التي نزلت في غيابه و فحواها و معناها.

فلم يكن كلّ أولئك الأصحاب الاثني عشر ألف من أولياء الله بأن يكون كلامهم ذكراً و.... .

يصف الله البعض في القرآن الكريم بأن له نوراً قائلاً: ﴿وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[3]، فيتشعشع منه النور حين يمشي بين الناس؛ و كلامه و عمله و سلوكه نور. إذا جالسه المرء يتذكر الله سبحانه؛ إذ لا يتكلم عن المتاع و المأكل بل يتحدّث عن الآيات و الروايات. و كذلك كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله المبارك.

فلا يوجد شيء في ليالي القدر يضاهي اكتساب العلوم الإلهية و التحادث بالمعارف الدينية. فعلى المرء أن ينظّم أو يشارك في برامج كجلسة التفسير أو الحديث أو الأحكام التي هي سعادة و توفيق بحدّ ذاتها، و إلا فليأمر بالمعروف و ينه عن المنكر و إن لم يستطع فليذكر الله على الأقل.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

٢. بحار الأنوار، ج٢، ص١٥٢.

٣. سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

فإنّ من أفضل الكتب الفقهية لدىٰ الإمامية و أهمها هو كتاب الجواهر الذي كتبه مؤلفه الجليل خلال ثلاثين عاماً. إذ يقول في نهاية كتابه: تم كتاب جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام في مسائل الحلال و الحرام في ليلة الثلاثاء ثلاثة و عشرين في شهر رمضان المبارك، ليلة القدر التي كان من تقدير الله تعالىٰ فيها أن يتفضل علينا بإتمام الكتاب. فقد كان هذا الفقيه الجليل مشتغلاً بكتابة الجواهر في الليلة الثالثة و العشرين التي هي أفضل من جميع ليالي شهر رمضان المبارك و حتىٰ من الليلة الحادية و العشرين و التاسعة عشرة.

فلا يوجد شيء أعلىٰ من أن يكون الإنسان عالماً عارفاً. لأنّ العلم هو الذي يهيء الأرضية لوصول الإنسان إلىٰ «العقل»؛ و الإنسان العاقل في راحة و قرار و لا يقع في اضطراب و عذاب أبداً.

الابتعاد عن النظر المحرّم و التوجّه إلى الدعاء

قال النبي ﷺ: «و غُضّوا أبصاركم عمّا لا يحلّ النظر إليه».

و روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «النظرة سهم من سهام إبليس»[١] أي النظرة إلىٰ غير المحارم. فالإنسان المبتلىٰ و الملوّث بالنظرة المحرمة يستطيع أن ينجو من هذا الخطر عبر التمرين و تهذيب النفس.

و علىٰ المرء أن لا ينظر حتىٰ إلىٰ رسائل الآخرين و مدوّناتهم و أسرارهم لأننا أُمرنا أن نغضّ أبصارنا في شهر رمضان المبارك عمّا لا يحلّ النظر إليه.

و من الوظائف الأخرىٰ في هذا الشهر هي التوبة و الدعاء حيث قال: «و توبوا إلىٰ الله من ذنوبكم و ارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم» فإنه مستجاب لأنّ أفضل حالة هي حالة الصلاة و لاسيما الأدعية الواردة في تعقيبات الصلاة التي قد

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص١١.

أوصينا بها.

و كلّما قرأ الإنسان الدعاء بتأنّ و خفوت، كلّما راعىٰ أدب الدعاء بشكل أمثل، و علىٰ المرء أن يسعىٰ لأن لا يدعو و يسأل الله لنفسه فحسب، و لا يطلب من الله له هذه و تلك، بل يطلب الخير و العافية للجميع.

و قد بيّن لنا القرآن أدب الدعاء و نوعه قائلاً: ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[1].

المفتاح و المغلاق

قال النبي ﷺ في تتمة الخطبة: «أيها الناس إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عليكم و أبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم»، فإنّ أبواب الجنة و إن كانت مفتوحة علىٰ الدوام إلا أنها تمتاز بميزة خاصة في هذا الشهر.

ثم إنّ رحمة الله تسبق غضبه باستمرار. و إنّ الله يذكر ربوبيته و يتحدث عن كيفية تدبيره بأسلوب تظهر علىٰ كلامه علامة الرحمة.

﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ﴾[2]، و حركة هذه المقاليد و المفاتيح علىٰ نحوين، فإن تحركت بأحد الاتجاهين تكون مفتاحاً يفتح الخزانة، و بالاتجاه الآخر تكون مغلاقاً يغلق باب الخزانة. فإنّ هذا المفتاح مفتاح و مغلاق في الوقت نفسه، و هو أداة للفتح و وسيلة للإغلاق أيضاً، و إنّ الله كذلك يغلق و يفتح و لكنه لم يقل: «و عنده مغالبق الغيب»، بل قال: ﴿وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ﴾[3]، فإنّ الذي بيد الله هو المفتاح لا المغلاق،

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٠١.

٢. سورة الزمر، الآية ٦٣.

٣. سورة الأنعام، الآية ٥٩.

فالمفتاح في اختياره و الإغلاق لا يتحقق إلا عبر السيئات التي يقترفهـا الإنـسان. و إنّ الله لا يغلق باب الرحمة بوجه أحد بل هو الذي يفتحها. فاسعوا إلىٰ أن لا يتبدّل المفتاح إلىٰ مغلاق إذ أنّ الإنسان هو الذي يتسبب الإغلاق.

و أما التعبير عن تدبير الله و ربوبيته بالمفتاح فهو يدلّ علىٰ أنه «دائـم الفـضل علىٰ البرية»[1]، أي أنه يتفضّل علىٰ الإنسان و يفيض عليه باستمرار و علىٰ الإنسان مـن هـذا الجانب أن يتقبل الفيض و يتلقاه. ففي الوقت الذي يُحرم الإنسان من الفيض تجد آخر يتمتع به. فعلىٰ المرء التأهب و التلقي من هذه الجهة و إلا فهو الذي يغلق باب الفيض. و قلب الإنسان أيضاً هو الذي يغلقه بنفسه. و لذا قـال رسـول الله ﷺ: «إن أبـواب الجنان في هذا الشهر مفتحة»، و قولـه مفتحّـة دليـل علىٰ فتحهـا بأسرهـا و إلا لقـال مفتوحة و هذا هو الفرق بين الفتح و التفتيح.

و إنّ أبواب جهنم تغلق باستمرار بعد دخول أهل النـار فيهـا؛ علىٰ العكـس مـن أبواب الجنة فإنها مفتوحة علىٰ الدوام سواء قبل دخول أهلها فيها أو بعدها: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ﴾[2] و العدن بمعنىٰ الخلود.

فإنّ أبواب الجنة لا تغلق أبداً و أبواب النـار لا تبقىٰ مفتوحـة أبـداً؛ لأنّ إغـلاق الباب بذاته ضرب من العذاب و فتحه رفاه و نعمة، فغـير المـؤمن لا يـستطيع دخـول الجنة و المؤمن لا يخرج منها. و أما إغلاق الباب فهو عذاب مـضاعف: ﴿إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾[3]، أي أنّ جميع أبواب جهنم مطبقـة علـيهم و لا مخـرج لهـم منها.

---

١. من الأدعية الواردة في ليلة الجمعة.

٢. سورة ص، الآية ٥٠.

٣. سورة الهمزة، الآية ٨ – ٩.

فإنّ الأقفال على نوعين: قد تكون بصورة قطعة حديدية صغيرة توصل بين دفّتي الباب، و قد تكون على هيئة شريط كبير يغلق دفّتي الباب بأسرها. و قد جاء في هذه الآية بأنّ باب جهنم مطبقة بأسرها و لا مخرج لهم منها.

و قوله ﷺ: «و أبواب النيران مغلقة»، يعني أنّ غضب الله و سخطه و انتقامه قليل جداً في هذا الشهر.

أسباب تعزيز أسس الدين

و قال أيضاً: «و تحنّنوا على أيتام الناس يُتحنن على أيتامكم».

و يُعدّ هذا الحنان بمثابة الملاط الذي يستند إليه بناء الإسلام و الإيمان. فإنّ الحجر الصلب و الآجر و اللبنة تتماسك فيما بينها بذلك الملاط و يُبنى عبر ذلك صرح مشيّد. و هذا هو نفس اللين الذي يربط الأشخاص و الأعضاء فيما بينهم.

و قد هدّد الله سبحانه قائلاً: **﴿وَ لْيَخْشَ الَّذينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَديداً﴾**[1]، أي أنكم لا تظلموا أيتام الناس حتى لا تُظلم أيتامكم.

فإنّ الإنسان بعد الموت يكون مطلعاً على أحوال عائلته. فإن كان حرّاً يزور أهله، إذ أنّ من الأموات من هو حرّ و ذو منزلة يزور أهله في اليوم مرة و منهم من هو مبتلى يزور في الأسبوع مرة و منهم من يزور في الشهر مرة و منهم من يزور في السنة مرة كلّ على قدر منزلته لا أنهم ينقطعون كلياً عن أهاليهم[2].

فلابد و أن تكون الروح الحاكمة على المجتمع الإسلامي روح الأخوة و المحبة مع جميع طبقات المجتمع؛ المسلمون منهم و غير المسلمين، و إن كان للمؤمن ميزة خاصة.

---

١ . سورة النساء، الآية ٩.

٢ . الكافي، ج٣، ص٣٢٠، باب أن الميت يزور أهله.

قال الإمام الصادق عليه السلام لإسحاق بن عمّار: «صانِع المنافق بلسانك و اخلُص وُدّك للمؤمن و إن جالسك يهوديّ فأحسن مجالسته»[1]، فعلى الإنسان مراعاة الأدب مع الجميع سواء كان مسلماً أم كافراً، فإن الأدب من الواجبات الإسلامية حتى مع اليهودي. فيا حبّذا لو كانت هذه الروح حاكمة على المجتمع.

موقع الشيطان في شهر رمضان

واحدة من المشاكل التي تلمّ بحياة البشر و لاسيما المؤمنين هي الوساوس الشيطانية. و قد قال في هذا الشأن: «و الشياطين مغلولة»، فهم مكبّلون بالأغلال في هذا الشهر و ينبحون ليس إلا و لا يعظّون أحداً. فإنّ الشيطان موجود يوسوس بإذن الله سبحانه. و إنّ وسوسته نعمة و رحمة؛ إذ لم يصل أحد إلى مقام و مرتبة إلا عبر الجهاد مع الوساوس و الانتصار في ميدان الجهاد الأكبر. و لو لم تكن الوسوسة و لم يكن الطريق مفتوحاً لاقتراف الذنوب لكان طريق الإطاعة أحادي الاتجاه و كانت الطاعة ضرورية و لو كان كذلك لارتفعت ضرورة الوحي و الرسالة و التكليف و الدين. و إنّ العالَم العاري من الذنب ليس بعالم دين و تكليف و أمر و نهي و أشباه ذلك.

فإنّ الشيطان مأمور بالنباح على حدّ الوسوسة، و العارف لا يعتني بهذا النباح و يطوي الطريق و يصل إلى المقصد. و أما الأجنبي فينحرف عن الجادة و يقع في شراك الشيطان. و عندها سيستبدل الشيطان النباح بالعضّ و يأخذ بالعضّ بعد ذلك. علماً بأنّ الشطيان تحت ولاية الله و لا يقوم بفعل من دون إذنه و يُصرّح في يوم القيامة قائلاً: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ

---

١. الاختصاص، ص٢٢٥.

ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾[١].

فمن أعرض عن وعد الله عامداً و اتّبع مكر الشيطان يُمهله الله سبحانه، فإن انتهز هذه الفرصة و إلا فسيُسلّط الشيطان عليه بعد ذلك و لذا قال من باب الجزاء: ﴿أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[٢] أي تؤذيهم بشدة و تحرمهم من السعادة الأبدية و قال في موضع آخر: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٣]، و قد سلّط الله الشيطان عليهم كالكلب المعلّم. و إنّ هذا الكلب المعلّم مغلول في شهر رمضان المبارك فلا تقوموا بما يفتح أغلاله، و إنه ينبح من بعيد ليس إلا فلا تفكّوا أغلاله بأيدكم فيُسلّطه الله عليكم.

و هنا يرد سؤال و هو أنّ الشيطان كيف اقترف ذنباً رغم أنّ الملائكة لا يذنبون ؟ و الجواب هو أنّ الشيطان كان مع الملائكة و لكن لم يكن منهم بل كان من الجنّ و قد قال الله في القرآن حول الشيطان: ﴿كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[٤]، و قال الشيطان لله: ﴿خَلَقْتَني مِنْ نار﴾، و الله أيضاً لم يكذّبه. و قد صادق القرآن الكريم على أنّ الجنّ مخلوق من النار[٥].

فالمَلَك لا يعصي و الجنّ تارة يطيع و أخرىٰ يعصي. و لذا قال ﷺ: «و الشياطين مغلولة فاسألوا ربّكم أن لا يُسلّطها عليكم». فإن أراد الله أن يُسلّط الشيطان علينا، سيقوم بذلك عبر الوسائل الباطنية و الخواطر النفسانية، و يجعل قوانا النفسانية آلة بيد الشيطان.

---

١. سورة إبراهيم، الآية ٢٢.

٢. سورة مريم، الآية ٨٣.

٣. سورة الأعراف، الآية ٢٧.

٤. سورة الكهف، الآية ٥٠.

٥. ﴿وَ الْجانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾ (سورة الحجر، الآية ٢٧)، و جمع الجنّ «جنّة».

الورع

لما وصل النبي ﷺ إلى هذا الموضوع من كلامه: «قال أمير المؤمنين عليه‌السلام ـ و هو الذي سمع كلّ هذه المعارف من لسان رسول الله ﷺ ـ فقمت و قلت: يا رسول الله: ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عزّوجلّ».

و للورع درجات: أول درجاته و أقلها مرتبة هي ورع أهل التوبة الذين يعمدون إلى اجتناب المحرمات و التوبة و الطاعة.

و الأعلى من ذلك ورع أهل الصلاح الذين يجتنبون المشتبهات أيضاً. فقد قال رسول الله ﷺ: «دع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك»[١]، و ذلك بترك كل أمر و عمل مشتبه لا يُعلم حليّته كالطعام و الكلام الذي فيه شبهة و شكّ في حليته و إن كان ظاهره حلالاً فهذا هو ورع الصالحين.

و الأسمى من ذلك ورع أهل التقوى الذين يُجانبون المحرمات و المشتبهات بل و يبتعدون عن الحلال الذي يسوق الإنسان إلى الشبهة أيضاً. فلابد من ترك الحديث الذي قد يؤدي شيئاً فشيئاً إلى موضع يُحتمل فيه هتك حرمة مؤمن و غيبته و لابد من ترك الأموال التي قد تلوّث يد الإنسان بمال الشبهة و لابد من ترك الحلال الذي قد يؤول شيئاً فشيئاً إلى مآل مشوب بالشبهة. فهذا هو ورع أهل التقوى.

و الأرقى من ذلك ورع الصدّيقين المنقطعين عن كلّ ما سوى الله و المبتعدين عن كلّ ما عدا الحق. فإن كان القلب لا يستقبل سوى محبة الله فهو قلب الصدّيقين.

فقد قال الله سبحانه: ﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ﴾[٢]، و القلب هو

---

١. وسائل الشيعة، ج١٨، ص١٢٤.

٢. سورة الأحزاب، الآية ٤.

تلك الروح اللطيفة الإلهية و قد علّمونا بأن نسأل الله أن لا يحلّ في هذا القلب سوىٰ محبة الله، «و قلبي بحبّك متيّماً»[1]. فهذه هي تربية الصدّيقين بأن ينقطع القلب عن ما سوىٰ الله.

وداع شهر الله

يعتبر الإمام السجاد عليه السلام أن شهر رمضان المبارك عيد أولياء الله. فقد ورد في الصحيفة السجادية دعاء حول مقام الدعاء و وداع شهر رمضان المبارك أحصىٰ فيه الإمام في مقدمته النعم الإلهية العامة و أنّ مننه ابتداء و ليست من باب الاستحقاق. ثم يقول بعد ذلك: «اللهم و أنت جعلت من صفايا تلك الوظائف، و خصائص تلك الفروض، شهر رمضان»[2].

العرفاء يعيّدون في كلّ نَفَسٍ بعيدين و العناكب يصنعون من الذباب قديداً[3].

فإنّ عمل العنكبوت هو نسج الخيوط لاقتناص الذباب و صناعة القديد و المرق. و لم يجتاز عمله الادّخار؛ بيد أن للعارف في كلّ نَفَس عيدين كما قال سعدي:

«كلّ نَفَس إذا دخل كان ممدّاً للحياة و إذا خرج كان مفرّحاً للذات؛ ففي كلّ نَفَس نعمتان موجودتان و لكلّ نعمة شكر واجب».

و لذا كان للعارف في كلّ نَفَس عيدين، و أفضل أنفاس الإنسان ما كان منها في شهر رمضان المبارك فإنّ «أنفاسكم فيه تسبيح» و إنّ التنفّس في هذا الشهر بمثابة قول «سبّوح قدّوس».

---

١ . من فقرات دعاء كميل.

٢ . الصحيفة السجادية، الدعاء الخامس و الأربعون.

٣ . «القديد» اللحم الباقي المجفّف. بيت بالفارسية في ديوان سنائي غزنوي و هذا نصه:

عارفان هر دمي دو عيد كنند   عنكبوتان مگس قديد كنند

و إنّ عيد الفطر في آخر شهر رمضان المبارك، إنما هو لإعطائنا جوائز هذا الشهر، و هو في الحقيقة حصيلة شهر رمضان المبارك. فإنّ ضيافة الله يتبعها لقاء الله. إذن فالعظمة ليست لشهر شوّال، و إنما هي لشهر رمضان المبارك حيث يعطون في عيد الفطر حصيلة هذا الشهر.

يوم عيد و أنا واقف متحيراً أمام هذا التدبير حيث سأعطي حصيلة ما قدمته خلال ثلاثين يوماً و أتسلّم منحتي[1].

و لقد أشار الإمام السجاد عليه السلام بادئ الأمر إلى نعم الله ثم قال: «و أنت جعلت من صفايا تلك الوظائف، و خصائص تلك الفروض، شهر رمضان الذي اختصصته من سائر الشهور، و تخيّرته من جميع الأزمنة و الدهور، و آثرته على كلّ أوقات السنة بما أنزلت فيه من القرآن و النور، و ضاعفت فيه من الإيمان، و فرضت فيه من الصيام، و رغّبت فيه من القيام، و أجللت فيه من ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. ثم آثرتنا به على سائر الأمم، و اصطفيتنا بفضله دون أهل الملل... و قد أقام فينا هذا الشهر مقام حمد و صحبنا صحبة مبرور»[2].

و لا يتحقق الوداع إلا لمن كان مأنوساً بشهر رمضان المبارك و كان مصاحباً له و إلا فلا وداع لمن لم يكن مع هذا الشهر. فإنّ الإنسان يُودّع صاحبه أو من كان مأنوساً معه مدة من الزمن. و لا وداع لمن لا يعرف أساساً متى حلّ شهر رمضان المبارك و متى ارتحل، و لماذا أتى و لماذا انقضى.

فكان الإمام السجاد عليه السلام إذا حلّ آخر شهر رمضان المبارك، يقرأ هذا الدعاء بتضرّع و ابتهال قائلاً: «و قد أقام فينا هذا الشهر مقام حمد، و صحبنا صحبة مبرور»

---

١ . بيت بالفارسية و هذا نصه:

روز عيد است و من مانده در اين تدبيرم — كه دهم حاصل سي روزه و ساغر گيرم

٢ . الصحيفة السجادية، الدعاء الخامس و الأربعون.

حيث كان مقروناً بالرحمة و المغفرة و الفضائل و النعم.

و قال رسول الله ﷺ في الخطبة الشعبانية: «قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة و الرحمة و المغفرة». فمن رافق هذا الشهر و صاحبه حلّت به بركته و رحمته و مغفرته.

أفضل ما يُنتفع من شهر الله

ثم قال عليه‌السلام: «و أربحنا أفضل أرباح العالمين». فلم يربح أيّ تاجر في أقصى بقاع العالم ما ربحناه في هذا الشهر، و لم ينتفع أيّ أحد بما حصلنا عليه من هذا الشهر. فإنّ الإنسان مسافر إلى الأبد و لابد من إعداد زاده في هذه الأيام القلائل. و إنّ أبواب السماء تتفتّح بوجه المؤمن في هذا الشهر و يكون بإمكانه عبر الورع الوصول إلى باطن العالم، و لو كانت فرصة شهر رمضان المبارك هي أفضل فرصة، تكون أفضل الأرباح لهذا الشهر و أهله أيضاً.

و إنّ أول السنة لطائفة من الناس هو أول فروردين، و إنّ الشابّ في أول فروردين يسعى لأن يعدّ لنفسه ثوباً جديداً. كما أنّ أول السنة للأشجار أيضاً فروردين حيث يرتدون فيه ثياباً جُدُداً. و أول السنة للمزارع فصل الخريف حيث يحسب حصيلة مزرعته. و كلّ من التاجر و الصانع يعيّنون وقتاً آخر كبداية للسنة، و أما المرحوم السيد ابن طاووس، فهو يشير إلى أنّ أولّ السنة لأرباب السير و السلوك هو شهر رمضان[1]. حيث يُحاسبون أنفسهم من شهر رمضان إلى الشهر المقبل؛ عن الدرجات التي توصلوا إليها في السنة الماضية و الحالية و المسائل التي أدركوها و عن مدى قدرتهم على الوقوف أمام الذنوب و بوجه الأعداء. فإنّ شهر رمضان المبارك للسالكين إلى الله هو شهر المحاسبة. و من هنا قال الإمام السجاد عليه‌السلام: «و أربحنا أفضل أرباح العالمين».

---

١. إقبال الأعمال، ص٢٥٠

أنين الفراق

و قال في تتمة الدعاء: «ثمّ قد فارقنا عند تمام وقته و انقطاع مدّته و وفاء عدده فنحن مودّعوه وداع من عزّ فراقه علينا». و أيّ وداع هذا؟ هل هو وداع صوريّ؟ كلا؛ و إنما هو وداع مع عزيز عزّ فراقه؛ و مرتحل صعب ارتحاله و أوجع فقده و هو شهر زاخر بالرحمة، فمن كان من أهل المعنىٰ ازداد في هذا الشهر خيره و من كان من أهل المعاصي قلّت فيه ذنوبه.

و قد قال أعاظم فقهائنا أمثال المرحوم صاحب «جواهر الكلام» رحمه الله: «الصوم الذي هو من أشرف الطاعات و أفضل القربات، و لو لم يكن فيه إلا الارتقاء من حطيط النفس البهيمية إلىٰ ذروة الشبه بالملائكة الروحانية لكفىٰ به منقبة و فضلا»[1].

و قد أوصونا بالصيام بعد عيد الفطر و في الأيام الأولىٰ من شهر شوال لمدة ستة أيام توديعاً و مشايعة لشهر رمضان؛ لأنّ من يريد توديع صديق عزيز له فإنه سيشايعه خطوات قليلة.

قال الإمام السجاد عليه السلام: «و أوحشنا انصرافه عنّا»، و من هنا كان أولياء الله يشعرون بالغربة في نهاية شهر رمضان المبارك.

«و لزمنا له الذِمام المحفوظ و الحرمة المرعيّة و الحقّ المقضيّ. فنحن قائلون السلام عليك يا شهر الله الأكبر، و يا عيد أوليائه»، و هذا هو سلام توديع.

«السلام عليك يا أكرم مصحوب من الأوقات، و يا خير شهر في الأيام و الساعات». و قد كرّر الإمام السجاد عليه السلام السلام علىٰ هذا الشهر لعدة مرات. و لو كان شهر رمضان منقضياً زماناً عابراً عارياً من الباطن و السرّ و الحقيقة لترك الإمام السلام عليه. و إنّ هذه الأقوال المعرفية ليست ـ معاذ الله ـ نظير أشعار الشعراء

---

١. جواهر الكلام، ج١٦، ص١٨١؛ العروة الوثقىٰ، ج٢، ص٦٩، الفصل ١٥.

الخيالية حتیٰ تُحمل علیٰ الخطابات الخيالية كمخاطبة الجبال و الأطلال. و فحوىٰ كلام الإمام هو أنّ لدينا الكثير من الأصدقاء و الأصحاب و لكن لا يوجد صديق بعظمة هذا الشهر. ذلك الشهر الذي أيامه أفضل الأيام و لياليه أفضل الليالي.

رمضان و تعليم الدعاء

«السلام عليك من شهر قربت فيه الآمال، و نشرت فيه الأعمال»، فقد عرفنا فيه ماذا نريد و لذا لا يطول أملنا و هو شهر قربت فيه الآمال المشروعة.

و قد روي عن الإمام السجاد عليه السلام في الدعاء الوارد في أسحار شهر رمضان المبارك بأنّ الله يرزق من لم يعرفه و لم يعبده. و أنه يرزق حتیٰ الأفاعي و العقارب، فمن المؤسف أن يُلخّص الإنسان حاجاته بأسرها في محور المادة و الماديات. ثم إنّ الله يرزق جميع الكفار و المنافقين في العالم أيضاً، فهل من الحريّ أن يصبّ الإنسان جهده في طلب الطبيعة و الدنيا من الله؟ و من هنا قال الإمام: «السلام عليك من شهر قربت فيه الآمال و نشرت فيه الأعمال» فمن خلال هذا الدعاء عرفنا ماذا نطلب من الله و هو ما يبقیٰ لنا و لا يزول.

لمّا عزم المسلمون علیٰ الهجرة إلیٰ المدينة، منعهم كفار مكة من نقل أموالهم أو بيعها فنزلت الآية ﴿وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَ إِيّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

فهاجر المسلمون من مكة إلیٰ المدينة قائلين بأننا لا نحمل معنا أرزاقنا فإن إله مكة هو إله المدينة أيضاً، و من كان يرزقنا في مكة يرزقنا في المدينة كذلك. فقصدوا المدينة صفر اليدين و سُمّوا بالمهاجرين؛ فرزقهم الله أيضاً و أمّن احتياجاتهم. و ليس من كان دنيّاً يكون رغيد العيش و من كان عظيماً يكون منكّد العيش.

---

١ . سورة العنكبوت، الآية ٦٠.

و لذا قال بأننا عرفنا ماذا نطلب من الله في هذا الشهر و وقفنا أمـام آمالنـا و قمنـا بالعبادة.

الوداع من صفاء الباطن و النشاط

«السلام عليك من قرين جلّ قدره موجوداً، و أفجـع فقـده مفقـوداً، و مرجـوّ آلم فراقه».

فإنّ الشهر الذي ترسّخ في الروح إذا فارقها و انفصل عنهـا حـلّ الألم محلّـه؛ إذ لا يبقى أثر لصفاء الضمير و يزول ذلك النشاط الذي يحصل عليه المرء في شـهر رمـضان من التضحية و الإيثار في غيره. فلو طلب الإنـسان مـن الله في ضـيافته الغنـى، لم يعـد شيء يشغله و لا يخاف من أحد و لم يتقاعس عن بذل مهجته.

«السلام عليك من أليف آنس مقبلاً فسرّ و أوحـش منقـضياً فمـضّ»[1]. هـذا هـو كلام من أدرك باطن الصيام في هذا الشهر و باطن ليلة القدر.

القلوب الرقيقة و الأفكار الصافية

و قال أيضاً: «السلام عليك من مجاور رقّت فيه القلـوب و قلّـت فيـه الـذنوب»، السلام عليك أيها الجار العزيز الذي كنا نعيش بجوار رحمته، و على أثر حسن جـوارك رقّت قلوبنا و قلّت ذنوبنا. فإنّ اقتراف الأعمال المكروهـة و الـذنوب الـصغيرة تقطـع على الإنسان طريقه شيئاً فشيئاً.

إنّ للمناطق الريفية و الأراضي الخضرة و النـضرة ميـاه صـافية تـشقّ طريقهـا إذا نبعت من العين و لا تقطع الطريق على أحد و تـروي كـل شـجرة و نبتـة عطـشانة في طريقها. و هذه هي خصيصة الماء الصافي حيث يبحث عن العطشان و يجابه الـصخور

١. «مض» هو الألم الموجع. كالألم الذي يصيب الإنسان إثر الحديد المنصهر.

و يبذل قصارىٰ جهده للوصول إلىٰ العطاشىٰ و ريّهم.

و لكن إذا اختلط الماء بالأملاح و الرسوب تجده يتوقّف بمجرد نبوعه من العين و يؤول مصير تلك المزارع بعد بضع سنين إلىٰ تلّ من الأحجار و تيبس كلّ تلك الأراضي الخضرة و يتعذّر فيها النبت و الزرع.

و هذا هو حال الأفكار فإن كانت صافية نبعت من القلب و انتشرت عبر البيان و البنان و وصلت إلىٰ الأسماع و الأنظار و جرت في قلوب الآخرين. و لذا فإن أحد ألقاب العالِم هي «الماء المعين» الذي أطلق في الأصل علىٰ الإمام المهدي ﷺ[1].

فإنّ الله سبحانه و تعالىٰ يقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ﴾[2]، و الماء المعين هو الماء الجاري و المشهود، و يُطلق علىٰ العالِم لأنه يتدفّق كالعين الصافية. فالكلام الذي ينطق به و المسألة التي يُدوّنها إنما هي علم يترشّح من قلبه و يصل إلىٰ سمع امرء و نظره فيفهمه و ينقله إلىٰ آخر فيفهمه أيضاً و ينقله إلىٰ ثالث و هكذا يجري كالعين الصافية و يصل إلىٰ أهله.

و أما الأفكار و الخيالات الباطلة فهي تسدّ طريق القلب كتلك الترسّبات و الأملاح المعدنية فيقسو ذلك القلب و يتصلّب و يُطبع عليه شيئاً فشيئاً. و عندها لا يخرج منه شيء إلىٰ الآخرين و لا يلج فيه شيء منهم و لا يُؤثّر في الآخرين و لا يتأثّر منهم.

يقول الإمام السجاد عليه السلام أنه ترقّ في هذا الشهر القلوب و تقلّ فيه الذنوب.

شهر السيطرة على الشيطان

«السلام عليك من ناصر أعان علىٰ الشيطان و صاحب سهّل سُبُل الإحسان»،

---

١ . الكافي، ج١، ص٣٣٩، ح١٤.

٢ . سورة الملك، الآية ٣٠.

فإن الإنسان في هذا الشهر يتغلّب على الشيطان حقاً و لا يسمع وساوسه فهو يتغلب عليه إيجاباً حيث يطوي سبل الخير بجودة و سهولة، فضلاً عن النجاة فيه سلباً حيث يبتعد عن السيئات. فلو كان العمل الصالح في غير شهر رمضان أمر عسير فهو فيه يسير.

التحرّر من قيد الشهور و نيل السعادة

و قال أيضاً: «السلام عليك ما أكثر عتقاء الله فيك»، حيث فكّ الله فيه الأغلال عن أولئك الذين سقطوا في النار و ابتلوا بالرذائل الأخلاقية و هل توجد نعمة أعظم من الحرية.

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان صفات الإنسان المتديّن حيث قال: «و رفض الشهوات فصار حرّاً»[1]. فلا نعمة أفضل من الحرية و التحرر، بأن لا يكون الإنسان أسير شهوته و غضبه و عبد هواه و لا يسلّم زمام أموره بيد ميوله و أهوائه.

«و ما أسعد من رعى حُرمتك بك» و حفظ لسانه من الكلام الباطل و نفسه من الخيال و الذنب.

«السلام عليك ما كان أمحاك للذنوب و أسترك لأنواع العيوب»، فالمرحلة الأولى هي الستر و تليها المغفرة، و أنّ الله سبحانه يستر ليحفظ كرامة الإنسان ثم يعفو حيث إن الستارية تهيء المجال لمغفرة الغفار.

فعلى الإنسان أن يحفظ كرامة الآخرين ليحفظ الله كرامته أيضاً.

«السلام عليك ما كان أطولك على المجرمين»، حيث يمضي عليهم و كأنه عدة أشهر.

---

١. الأمالي للشيخ المفيد، ص٦٤، المجلس ٦، ح١٤.

«و أهيبك في صدور المؤمنين»، حيث يحـل في قلـوبهم بهيبـة و هيمنـة و جـلال و عظمة.

المنافسة مع سائر الشهور

و يقول في تتمة وداعه: «السلام عليك من شهر لا تنافسه الأيام»، فإنّ الإنسان إذا عدا و سابق، تتابع نفسه ليصل إلى المقصد. و قد قال الله سبحانه تنافسوا و تـسابقوا في ذكر الفضائل: ﴿وَ فِي ذٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1]، فعلـيكم بالمنافـسة للوصـول إلى ذلك المقام النفيس.

فقال إن هذا الشهر لا تنافسه الشهور و الأيام و الليالي و اللحظات، و هـو الرائـد المقدام و سائر الشهور على إثره.

فلا يتأتى للإنسان أن يقول بأني أسمع الكلام في هذا الشهر ثم أعمل بعـد ذلــك، فإن لم يعمل في هذا الشهر، لا يمكنه العمل بعده أيضاً لأن باقي الأوقات عـاجزة عـن منافسة شهر رمضان في اجتلاب التوفيق للإنسان و تأمينه.

التطهير و التغسيل لا التعب و النصب

«السلام عليك غير كريه المصاحبة و لا ذميم الملابـسة»، ففـي الفـترة التـي كنـت بضيافتنا أو كنا بخدمتك لم نشعر بعذاب و مشقة و لم نسأم مـن صـحبتك بـل سُررنـا بلقائك و وفدت علينا ضيفاً كريماً.

«السلام عليك كما وفدت علينا بالبركات و غسلت عنّا دنـس الخطيئـات»، فقـد طهّرتنا و وضعت عنا وزرنا و إن تلوّثنا بعدك فمن عند أنفسنا.

---

١. سورة المطففين، الآية ٢٦.

«السلام عليك غير مودّع برماً و لا متروك صيامه سأماً»، فإن الإنسان إذا استضاف ضيفاً لمدة مديدة سيشعر بالتعب؛ سوىٰ أن الإمام يقول بأننا لم نشعر بالتعب و النصب بعد الصيام و الضيافة الطويلة بل كان لنا مدعاة للسرور و الابتهاج.

الوداعات الأخيرة

«السلام عليك من مطلوب قبل وقته و محزون عليه قبل فوته، السلام عليك كم من سوء صُرف بك عنا و كم من خير أفيض بك علينا»، فقد كنا في الواقع نحن الضيوف الوافدون عليك و لست أنت الضيف الوافد علينا.

«السلام عليك و علىٰ ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر»، و هذا هو سلام توديع.

«السلام عليك ما كان أحرصنا بالأمس عليك و أشدّ شوقنا غداً إليك»، و مراسم التوديع هذه لم نقم بها من باب أداء الواجب فحسب.

«السلام عليك و علىٰ فضلك الذي حُرمناه و علىٰ ماض من بركاتك سُلبناه».

ثم يخاطب الإمام الله سبحانه قائلاً: «اللهم إنا أهل هذا الشهر الذي شرّفتنا به و وفّقتنا بمنّك له حين جهل الأشقياء وقته و حرموا لشقائهم فضله، أنت وليّ ما آثرتنا به من معرفته و هديتنا له من سنته، و قد تولينا بتوفيقك صيامه و قيامه علىٰ تقصير و أدينا فيه قليلاً من كثير، اللهم فلك الحمد إقراراً بالإساءة و اعترافاً بالإضاعة و لك من قلوبنا عقد الندم و من ألسنتنا صدق الاعتذار، فأجرنا علىٰ ما أصابنا فيه من التفريط أجراً نستدرك به الفضل المرغوب فيه و نعتاض به من أنواع الذخر المحروص عليه، و أوجب لنا عذرك علىٰ ما قصّرنا فيه من حقّك».

فقد قال الله سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[1].

---

١. سورة الأنعام، الآية ٥٤.



«و أبلغ بأعمارنا ما بين أيدينا من شهر رمضان المقبل فإذا بلّغتناه فأعنّا على تناول ما أنت أهله من العبادة و أدّنا إلى القيام بما تستحقه من الطاعة، و أجر لنا من صالح العمل ما يكون دركاً لحقّك في الشهرين من شهور الدهر... و اجبر مصيبتنا بشهرنا و بارك لنا في يوم عيدنا و فطرنا... اللهم و من رعى حق هذا الشهر حق رعايته و حفظ حرمته حق حفظها و قام بحدوده حق قيامها و اتّقى ذنوبه حق تقاتها أو تقرّب إليك بقربة أوجبت رضاك له و عطفت برحمتك عليه فهب لنا مثله من وجدك و إحسانك و أعطنا أضعافه من فضلك فإن فضلك لا يغيض و إن خزائنك لا تنقص بل تفيض... و اكتب لنا مثل أجور من صامه أو تعبد لك فيه إلى يوم القيامة».

* * *

القسم السادس:

الاعتكاف و حكمته

من شؤون العبادة

إنّ لعبادة الله تقدّست أسماؤه شؤون. فتارة تتجلىٰ علىٰ صورة فكر و ذكر و شكر و تارة علىٰ صورة حركة و أخرىٰ علىٰ صورة سكون لانتظار ما يأمر به المعبود و ما يأتي به رسوله ﷺ.

فما كان منها علىٰ صورة فكر و ذكر و شكر وردت فيه آيات و روايات كثيرة و لا حاجة لشرحها، و ما كان منها علىٰ صورة حركة كالطواف حول الكعبة و السعي بين الصفا و المروة و الهرولة الواردة فيها فهي بنفسها عبادة و لابد من أدائها بقصد القربة، و ما كان منها علىٰ صورة توقّف فهي نظير الوقوف في عرفات و المشعر و منىٰ علماً بأن الوقوف هناك لا يعني السكون و لكن لا تجب الحركة فيه بل إن مجرد المكوث في عرفات و المشعر و منىٰ واجب مع تلك الآداب و السنن الخاصة.

فقد يأمر المعبود بالحركة و الهرولة كالسعي بين الصفا و المروة أو بالطواف حول بيته كما في الحج و العمرة، و قد يعتبر الوقوف و العكوف و الإقبال مع التعظيم و التكريم في بيته واجباً أو مستحباً كالاعتكاف.

فالعكوف هو الإقبال على الشيء و التوجه إليه مع تعظيم و تكريم[١]. فالاعتكاف في المسجد ضرب من العبادة التي لا يُشترط فيها الحركة و لا يُعتبر فيها السكون كذلك كالوقوف في عرفات و المشعر و منىٰ.

أبرز مصداق للعبادة

يكفي في فضل الاعتكاف أنه جُعل عدلاً لطواف بيت الله و قسيماً و مثيلاً للركوع و السجود.

و قد أُمر نبيّين من أنبياء الله العظام أن يطهّرا الكعبة و حريمها من لوث وجود الوثنية و الثنوية ليقوم العابدون في هذا المطاف و إلى جانب القبلة و حرم الله جلت عظمته بالطواف و الاعتكاف و الركوع و السجود.

حيث يقول الله تعالى ذكره في هذا الشأن: **﴿وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**[٢].

و يظهر من عدّ الاعتكاف عدلاً للطواف و الركوع و السجود أنه من أبرز مصاديق عبادة الله سبحانه و تعالى.

مسألتان مهمتان في الاعتكاف

إنّ ما يضفي في أهمية الاعتكاف و فضله مسألتان إحداهما مهمة و الأخرى أهم؛

---

١. «عكفه أي حبسه و وقفه ... و منه الاعتكاف في المسجد، و هو الاحتباس و عَكَفَ على الشيء يعكُفُ و يعكِفُ عكوفاً، أي أقبل عليه مواظباً» (الصحاح للجوهري، ج٣، ص١٤٠٦). «العكوف الإقبال على الشيء و ملازمته على سبيل التعظيم له، و الاعتكاف في الشرع هو الاحتباس في المسجد على سبيل القربة» (مفردات الراغب، ص٣٥٥) مادة «عكف».

٢. سورة البقرة، الآية ١٢٥.



فالمهمة أنّ الاعتكاف ليس كالصلاة حتىٰ يمكن الإتيان به في أيّ مكان، إذ أنّ الصلاة بالاستناد إلىٰ «جُعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً»[1] يمكن أداؤها في كلّ مكان، بخلاف الاعتكاف فإنه لابد أن يكون في المسجد و بيت الله، و لا يصح في كلّ مسجد بل لابد أن يكون في المسجد الجامع أو المسجد الحرام و مسجد النبي ﷺ أو المسجد الذي أقام فيه معصوم أو إمام عادل و إن كان غير معصوم صلاة الجمعة أو الجماعة.

إذن فالاعتكاف لابد و أن يقام في مسجد يصلي فيه جماعة المسلمين، و هو المسجد الجامع و المسجد الذي يعدّ في المدينة من أكبر المساجد و الذي تقام فيه الجماعات الرسمية. فالمسجدية ميزة بحدّ ذاتها و إقامة صلاة الجمعة أو الجماعة فيه ميزة أخرىٰ، و لا يصح انعقاد الاعتكاف في المسجد المتروك و المهجور. و من خصّ الاعتكاف بالمسجد الحرام و مسجد النبي ﷺ أو المساجد الأربعة لابد من حمل كلامه علىٰ الأفضلية لا علىٰ التعيّن.

و المسألة الأهم أنّ الصوم الذي هو من أركان الدين المهمة و ركائز الإسلام الأصيلة حيث: «بني الإسلام علىٰ خمس: علىٰ الصلاة و الزكاة و الصوم و الحجّ و الولاية»[2]، يعتبر من شرائط الاعتكاف، و أنّ قيمة الاعتكاف بحدّ يعدّ أحد أبرز أركان الدين من شروطه! و كما أن الصلاة لا تتحقق من دون طهارة «لا صلاة إلا بطهور»[3]، لا يصح الاعتكاف أيضاً من دون صوم «لا اعتكاف إلا بصوم»[4]، و هذه هي من غرر كلمات الأئمة الأطهار عليهم السلام.

---

١ . وسائل الشيعة، ج٣، ص٤٢٢، ح٢.

٢ . الكافي، ج٢، ص١٨.

٣ . وسائل الشيعة، ج٧، ص٣١٩، ح٢.

٤ . الكافي، ج٤، ص١٧٦.

الاعتكاف الباطل

يعتبر الاعتكاف من أجلّ مقامات العبودية و الرقية لله سبحانه و تعالى. و هناك من يقوم بنفس هذا العكوف و الإقبال و التعظيم أمام الأوثان و الأصنام كالسامريّ الذي عكف أمام عجله، و قد ختم الله على كل أصناف الاعتكاف و العبودية المزيّفة بالبطلان.

و نقل سبحانه و تعالى الكلام الباطل و الزائف لعبّاد الأصنام و الثنوية قائلاً: ﴿فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1].

و يقول في مكان آخر نقلاً عن النبي موسى عليه‌السلام حول السامريّ: ﴿وَ انْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾[2].

و العكوف في هذه الآية هو الإقبال و التعظيم و التوجّه و الخضوع و صار مرفوضاً و مذموماً لأنه كان أمام الباطل.

و قد نهى أنبياء الله العظام و منهم إبراهيم الخليل عليه‌السلام الناس عن الخضوع و العكوف و التذلل للأصنام حيث نقرأ في القرآن المجيد مقولة النبي إبراهيم مخاطباً عمه و قومه: ﴿ما هذِهِ التَّماثيلُ الَّتي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ﴾[3].

فإن مثل هذا العكوف بكل أنواعه باطل و محرّم؛ بيد أنّ العكوف و الاعتكاف لله وحده و بآدابه و سننه الخاصة صحيح و مشروع و بنّاء.

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٣٨.

٢. سورة طه، الآية ٩٧.

٣. سورة الأنبياء، الآية ٥٢.



الاعتكاف عبادة مستقلة

إنّ للمرحوم المقدس الأردبيلي الذي استطاع في مقام العلم أن يكون محقّقاً و في مقام العمل أن يكون منزّهاً و مقدّساً بيان بليغ في باب الاعتكاف حيث يشير إلى أنه لا يزعم البعض أنّ الاعتكاف مقدمة لعبادة أخرىٰ، فالدخول إلى المسجد بطهارة و الصوم و قصد الاعتكاف قربة إلى الله عبادة بحدّ ذاتها؛ لا أن يكون الاعتكاف شرطاً و مقدمة لعبادة أخرىٰ و إنما هو عبادة مستقلة كما هو الحال في الحج و العمرة و الصوم و الصلاة[1].

اعتكاف الصالحين

يظهر مما قيل من أن الصوم بكل ما له من فضل شرط للاعتكاف، أنّ الإنسان المعتكف قد عكف علىٰ الله جلت عظمته و توجّه إليه و ابتعد عما سواه.

و لو عكف المعتكف علىٰ الله الذي ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[2]، فإنه سوف لا يضاهي اعتكافه أيّ عكوف؛ لأن قيمة أي اعتكاف و مرتبته منوطة بقيمة المبدأ الذي تم الاعتكاف في محضره و له، و معنىٰ هذا أن أيّ اعتكاف لا يضاهي و لا يكافئ اعتكاف عباد الله الصالحين.

و بما أن للاعتكاف عند الله سبحانه حرمة و منزلة، فقد كان الرسول الأكرم ﷺ ذلك الإنسان الكامل يعتكف في المسجد في كثير من الأوقات و لاسيما في شهر رمضان و بالأخص في العشرة الثالثة منه.

و قد ورد في هذا الشأن عن العترة الطاهرة عليهم السلام بأنّ أقل مدة للاعتكاف هي ثلاثة

---

١ . مجمع الفائدة و البرهان، ج٥، باب الاعتكاف، ص٣٥١.

٢ . سورة الإخلاص، الآية ٤.

أيام[1]. و هذه النظرية بعيدة عن تفريط ساعة واحدة و لا إفراط عشرة أيام.

الاعتكاف و قضاء حاجة المؤمن

صحيح أنه لا يصح للمعتكف الخروج من المسجد و لكن يمكنه الخروج للمشاركة في صلاة الجمعة أو لإنجاز الأعمال الضرورية، و بما أنه مأذون بالخروج من المسجد لحلّ مشكلة مسلم واحد و عدّ ذلك بمثابة الاعتكاف، فكذلك للمعتكف أن يخرج من المسجد في حال الاعتكاف لحلّ مشاكل النظام الإسلامي أو قضاء حاجة المحتاجين في المجتمع الإسلامي و ذلك لأهمية هذه المسألة ثم يعود إلى مكانه و هي تعتبر تتمة لهذه العبادة لا غريبة و منفصلة عنها؛ لأنّ قيمة الاعتكاف بكونه عبادة كما هو الحال في الوقوف بمنى و المشعر و عرفة.

فقد روي عن إبراهيم بن ميمون أنه قال: كنت جالساً عند الحسن بن علي عليهما السلام و كان معتكفاً فأتاه رجل فقال له: يا ابن رسول الله صلى الله عليه و آله، إن فلاناً له عليّ مال يريد أن يحبسني فقال: «و الله ما عندي مال فأقضي عنك»، فقال: فكلّمه، و لبس نعله فقلت له: يا ابن رسول الله صلى الله عليه و آله، أنسيت اعتكافك؟ فقال: «لم أنس و لكني سمعت أبي يحدّث عن جدي رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: من سعى في حاجة أخيه المسلم فكأنما عبد الله تسعة آلاف سنة صائماً نهاره و قائماً ليله»[2].

و روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من سعى في حاجة أخيه المسلم فاجتهد فأجرى الله على يده قضاها كتب الله عزّ و جلّ له حجة و عمرة و اعتكاف شهرين في المسجد الحرام و صيامهما»[3].

---

١. وسائل الشيعة، ج١٠، ص٥٤٣.

٢. وسائل الشيعة، ج١٠، ص٥٥٠، ح٤.

٣. وسائل الشيعة، ج١٠، ص٥٥٥، ح١.



الدعاء و المناجاة في حال الاعتكاف

إنّ للاعتكاف في أيام البيض (١٣ و ١٤ و ١٥) من شهر رجب فضل خاص، لأنّ شهر رجب شهر الولاية و شهر أولياء الله، و الاعتكاف في هذه الأيام مقترن بالزمن الذي يُستجاب فيه الدعاء، فمن الواضح أن له في مثل هذه الفترة فيض خاص. فإنّ الدعاء عبادة في كلّ حال و لاسيما إذا اقترن بالاعتكاف.

و إنّ الصائم الذي يتجنّب اللذائذ الجنسية المحللة استناداً إلى الآية الشريفة ﴿وَ لا تُبَاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ﴾[1]، فهو يُعرض عن المحرمات قطعاً. فمن لم يعمد إلى إرضاء غرائزه عبر أيّ طريق و إن كان حلالاً، سيصل إلى صفاء الضمير و طهارة الروح يقيناً. و عندئذ يستطيع بصفاء ضميره و طهارة روحه أن يناجي الله جلت عظمته، لأنه مصلّ و صائم و معتكف في المسجد و في بيت من لا يردّ ضيفه خائباً، و لذا فإن دعاء العبد الصائم و المصلي و المعتكف مستجاب لا محالة.

ثم إنّ الله قريب من الجميع و لكنه من الصائمين و الداعين و المصلّين و الضيوف الوافدين عليه المتّسمين بضيوف الرحمان أقرب. إذن فالإنسان المعتكف قريب من الله من جهات عدة، لأنّ صيامه سبب لقربه حيث قام به قربة إلى الله، و صلاته مدعاة لقربه لأنّ «الصلاة قربان كلّ تقيّ»[2]، و حضوره في المسجد باعث على تقرّبه لأنه في بيت من لا يردّ عباده الصائمين الصالحين، و الاعتكاف أيضاً بحدّ ذاته أداة لتقرّبه.

فإنّ الله سبحانه و تعالى لا يردّ المعتكفين في روضة قدسه و ساحة جلاله و جبروته خائبين، إضافة إلا أنّ المعتكف إذا اشتغل بالدعاء يعدّ من هذه الجهة أيضاً سبباً لقربه من الله تعالى، فهو يملك هذه العناصر المحورية الخمسة (الصلاة و الصوم و الدعاء و الحضور في المسجد و الاعتكاف) و من خلالها يتوافر له أفضل حال للدعاء.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٨٧.

٢. نهج البلاغة، الحكمة ١٣٦.

و حريّ بالمعتكف في مثل هذا الحال أن يطلب من الله تقدّست أسماؤه أولاً ظهور وليه بقية الله ﷺ، ثم بقاء الثورة و استدامتها و صيانة قائد الثورة الإسلامية و عظمته و بقاء الحوزة و دوامها و تكاملها و تعاليها الروحي و صيانة مراجع التقليد و عظمتهم و صيانة الأمة الإسلامية و عظمتها و نجاة المسلمين المستضعفين في شرق العالم و غربه.

لأنّ استجابة الأدعية الجزئية لا تتطلّب الكثير من الشروط و يمكن القيام بها في كلّ وقت، و لذا فهي تُستجاب في كثير من المواطن. و أما الأدعية الكلية فهي لا تُستجاب على الدوام؛ لأن استجابتها منوطة بتوفّر العديد من الشرائط. فإنّ الأدعية الكلية و الواسعة تنبع من روح واسعة، و هي التي وصلت إلى عرش الله بل اجتازته، فإنّ «قلب المؤمن عرش الرحمن»[١]، و قلب وليّ الله كرسيّ الله. و إن قامت هذه القلوب بالدعاء ستستجاب على اليقين؛ لأنّ العناصر الخمس المذكورة تهيء جيداً أرضية استجابة الدعاء.

و نحن نقترح أن تشارك الأخوات المكرّمات أيضاً في الاعتكاف؛ لأنّ فضل الاعتكاف يختص بالإنسان لا بالمذكّر أو المؤنّث. فإنّ الذكورة و الأنوثة صفة البدن لا صفة الروح و الاعتكاف متعلق بروح الإنسان.

و على الأخوات و الإخوة أن يكون لهم دعاء كلي و واسع و جامع في محضر الله سبحانه و تعالى، لإنقاذ العالم الإسلامي بأسره من خطر المستكبرين و غيرهم. فيتخلّص النظام الإسلامي من شرّ المستكبرين و تنجو الشعوب الإسلامية من سيطرة الظالمين.

فإنّ النظام الإسلامي و المراجع العظام و الأساتذة و العلماء الكرام يؤيّدون

---

١. بحار الأنوار، ج٥٥، ص٣٩.

الاعتكاف، و الطلاب الأفاضل يساندون الاعتكاف و يُكرمونه، و طبقات المجتمع من طلبة العلوم الدينية و غيرهم جالسون على مائدة الاعتكاف، فحقيق بنا أن نستفيض بالكامل من هذا الفيض و الفوز الإلهي و لا نفكّر بأنفسنا و أقربائنا فحسب بل نفكّر بالإسلام و المسلمين و ندعو للجميع.

على أمل أن يكون العالم بأسره معتكفاً في محضر القرآن و العترة و ذات الله القدسية.

* * *

القسم السابع:

تلاوة القرآن و حكمتها

مع القرآن

إن لتلاوة كتاب الله أحكام و آداب منها كيفية أداء الحروف من مخارجها و منها مراعاة الوقف و الوصل.

و أما حكمة تلاوة القرآن هي أن تؤدي كيفية التلاوة إلى مشاهدة المعبود، و المرحلة النازلة لذلك هي أن لا يستقر في ضمير العبد و قلبه سوى محبة المعبود. و قد توافرت للإنسان بسهولة معرفة أن هل يوجد في قلبه شيء سوى الله أم لا؟

قال الإمام السجاد عليه السلام: «لو مات من بين المشرق و المغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي»[1]، و معنى ذلك أن العالم بأسره لو أصبح كافراً و كان القرآن معي لما استوحشت. لأن الموت في الواقع هو موت الروح و الإنسان الكافر ميت حقاً، و الأحياء في الرؤية القرآنية هم الذين آمنوا بدين الله: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾[2].

---

١ . الكافي، ج٢، ص٦٠٢.

٢ . سورة يس، الآية ٧٠.

فالإمام يقول بأن الناس لو اعتنقوا الكفر بـأجمعهم لما أضرّنا ذلك و لما أصابنا الخوف، لأن الإنسان لا يفقد شيئاً لا يمكن تداركه في حربه مع الكافر سوى أن يعرج من عالم محدود إلى عالم خالد و لا ضير في ذلك؛ و من لا يرهب الانتقال من عالم الطبيعة إلى ما ورائها، لا يتغلغل الخوف في قلبه من الكفر العالمي.

إذن فحكمة العبادة أن يشاهد العابد المعبود في ضميره و لا يستحيل طيّ هذا الطريق بل أنّ له شرائط و آداب و أحكام. و للوصول إلى شهود المعبود علينا أن نبذل قصارى جهدنا لمراقبة أنظارنا و أسماعنا و مراقبة أنفسنا بأن لا نقوم إلا بواجبنا الشرعي و أن لا نلوّث الوسط الذي نعيش فيه من عملنا و بيتنا بالغفلة عن الله.

و تلاوة القرآن أيضاً عبادة و لا يصل قارئ القرآن إلى حكمة تلاوته إلا إذا شاهد صاحب هذه الكلمات بعين قلبه.

ضياء البيت

ينقل المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين الجبل عاملي ﷺ في ترجمة بعض الصحابة و الأعلام من أهل العلم و الدين و السير و السلوك أنهم كانوا يقسّمون برامجهم في البيت، و كان أفراد العائلة في اليوم و الليلة يسعون في أن يبقى البيت مضيئاً، حيث لا تنام العائلة جميعاً بعد تناول الغذاء من المساء و حتى الصباح بل كانوا يتناوبون في الحراسة، فيحيي أحدهم شطراً من الليل بالعبادة و الدرس و البحث و التلاوة و الدعاء و ينام الآخر، ثم يقوم هذا و يشتغل بالعبادة و ينام الأول، و بتبعه الثالث يقوم و يتصدى للعبادة، بحيث أنه لا يُذكر في هذا البيت سوى اسم الله.

فإنه قد يترعرع في عائلة عَلَم كالشيخ الأنصاري أو يتربّى إنسان كامل كبحر العلوم و هو حصيلة ما تجشّمه آباؤهم و أجدادهم من عناء لسنوات مديدة، لأنّ الله سبحانه لا يهب لعائلة فرداً متميزاً من دون سبب. فإنهم كانوا يسعون في أن يبقى

البيت مضيئاً على الدوام و لا يُفعل فيه ما لا يرضي الله عز و جل، حتى يتبدّل شيئاً فشيئاً إلى مركز من نور و بالتالي ينير مدينة بأكملها.

و إنّ البيت الذي يُقرأ فيه القرآن و الدين هو الحاكم فيه، يضيء للملائكة كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض[1]. و كما أن الإنسان إذا أجال ببصره في أرض مستوية، رأى بعض مواضعها مظلمة و بعضها الآخر مضيئة، كذلك فإنّ البيت الذي يُقرأ فيه القرآن و الدين هو الحاكم فيه، فإنه يضيء لأهل السماء.

و قد روي عن الإمام الصادق عليه السلام لما سُئل عن فاطمة لم سميت زهراء؟ أنه قال: «لأنها كانت إذا قامت في محرابها زهر نورها لأهل السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض»[2]. و هكذا شأن الإنسان الكامل حيث يضيء لأهل السماء.

ظلمة غير المؤمن

هناك آيتان في القرآن الكريم تشير إحداهما إلى أن الملائكة و حملة العرش يستغفرون للمؤمنين و الثانية إلى أن ملائكة الله يستغفرون لأهل الأرض: حيث قال سبحانه في الأولى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[3]، و قال في الثانية: ﴿وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[4].

و قالوا: بأن الجمع بين هاتين الآيتين هو أن المراد بالذين آمنوا و بأهل الأرض

---

١. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... فإنّ البيت إذا كثر فيه تلاوة القرآن كثر خيره و اتّسع أهله و أضاء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الدنيا» (الكافي، ج٢، ٦١٠).

٢. بحار الأنوار، ج٤٣، ص١٢، ح٦.

٣. سورة المؤمن، الآية ٧.

٤. سورة الشورى، الآية ٥.

الذين تستغفر لهم الملائكة هم المؤمنون؛ فأنّ الملائكة لا يرون غير المؤمنين لأنهم مظلمون. و إن البيت الذي يراه الملائكة يستغفرون لأهله و لا يرى الملائكة إلا البيت المنير و هو الذي يكون الدين حاكماً فيه، و أما الكافر فهو مظلم و لا يراه الملائكة بل و لا ينظر إليه الله في يوم القيامة ﴿وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾[1]، ﴿وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾[2].

فإن استطاع الإنسان أن ينير بيته و محل عمله و بيئته هكذا، تيسّر له شيئاً فشيئاً الوصول إلى المقام السامي. و إن كان ذلك أمر عسير في بادئ الأمر، و لكنه يعرف بعد ذلك بأن الكلام الباطل يؤلمه شيئاً فشيئاً. فإنّ الإنسان قد يتحدّث بين جمع عن المسائل العقلية و المعارف فتتلبّد وجوههم لأنها مرّة في مذاقهم و لكنه يلتذّ بهذه الكلمات و يتأذّى إذا جلس في مجلس ليس فيه إلا القيل و القال و اللهو و اللعب. فإن استطاع الإنسان أن يربّي نفسه حيث أراد، فلِمَ لا يُربّيها بالطريق الصحيح؟ و لِمَ لا يُروّض نفسه على الأعمال الصالحة؟

إذن فالذي يصل إلى باطن القرآن و يتلوه بشكل جيد يستنير بيته.

و قد روي أن عزرائيل عليه السلام يتصفّح البيوت في كلّ يوم خمس مرات، و قال النبي صلى الله عليه و آله: «إنما يتصفّحهم في مواقيت الصلاة، فإن كان ممن يواظب عليها عند مواقيتها لقّنه شهادة أن لا إله إلا الله و أنّ محمداً رسول الله»[3].

و قال صلى الله عليه و آله أيضاً في هذا الشأن: «نوّروا بيوتكم بتلاوة القرآن و لا تتّخذوها قبوراً كما فعلت اليهود و النصارى، صلّوا في الكنائس و البيع و عطّلوا بيوتهم»[4]، فلو اجتمع

---

۱. سورة البقرة، الآية ۱۷٤.

۲. سورة آل عمران، الآية ۷۷.

۳. الكافي، ج۳، ص۱۳٦.

٤. الكافي، ج۲، ص٦۱۰.

جمع في بيت لم تظهر منهم آثار علمية و لا خدمة للإسلام و المسلمين، فهو ليس ببيت بل مقبرة عائلية يسكن فيها عدد من الأموات. فالبيت الذي لا يترك أثراً يتبدّل إلى مقبرة عائلية. فاجعلوا من بيوتكم مصدراً لإنارة المجتمع و لا تكونوا كاليهود و النصارىٰ الذين تركوا العبادة في بيوتهم و لخّصوها في الكنائس و في وقت معين؛ بل عليكم بأداء العبادات العامة في المسجد و العبادات الخاصة في البيت.

و لابد من الحفاظ علىٰ المراكز الدينية و المساجد و صلاة الجمعة و الجماعة و لا ينبغي أن يحرم الإنسان نفسه من هذا الفيض العظيم. فقد ورد عن علي عليه السلام أنه قال: «الشاذّ من الناس للشيطان كما أن الشاذّ من الغنم للذئب»[1].

و روي أنّ رجلاً أعمىٰ أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله، إني ضرير البصر و ربّما أسمع النداء و لا أجد من يقودني إلى الجماعة و الصلاة معك، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «شُدّ من منزلك إلى المسجد حبلاً و احضر الجماعة»[2]، حيث أمره أن يحضر المسجد بأيّة وسيلة كانت فإنّ الابتعاد عن الأمة الإسلامية و جماعة المسلمين أمر خطير و الدخول في صفوفهم تتبعه بركات عديدة.

تجلي الله سبحانه

لو أردنا أن نعرف هل أننا وصلنا إلىٰ حكمة تلاوة القرآن أم لا؟ علينا أن نرىٰ هل أننا نشاهد المتكلّم في كلامه أم لا؟ فإنّ العابد لا يصل إلى حكمة العبادة إلا إذا كان لا يرىٰ سوىٰ الله و لهذا المقام أركان، أهمها أن لا يُحبّ الإنسان سوىٰ الله، فمن أعرض عن غير الله و لم يُسكن في قلبه سواه لا يصيبه القلق و الاضطراب لأنّ الفاني لا يطلبه و ما يطلبه لا يفنىٰ و لذا فإنّ العارف لا غمّ فيه و لا همّ يعتريه.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

٢. وسائل الشيعة، ج٨، ص٢٩٣.

يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «ماذا وجد من فقدك، و ما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلاً».

إنّ الإنسان قد يأسىٰ علىٰ ما مضىٰ و يقلق علىٰ ما سيأتي؛ يأسىٰ علىٰ ما فاته في الماضي و يقلق علىٰ ما قد لا يحصل عليه في المستقبل. و أما إذا نجا من الماضي و المستقبل و فاق الزمان و وطأ ما مضىٰ و ما سيأتي، لا يأسىٰ علىٰ ما فاته و لا يفرح بما أتاه فهو علىٰ حدّ قول علي عليه السلام قد ملك الزهد كله[1].

و قد ورد في حالات الإمام السجاد عليه السلام أنه: كان إذا قرأ ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يُكرّرها حتىٰ كاد أن يموت[2].

و إنّ واحدة من آداب تلاوة القرآن هو أنّ الإنسان إذا مرّ بقوله ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا﴾ قال لبّيك[3]. أي أنه خطاب حاليّ و أن الله يخاطبنا الآن أيضاً. فإنّ لبيك هو قول الإنسان للمنادي و يظهر من ذلك أنّ هذا الخطاب كلام الله في هذا الوقت أيضاً و قد تجلىٰ الله في كلامه هذا و إنّ ما يقرؤه الإنسان هو كلام الله الذي يُسمع من هذا اللسان و من هذا الفم.

و كما أنّ يد المؤمن يد الله، فإنّ كلام المؤمن كلام الله أيضاً شريطة أن لا يقول إلا الحق و لا يطلب إلا الحق، و لذا قال الله في كتابه: ﴿وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[4] أي إذا أراد الكافر أن يسمع آيات الله فأجره.

و قد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «فتجلّىٰ لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه»[5] علماً بأنهم يتأملون و يقرؤون القرآن.

---

١ . «الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن، قال الله سبحانه ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾» سورة الحديد، الآية ٢٣. (نهج البلاغة، الحكمة ٤٣٩).

٢ . الكافي، ج٢، ص٦٠٢.

٣ . المحجة البيضاء، ج٢، ص٢٢٨.

٤ . سورة التوبة، الآية ٦.

٥ . نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧.

معنى تجلّي القرآن

إنّ من أفضل المفاهيم و أدقّها في الثقافة الإسلامية هو مفهوم التجلي. و المراد به في الآيات و الروايات هو أنّ الله سبحانه يُنزّل حقيقة من عالم الغيب و يبيّنها لنا.

و التجليّ غير التجافي. فإنّ القرآن نزل في شهر رمضان و لكن ليس كما ينزل المطر من السماء، لأنّ نزول المطر على نحو التجافي. أي أنه حين كان في السماء لم يكن في الأرض و حين نزل إلى الأرض لم يبقَ في السماء و لكن إذا قال الله سبحانه: **﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ﴾**، فإنّ نزول القرآن ليس كهطول المطر بأن لا يكون عندنا إذا كان عند الله و لم يبقَ عند الله إذا نزل إلينا.

و إنّ معنى قوله **﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾**[1] و كذا **﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ﴾**[2]، هو أنّ القرآن تنزّل في هذا الشهر و لم ينزل، أي أنّ هذه الحقيقة التي كانت و لا تزال و ستكون دوماً عند الله، ترقّقت و تنزّلت و ظهرت على شكل ألفاظ ليستطيع الإنسان أن يقولها و يسمعها و يكتبها و يقرأها.

كما أنّ المجتهد الفقيه أو الحكيم الإلهي يُبلور في عقله مسألة نقلية أو عقلية من المعارف الإسلامية العالية ثم ينزّلها ليستفيد منها الآخرين أيضاً على نحو ألفاظ أو خطوط في الكتاب أو أمواج في الكلام أو يُبدّلها إلى أثر مكتوب، و لكن لا يعني ذلك أن لا يبقى لها أثر في عقله و فكره. و كذلك الحال في البحوث الفقهية حيث يُظهرها الفقيه على نحو مسائل مبسطة يفهمها الجميع و ذلك مع بقاء ملكة الاجتهاد فيه، لأنه لم يُنزل ملكة الاجتهاد و إنما نزّل تلك الحقيقة و على أساسها وضع بين يدي الآخرين ألفاظاً و معاني و مفاهيم.

---

١ . سورة القدر، الآية ١.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٨٥.

تجلي ملك الموت

تعتبر الصحيفة السجادية للإمام السجاد عليه السلام من الكتب القيمة لدى الإمامية و تُعدّ في عداد القرآن الكريم و نهج البلاغة. و قد تحدّث فيها الإمام السجاد عليه السلام في دعاء ختم القرآن الذي يُقرأ بعد الفراغ من تلاوته عن عظمة القرآن و بركاته للقارئ إلى أن يقول مخاطباً الله سبحانه: «و تجلى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب و رماها عن قوس المنايا بأسهم وحشة الفراق»[1] عسى أن يرحمنا في ذلك اليوم. حيث عبّر عن نزول عزرائيل عليه السلام بالتجلي و أنّ ملك الموت يتجلى للمحتضر. كما ورد اصطلاح التجلي في القرآن في قضية موسى الكليم عليه السلام أيضاً: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾[2].

فضل حَمَلة القرآن

هناك كتاب مشتمل على عدة أبواب في جوامعنا الروائية حول تلاوة القرآن و عظمة شأنه. و قد أفرد المرحوم الكليني رحمه الله في الكافي كتاباً باسم «فضل القرآن»[3] و باباً باسم «فضل حامل القرآن»[4]، حيث يُستفاد من بعض الأخبار فيه أن حامل القرآن يُحشر مع الملائكة، و لا يكون كاليهود الذين حُمّلوا التوراة و لكنهم لم يحملوها. فقد قال القرآن فيهم: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً**﴾[5]. و قد تحدّث في عدة مواضع من هذه السورة عن خطر اليهودية محذراً

---

١ . الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٢.

٢ . سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

٣ . الكافي، ج٢، ص٥٩٦.

٤ . الكافي، ج٢، ص٦٠٣.

٥ . سورة الجمعة، الآية ٥.

رواجها بين المسلمين، حيث قال: لا تفعلوا بالقرآن كما فعل اليهود بتوراتهم حيث حمّلناها عليهم فلم يحملوها و أعطيناها إياهم فلم يأخذوها.

فإنّ الفضل لمن حَمَل القرآن و فهم معانيه و عمل بأحكامه و تأدّب بآدابه ثم أدرك حكمته، فمن انتهج مع القرآن هذا المنهج يعتبر حاملاً له.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «الحافظ للقرآن العامل به مع السَفَرة الكرام البَرَرة»[1] أي يحشر معهم.

و ما ذُكر في عظمة القرآن يدلّ على أن باطن القرآن أعلى شأناً يوم القيامة من المسلمين و الأنبياء و الملائكة حيث ورد في الخبر: «يجيء القرآن يوم القيامة في أحسن منظور إليه صورة فيمرّ بالمسلمين فيقولون: هذا الرّجل منّا، فيجاوزهم إلى النبيّين فيقولون: هو منّا، فيجاوزهم إلى الملائكة المقرّبين فيقولون: هو منّا حتّى ينتهي إلى ربّ العزّة عزّ و جلّ...»[2].

و السرّ في قوله «الحافظ للقرآن العامل به مع السَفَرة الكرام البَرَرة»، هو أنّ الوحي ينزل عن طريق الملائكة: ﴿بِأَيْدي سَفَرَةٍ * كِرامٍ بَرَرَةٍ﴾[3].

و روي عن الإمام الصادق عليه السلام نقلاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «حَمَلَة القرآن عرفاء أهل الجنة»[4].

تعليم القرآن و تعلّمه

من شقّ عليه تعلّم القرآن و تحمّل هذه المشقة فله أجران، و من سهل عليه حفظه

---

١. الكافي، ج٢، ص٦٠٣، ح٢.

٢. الكافي، ج٢، ص٦٠١، ح١.

٣. سورة عبس، الآية ١٥ - ١٦.

٤. الكافي، ج٢، ص٦٠٦، ح١١.

و تعلّمه فله أجر واحد. يقول الإمام الصادق عليه السلام كما في النقل: «إن الذي يُعالج القرآن و يحفظه بمشقة منه و قلّة حفظ له أجران»[١].

و قال في موضع آخر: «ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتىٰ يتعلّم القرآن أو يكون في تعليمه»[٢].

فكما أنّ للمقاتل في ساحة المعركة ثلاث حالات، للمبارز في الجهاد مع الجهل و سائر الرذائل النفسانية أيضاً ثلاث حالات: لأنه في ساحة المعركة إما أن يُهزم، سواء يفّر أو يؤسر؛ أو ينتصر؛ أو أنه يُستشهد في وسط المعركة.

و كذلك الإنسان في الجهاد مع الجهل و العدوّ الباطني أيضاً لا يخرج عن إحدىٰ هذه الحالات الثلاث: إما أسير أو شهيد أو فاتح. فمن خضع للأميال و الرذائل النفسانية فهو أسير هواه. و من قال: أنا أفعل كل ما يشتهيه قلبي؛ فقد هزم في ساحة المعركة ضدّ الكفر و الجهل الباطني، و الهزيمة هذه هي الوقوع في شراك الكفر و الأسر بعينه. و من وقف أمام الحق، فقد هزم و أسر في الجهاد مع هواه، و هو كمن يقف بشدة أمام من يعترض عليه بالحق. و لذا فمن يسعىٰ دوماً لئلا يقع في شراك الأميال و الرذائل النفسانية التي تسوقه إلىٰ اقتراف الذنوب و يموت و هو في هذا الحال فهو شهيد في ميدان الجهاد مع العدوّ الباطني. و من ذلّل كل الرذائل بحيث لم تبق في باطنه صفة تؤذيه و تسوقه إليها فهو فاتح في ميدان الجهاد الأكبر.

ثم إنّ لكل أحد شيطان حيث ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ليس منكم من أحد إلا و له شيطان – قالوا: و أنت يا رسول الله؟ قال: – و أنا، إلا أنّ الله أعانني عليه فأسلم»[٣].

---

١. الكافي، ج٢، ص٦٠٦، ح١.

٢. الكافي، ج٢، ص٦٠٧، ح٣.

٣. المحجة البيضاء، ج٥، ص٤٩.

فهل أننا في ساحة المعركة هذه منتصرون أو شهداء على أقلّ تقدير؟ أم لا سامح الله نستسلم أمام ذلة الذنوب و لا ذلة أشدّ من ذلة الذنوب؟

و لذا قال المعصوم عليه السلام بأن المرء إن جاهد الجهل و تعلّم القرآن لتطويع الجهل، فهو فاتح في الجهاد الأكبر حقاً، و إن مات في حين التعلّم فهو كالشهيد في ساحة المعركة.

و قد ورد في الأخبار أنّ من مات على فراش المرض مؤمناً بأحكام الله فقد مات شهيداً[1]، و السرّ في ذلك أنه لم يستسلم في ساحة الجهاد مع الهوى، و إن لم يُوفّق في تطويع جميع الأميال النفسانية فقد بلغ الدرجة التي لا يستسلم أمامها. و لذا قال الإمام: «ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلّم القرآن أو يكون في تعليمه»[2].

فعلى المرء أن يسعى لأن يكون في الجهاد مع الجهل إما فاتحاً أو شهيداً و أن لا يكون أسير جهله بتاتاً.

علماً بأنّ من تعلّم القرآن و نسيه بعد مدة لعدم الاهتمام به فإنه قد لا يرتقي إلى الدرجات العالية، و قد وردت أخبار كثيرة في هذا الشأن[3].

الاعتصام بالعهد الإلهي

قال الإمام الصادق عليه السلام: «القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده و أن يقرأ منه في كل يوم خمسين آية»[4]، لأنه قال هو عليه السلام أيضاً: «النظر في المصحف عبادة»[5].

---

١. الأمالي للشيخ المفيد، ص٧٤، المجلس ٧، ح٥.

٢. الكافي، ج٢، ص٦٠٧، ح٣.

٣. راجع: الكافي، ج٢، ص٦٠٧.

٤. الكافي، ج٢، ص٦٠٩، ح١.

٥. الكافي، ج٢، ص٦١٤، ح٥.

فإنّ تلاوة القرآن مستحبة على الدوام و لكنها تمتاز في شهر رمضان المبارك بميزة أخرى؛ حيث ورد عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «من قرأ في شهر رمضان آية من كتاب الله عز و جل كان كمن ختم القرآن في غيره من الشهور»[1]، فإنّ عظمة شهر رمضان تكمن في أنه أصبح وعاءً لنزول القرآن.

و إنّ هذا الكتاب لا يماثل الكتب الأخرى بحيث لو لم يعرف المرء معناه لا يقرؤه، بل أنّ في قراءته ثواب و بركة. فلابد من السعي لإدراك معانيه و الوصول إلى معارفه. و هو كتاب لا يتأتى لأحد الإتيان بما يضاهيه.

فإنّ نهج البلاغة معروف في الفصاحة و لكن إذا تخلّلت آية في وسط الخطب العالية لعلي بن أبي طالب عليه السلام تجد لها تلألؤاً خاصاً و لا يمكن أن نضع كلمات الإمام إلى جانبها.

كما و لو توسّطت خطب النبي آية قرآنية لكانت بيّنة ناصعة فلا يمكن كذلك مقارنة القرآن بكلمات الرسول ﷺ.

و إنّ القرآن حبل الله ﴿وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً﴾[2]، فعليكم التمسّك بالحبل الإلهي الذي هو دين الله و كلامه فهو متصل بسقف قويّ لا يزول. خذوا هذا الحبل و اعتصموا به و ارفعوا أنفسكم من الهاوية. إذ أنّ حبل القرآن طرف منه بأيدي الناس و طرف بيد الله.

و الغور في القرآن و البحث في آياته لأجل معرفتها سبيل لا غاية له و لا نهاية حتى الوصول إلى مقام «لقاء الله». و هو مقام ممكن المنال و الاعتصام بحبل الله لا انفصام له و لا زوال؛ لأنه ﴿لا يَأْتيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ﴾[3].

---

۱. بحار الأنوار، ج۹۳، ص۳٤۱، ح۵.

۲. سورة آل عمران، الآية ۱۰۳.

۳. سورة فصّلت، الآية ٤۲.

و من الواضح أنّ الإنسان الذي وصل إلىٰ حكمة القرآن و حكمة تلاوته هو الذي يرىٰ من الذي مسك بيده الطرف الآخر من الحبل. و لذا أمرونا بأن نقرأ في كل يوم خمسين آية من القرآن الكريم لنكون علىٰ اتصال بعهد الله، و ليُعلم أنّ القرآن حبل طرف منه بيد الإنسان و طرف بيد الله.

ثم أنّ آيات القرآن خزائن إلهية ليس لها انتهاء، فقد روي عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«آيات القرآن خزائن فكلّما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها»[1] من درر و لآلئ، و لا ينبغي القول بأنّ البحث فيها قد تمّ و مضىٰ، لأن القرآن كما يقول الإمام الباقر عليه السلام: «يجري مجرىٰ الشمس و القمر»[2]، فكما أنّ الشمس و القمر تنير أيام حياة الإنسان، كذلك القرآن فإنه يهب للإنسان نوراً في ليله و نهاره و لا سبيل للضمور و الأفول إلىٰ آياته قطّ. و هذا البيان من باب تشبيه المعقول بالمحسوس.

فهم و شعور الكائنات

من المناسب أن نقول بأنّ فهم المفسّرين للقرآن يختلف بعضه عن الآخر. فالبعض يقول مثلاً بأنّ المضاف في جملة ﴿وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾[3] محذوف. فإنّ إخوة يوسف لمّا أخذوا أخاهم الآخر و لم يُرجعوه، سألهم يعقوب عليه السلام: ماذا فعلتم بأخيكم؟ فقالوا: ﴿وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾، و المراد بذلك: اسأل أهل القرية بأننا لم نُقصّر.

و يقول البعض الآخر بأنه لم يُحذف شيء من هذه العبارة و معنىٰ قولهم ﴿وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي سل نفس القرية. فإن استطعت أن تتكلّم بلسان القرية و كنت تعرف

---

١. الكافي، ج٢، ص٦٠٩، ح٢.

٢. تفسير العياشي، ج١، ص١١.

٣. سورة يوسف، الآية ٨٢.

منطقها ستجيبك جدرانها و أبوابها. سوىٰ أنكم لا تقدرون علىٰ ذلك و لا يقدر عليه إلا من يعرف لسان الباب و الجدار. و علىٰ هذا فلم يُحذف منها مضاف.

أليست جدران العالم و أبوابه فاهمة مدركة؟ و هل لا تشهد لصالحنا يوم القيامة إن كنّا مطيعين؟ و تشهد علينا إن كنّا مجرمين؟ أليست الأرض تشهد[1]؟ و المسجد يشكو أو يشفع؟ فيتضح من ذلك أن لجميع الأشياء فهم و شعور.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه مرّ رجل علىٰ الحجر الأسود فقال: و الله يا حجر إنا لنعلم أنك حجر لا تضرّ و لا تنفع... فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «... ليبعثنّه الله يوم القيامة و له لسان و شفتان فيشهد لمن وافاه و هو يمين الله في أرضه يبايع بها خلقه»[2] أي تجلي يمين الله.

و إنّ أهل المعنىٰ ليستحيون من الذنب قائلين بأن لجميع مخلوقات العالم أعين مفتوحة ينظرون إلينا بها، فكيف نذنب في مشهدهم؟ فهم يتناولون القرآن و يقرؤونه بهذه الرؤية.

و من كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: «طيّبوا أفواهكم فإنّ أفواهكم طريق القرآن»[3]، و نقل الإمام الرضا عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفواهكم طرق من طرق ربكم فنظّفوها»[4]، أي لا تقتصروا علىٰ استياك الأسنان بل نظّفوا الأسنان و اللسان و فضاء الفم. و اجتنبوا الأكل المشبوه و ابتعدوا عن الكلام المشكوك ليُؤهّل فمكم أن يكون مجرىٰ لألفاظ القرآن.

فلو مرّ القرآن الذي هو كوثر و ماء معين من فم غير طيّب سيفقد أثره و يتأثّر لونه

---

۱ . ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (سورة الزلزال، الآية ٤).

۲ . بحار الأنوار، ج۹٦، ص۲۲۱.

۳ . كنز العمال، ج۱، ص٦۰۳، ح۲۷٥۲.

٤ . بحار الأنوار، ج۷۳، ص۱۳۰.

و طعمه، و من أراد أن يقرأ القرآن و يُؤثّر كلامه في نفوس الآخرين و يتأثر هو بسماعه فعليه أن يُطيّب فمه على الدوام.

و قد ورد عن رسول الله ﷺ: «إنّ هذا القرآن مأدبة الله فتعلّموا مأدبته ما استطعتم»[1]، أي أنّ القرآن مأدبة الله الحاضرة، لا أنه مأدبة خالية يأتي كل شخص بطعامه ليأكل عليها. و معنى ذلك أنه لا يحقّ لأحد أن يفرض ميوله على القرآن و يضع فهمه في صفاف القرآن؛ لأنه مأدبة حاضرة يستطعم منها كلّ من كان محتاجاً لنيل المعارف.

لسان أهل الجنة

إنّ تلقين الميّت يقال باللغة العربية و ذلك لأنّ باطن الإنسان القرآني المسلم هو الذي يظهر بعد الموت، فيفهم العربية و يتكلّم بها جيداً. و لذا فإنّ لسان أهل الجنة هو العربية.

و لا ينبغي القول بأنّ من لا يفهم اللغة العربية كيف يتكلّم بها في الجنة؛ لأنّ لسان الجنة يتبع عقيدة أهل الجنة، و إنّ اللسان و الوجه و الهيئة تظهر في قالب يتناسب و قلب الإنسان. و لذا يُحشر البعض على صورة إنسان و البعض على صورة حيوان و البعض بوجوه مسودّة و البعض الآخر بوجوه مبيضّة[2]، فإنّ الذي يتولى الصورة و اللفظ و الهيئة و اللغة و الكلمات هو الباطن لا الظاهر. و إنّ العقيدة في يوم القيامة هي التي تعلّم اللسان كيف يتكلّم.

و سيكون خطيب الجنة هو النبي داود عليه السلام؛ فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة واصفاً إياه بأنه: «صاحب المزامير و قارئ أهل الجنة»[3].

---

١. كنز العمال، ج١، ٥٢٦، ح٢٣٥٦؛ بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٩.

٢. ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ ...﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٠٦).

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

فإنّ الحاكم في الموت و ما بعده هو العقيدة و من ارتحل عن الدنيا على عقيدة القرآن و الإسلام فإنه يتكلم بالعربية و يفهمها يقيناً.

* * *

القسم الثامن:

الدعاء و حكمته

آداب الدعاء

إنّ للدعاء أيضاً أحكام و آداب و أسرار. أما أحكام الـدعاء فهـي أن الإنـسان مـا الذي ينبغي أن يطلبه من الله، فهو مأمور بأن لا يطلب من الله أمراً محرمـاً، و لا يطلـب منه ما يتضرر به الآخرون و... .

و أما آداب الدعاء فهي أن يدعو الله بصوت منخفض، و يعتقد أن رفع بالـصوت ينافي الأدب. فقد قال الله في كتابـه حـول أدب الـذكر أو الـدعاء: ﴿وَ اذْكُـرْ رَبَّـكَ في نَفْـسِكَ تَـضَرُّعاً وَ خيفَـةً وَ دُونَ الْجَهْـرِ مِـنَ الْقَـوْلِ بِالْغُـدُوِّ وَ الْآصـالِ وَ لا تَكُـنْ مِـنَ الْغافِلِينَ﴾[1]، قوله بالغدو و الآصال كناية عن الاستمرار.

و يقول أيضاً في بعض خصائص الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدينَ﴾[2]، يقول بعض المفسرين بأن الخفية هو الدعاء بصوت هادئ مـنخفض و في

---

١ . سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

٢ . سورة الأعراف، الآية ٥٥.

السرّ و من جهر بصوته عالياً في الدعاء فهو معتدٍ[١] قد تجاوز حدود الدعاء؛ لأن الله ليس ببعيد.

القرب الإلهي

تنقسم الآيات الدالة على قرب الله منا إلى أربع طوائف:

طائفة من الآيات تدل على أصل القرب و أن الله قريب من الإنسان، مثل: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾[٢].

و الطائفة الأخرى هي الآيات الدالة على أن الله سبحانه أقرب نسبياً من الآخرين إلى الإنسان مثل: ﴿وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾[٣].

و الطائفة الثالثة هي الآيات الدالة على أن الله سبحانه أقرب إلى الإنسان من شريان حياته أيضاً مثل: ﴿وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٤].

و الطائفة الرابعة هي الآيات الدالة على أن الله سبحانه أقرب إلى الإنسان من نفس الإنسان مثل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ﴾[٥].

إن البحث في الطوائف الثلاث الأولى ليس بالأمر العسير. أما الطائفة الرابعة فلا

---

١. كما يحتمل أيضاً أن يتعلق الاعتداء بأصل مسألة الدعاء، فإن الإنسان إن أعرض عن الدعاء فقد تعدى عن حدّ و وظيفة العبودية و المعتدي و المتجاوز مبغوض عند الله.

٢. سورة البقرة، الآية ١٨٦.

٣. سورة الواقعة، الآية ٨٥.

٤. سورة ق، الآية ١٦.

٥. سورة الأنفال، الآية ٢٤.

يمكن حلها بسهولة؛ و هي أن الله سبحانه كيف يكون أقرب إلى الإنسان من الإنسان نفسه؟ و من هنا فسّرت بعض التفاسير هذه المسألة بحيلولة القدرة تبعاً لظاهر بعض الأحاديث حيث تقول بأن المراد من قوله ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ﴾ هو أن الله قد يفسخ عزيمة الإنسان و ينقض همته[1]. و هذا معنىً متوسط تقريباً؛ بيد أننا إذا وجدنا دليلاً عقلياً يطابق الآية و طائفة من الأدلة النقلية المؤيدة لذلك، لما وسعنا الابتعاد عن ظاهر الآية القائلة بأن الله يحول بين المرء و قلبه. فإن الإنسان ليس بموجود صمدي ممتلئ الداخل، بل هو كسائر الموجودات الممكنة أجوف، كما ورد ذلك في الحديث الذي نقله المرحوم الكليني ﷺ[2]، و لو كان كذلك، لكان الذي يحول بين الإنسان و نفسه هو الإحاطة الوجودية للحق. و لذا فإن الله قريب من جميع البشر، و من يطلب من الله شيئاً لابد و أن يعلم بأن الله ليس ببعيد.

الحبيب أقرب مني إليّ و العجب أني عنه بعيد

فماذا أصنع و لمن أقول بأنه إلى جانبي و أنا مهجور غريب[3].

فمن أدرك بأن الله قريب منه سيتبيّن له أسلوب الدعاء؛ بأن يدعو الله بخفية و هو واثق بأنه عارف بجميع ما يحتاج إليه. لأن صفات الله الذاتية هي عين ذاته. فإن كان الله قريباً، فهو قريب بجميع صفاته و لو حضرت صفاته الذاتية كالقدرة و ما شاكلها فإن الصفات الفعلية تتبعها أيضاً في الحضور و التأثير.

إذن فإنّ أدب الداعي هو التضرّع و الابتهال؛ لأن الدعاء لو خلا من الابتهال لبان بأن الداعي كان قد اتكل على ما يمتلكه بنفسه من وسائل.

---

١. مجمع البيان، ج٤، ص٨٢٠.

٢. عن أبي جعفر ﷺ قال: «إن الله عزّ و جل خلق ابن آدم أجوف» (الكافي، ج٦، ص٢٨٢).

٣. بيتان بالفارسية و هذا نصهما:

دوست نزديكتر از من به من است — وين عجب تر كه من از وي دورم

چه كنم با كه بگويم كاين او — در كنار من و من مهجورم

النداء أم النجوى؟

لابد من الدعاء بالتضرع و الابتهال و الخفاء بعيداً عن الآخرين كما في الآية ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً﴾[١]، فإنّ حضور الذهن في الدعاء الجماعي لا يتيسر للجميع، و لا يتحتم على الإنسان في مثل ذلك أن ينادي فإن المناجاة أولى من المناداة و للنجوى فضل آخر.

و قد ورد في سورة البقرة بعض آداب الدعاء. فإن شعر الإنسان بأنه بعيد من الله دعاه عبر النداء سواء صرّح بحرف النداء «يا ربّ» أم لم يصرح به «ربّ». و أما إذا قرب من الله قلّ دعاؤه بالنداء أو أنه يستبدله بالنجوى.

و قد نقل المرحوم الكليني رحمه الله و غيره في باب آداب الدعاء بأن على المرء أن يقول عشر مرات «يا ربّ» ثم يقول «ربّ»[٢].

فلا يجب ذكر «يا» ليكون حذف حرف النداء طريقاً لاستبدال المناداة بالمناجاة.

يقول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في الخطبة الشعبانية: «و ارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم، فإنها أفضل الساعات ينظر الله تعالى فيها بالرحمة إلى عباده و يجيبهم إذا ناجوه و يلبيهم إذا نادوه». فقد يشعر العبد بالبعد كالذي ورد في النبي يونس عليه السلام: ﴿وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ...﴾[٣].

و قد ورد في أخبار المعصومين عليهم السلام و سيرتهم بأن الإنسان إذا رفع يده بالدعاء يستحب أن يمسح يده على رأسه و وجهه لأن الله قد أجاب هذه اليد بلطفه، فإن اليد

---

١. سورة الأعراف، الآية ٥٥.

٢. الكافي، ج٢، ٥٢٠؛ بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٤٢.

٣. سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

التي رفعت إلى الله للدعاء لا ترجع خالية على اليقين و اليد التي مُلئت بالعطاء الإلهي كريمة و لذا يستحب مسحها على الوجه أو الرأس[١].

و كان الإمام السجاد عليه السلام إذا أعطى السائل قبّل يده فقيل له: لِمَ تفعل ذلك؟ قال: «لأنها تقع في يد الله قبل يد العبد»، فإن الله يقول: ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ﴾[٢]. فمن يملك هذه الشامة، يمكنه عبر شمّ اليد أن يشم عطر علامة اليد الإلهية أيضاً. و من هذه الحِكَم ما ورد بأن الجنة يُشمّ ريحها من مسيرة ألف عام فمن الناس من يجد ريحها و منهم من يُحرم ذلك[٣].

هدية العجز و الذل

ينقل المرحوم الفاضل التوني في الدرس بياناً عن مشايخه العظام و هو أنّ على العبد أن يقدّم لمولاه هدية لا توجد عنده و إلا لفقدت قيمتها. و على الإنسان الذي هو عبد لله أن يقدم له هدية لا توجد عند الله و عدم الوجدان هذا يكون كمالاً أيضاً.

فلو قال العبد: إلهي لقد اجتهدت و درست طيلة عمري، لتعذر مقارنة الدرس و اكتساب العلم بعلم الله تقدست أسماؤه ﴿وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾[٤]، فكيف يتأتى للإنسان أن يقدم هذا العلم هدية للعالم المطلق؟

و لو قال امرؤ: لقد عانيت و قدمت العديد من الخدمات، لما أمكن مقارنة هذه الخدمات و القدرة و الجهود بذلك الفيض الذي يُدلي به الله سبحانه في كل يوم. هذا إضافة إلى أن هذه الخدمات الضئيلة أيضاً نابعة من فيضه، إذن فماذا يقدّم الإنسان إلى

---

١ . بحار الأنوار، ج٨٣، ص٢١٠؛ فلاح السائل، ص١٨٧.

٢ . سورة التوبة، الآية ١٠٤.

٣ . الكافي، ج٢، ص٣٤٩.

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

الله؟ و لا يجدر أن يذهب صفر اليدين أيضاً. فإن قال: جئت بالعلم، فهناك خزائن العلم العظمية، و إن قال: جئت بالقدرة و الخدمة، يرىٰ قدرة الله المطلقة، و إن قال: جئت بالتضحية و الإيثار، يشاهد الإيثار و الإحسان المحض، فما الذي يقدمه إذن؟

نقول بأن العبد إذا تشرف بخدمة مولاه لا ينبغي له إلا تقديم المسكنة و الضعف و العجز و البكاء و الابتهال و التضرع. و حريّ بالعبد إذا مثُل أمام ربه سبحانه أن يقول: لا أملك سوىٰ العبودية. فإن إظهار العجز و الإفصاح عن الفقر كمال بذاته.

و في هذا المجال يقول أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً ربه: «إلهي كفىٰ بي عزاً أن أكون لك عبداً و كفىٰ بي فخراً أن تكون لي رباً»، أنا اعترف بربوبيتك و عبوديتي.

فحقيق بالعبد أن يقدم عجزه و ذله و حقارته؛ و أما باقي المسائل فهي الأعظم و الأكثر هناك.

ثم يتابع الإمام مناجاته قائلاً: «أنت كما أحب فاجعلني كما تحب»[1]. هذه الجمل الثلاث من الأدعية المعروفة لأمير المؤمنين عليه السلام.

الدعاء و القضاء و القدر

واحدة من الشبهات الواردة في مسألة الدعاء هي أن القضاء و القدر الإلهي حق و أن الله سبحانه عالم بجميع الأمور منذ الأزل، و المسألة المطلوبة مقضية من الأزل بأنها تتحقق أم لا. فلو كان القضاء على التحقق لا يبقىٰ للدعاء أثر؛ لأن المسألة نفسها حاصلة. و لو كان القضاء على عدم التحقق لما بقي للدعاء نفع كذلك؛ لأن المسألة المحتومة على العدم لا تحصل بالدعاء.

و الجواب: أن هذا الإشكال مشترك بين الدعاء و الصدقة و صلة الرحم و أمثالها و لذا لابد و أن يكون الجواب مشتركاً كذلك.

---

١. بحار الأنوار، ج٧٧، ص٤٠٢، ح٢٣.



إن «البداء» له دخل في عالم الحركة و هو عالم التحوّل و التغيير و التبديل، و هو في التكوينيات كالنسخ في التشريعيات. فإنّ هناك تحوّل و تبدّل في إطار عالم الطبيعة و قد قدّر الله سبحانه بأن الصدقة و صلة الرحم و الدعاء تتسبب في تحقق العمل الفلاني و أنّ عدم الإتيان بها يوجب عدم تحقق ذلك العمل. و من جانب آخر فإن الله سبحانه يعلم بأن الشخص الفلاني سيدعو و ينتفع و الآخر لا يدعو و لا ينتفع. إذن فلا جهل في علم الله و لا إبهام في عالم الوجود. و قد أرشدونا إلى الدعاء و الصدقة و صلة الرحم و أمثالها بأنها مؤثرة إذا أردنا التمتع بمزيد من الخير و الحرمان منه في تركها.

إذن فهناك مسألتان: الأولى هي صحيح أن جميع الأمور منتظمة منذ الأزل، بيد أنه قد تم تنظيم كل أمر بعلله و أسبابه و من هذه العلل و الأسباب في دائرة الحركة و عالم التحوّل هي الدعاء و الصدقة و صلة الرحم و أمثالها. و لو اجتزنا حدود التحوّل و لوح المحو و الإثبات و وصلنا إلى عالم القضاء المحض، فلا يبقى هناك مجال للصدقة و صلة الرحم و الدعاء و.... فإن الدعاء و إن كان أمراً عبادياً و هو مستقل عمّا نحن فيه غير أنه لا يترك أثره في التغيير و التبديل إلا في دائرة لوح المحو و الإثبات فما دون لا في عالم اللوح المحفوظ.

و المسألة الأخرى هي أن الله يعلم بأن الشخص الفلاني سيصل رحمه و بالتالي سيتمتع بعمر طويل و الآخر سيقطع رحمه و يُحرم من العمر الطويل. فلا تردد و إبهام في علم الله و لا في واقع الأمر كذلك؛ و لا ينبغي القول: بأن القضاء و القدر حق فلماذا الدعاء؟ لأن الدعاء نفسه جزء من القدر. أي أن الله قدّر بأن الدعاء سيسبب وقوع الحادث الحَسَن الفلاني و يدفع الواقعة السيئة الفلانية. و لذا فإن للدعاء أثر و هو جزء من القضاء و القدر في العالم.

فإن الله الذي يقول: ﴿وَ سْئَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[1]، هو نفسه قد حدّد القضاء و

---

١ . سورة النساء، الآية ٣٢.

القدر قائلاً: ﴿وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾[١]، أو: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾[٢]، هو نفسه قال أيضاً: ﴿ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٣].

التسليم و الإخلاص في الدعاء

إن الدعاء بنفسه أمر عبادي كما ورد في الآيات و الروايات، و لذا يقول البعض: إلهي لقد أمرتنا بالدعاء و نحن نجيبك؛ سواء تحقق المطلوب أم لا. فإن هؤلاء هم خاصة أوليائك القائلين: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»[٤] و هم تسليم محض.

فمن كان تسليماً محضاً يدعو تأدّباً طاعة لله لأنه أمر بالدعاء و لأنه أمر عبادي، فهو مسلّم محض و راضٍ لرضا الله سواء أعطاه الله أم لا. فهو لا يدعو إلا لكون الدعاء عبادة.

يقول الله في سورة غافر حول الدعاء: ﴿وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فأمر بالدعاء و وعد بالإجابة و الظاهر أن المراد هو الحثّ على الدعاء، و لكنه يذمّ في تتمتها المعرضين عن الدعاء قائلاً: ﴿إِنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ﴾[٥]، و يقول في آية أخرى: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ﴾[٦].

---

١. سورة الرعد، الآية ٨.

٢. سورة القمر، الآية ٤٩.

٣. سورة غافر، الآية ٦٠

٤. و هو قول النبي إبراهيم عليه السلام حين وضعوه في المنجنيق و رموا به إلى النار فتلقاه جبرئيل في الهواء فقال: هل لك من حاجة فقال: أما إليك فلا حسبي الله و نعم الوكيل، فاستقبله ميكائيل فقال: إن أردت أخمدت النار فإنّ خزائن الأمطار و المياه بيدي فقال: لا أريد، و أتاه ملك الريح فقال: لو شئت طيّرت النار قال: لا أريد، فقال جبرئيل: فاسأل الله فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي (بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٥٥، ح٧٠).

٥. سورة غافر، الآية ٦٠.

٦. سورة الفرقان، الآية ٧٧.

ثم إنّ كل عبادة دعاء و كل دعاء عبادة، و لذا فضلاً عن استجابة الدعاء عند المصلحة، فإنّ الدعاء لكونه عبادة يكون للداعي فضلاً و يُثبّت له درجة من درجات الجنة.

و من أجل أن يتضح بأن الدعاء أمر عبادي و مطلوب، تعرض لمسألة الإخلاص في الدعاء قائلاً: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1]، أي تعرضوا للدعاء الذي هو من خصال الدين و شؤونه، و ادعوني بإخلاص و لا تضموا إليه شيئاً آخر؛ لأن ما عندنا قد ينفد بسرعة و ما عند الله باق.

و علامة الزهد أن يثق الإنسان بما في يد الله أكثر مما في يده فقد ورد: «أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عز و جل»[2]، فلابد أن يكون وثوق الإنسان بما في خزانة الله أكثر مما في خزانته، لأن دعاء من يعتمد على خزانته عارٍ عن الإخلاص.

و الدعاء الخالص يحظى بالتكريم بوصفه عبادة كريمة، كما في سائر الموارد التي جرى فيها الحديث عن الدعاء حيث قال: إن الله يستجيب دعاء المؤمنين لأنه عن إخلاص: ﴿وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فيلبي سؤلهم و زيادة، لأنهم طلبوا ما لصالحهم فيعطيهم وفق ذلك و يزيدهم أجراً لكون الدعاء عبادة ﴿وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[3].

الدعاء في أرض منى

يتفرغ الحجاج في أرض منى و يبيتون فيها ليالي بعد إكمال مناسكهم في عرفات و المشعر و منى و الذبح. وكان الناس في الجاهلية و في هذه الأرض المقدسة يفتخرون

---

١. سورة غافر، الآية ١٤.

٢. بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣١٠، ح٤.

٣. سورة الشورى، الآية ٢٦.

بأجدادهم و يذكرون آبائهم، سوىٰ أن الله يقول في كتابه: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾[١]، ثم يقول بأن دعاء المؤمنين في منىٰ هو: ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ﴾[٢]، فهم في طلب حسنات الدنيا و الآخرة و خيراتها، و معنىٰ ذلك أنهم يطلبون شيئاً حسناً حلالاً طيباً طاهراً و هذا دعاء حسن. فإنّ الولد الصالح و الزوجة المؤمنة و الصديق المؤمن و المعلم الصالح و التلميذ الجيد و المُباحث المفيد و الكسب الحلال و الأيادي الاقتصادية الجيدة و القوىٰ العسكرية المقتدرة، كل هذه من حسنات الدنيا. فمن كان يعمل مع أناس مؤمنين صالحين، فذلك من حسنات محل كسبه.

و أما الطائفة الأخرىٰ، فهم الذين يطلبون زخرف الدنيا و زبرجها لا الحسنة: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾[٣]، و لا يقتصر هذا علىٰ قولهم بل هو منطقهم و فكرهم كذلك حيث تخلو صفقتهم من المعنويات.

فمن أراد الوصول إلىٰ الخير، لا يسأل الله أن يعطيه الشيء الفلاني، إذ أنّ الله في كثير من الموارد يعطي للإنسان نفس ما جرىٰ علىٰ لسانه ليمتحنه. و لذا أفضل دعاء هو أن يطلب فضل الله و لطفه و خيره قائلاً: رب هب لي حسنات الدنيا و الآخرة.

نماذج من أدعية أولياء الله

علينا أن نتعلم طريقة الدعاء من إبراهيم الخليل عليه السلام، إذ يقول لله سبحانه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[٤]، أي إلىٰ ذريتي و اجعلهم محبوبين بين المؤمنين.

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٠٠.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٠١.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٠٠.

٤. سورة إبراهيم، الآية ٣٧.



و قد بيّن القرآن الكريم طريق المحبوبية بين المؤمنين حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا﴾[1].

و هل يوجد شيء أسمىٰ و أعلىٰ من أن يكون الإنسان محبوباً في قلوب المؤمنين؟ فإنّ هذا الطريق و إن كان صعباً عسيراً و لكنه ليس بمظلم معتم، بل هو طريق بيّن للغاية. فإن الصراط المستقيم لا يعني الطريق المعبّد، بل هو الطريق الذي يحتاج إلى الثبات و الاستقامة، و مآله السعادة لا محالة.

و يقول الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «ليس من مؤمن يقبل بقلبه في صلاته إلى الله إلا أقبل الله إليه بوجهه و أقبل بقلوب المؤمنين إليه بالمحبة له بعد حب الله إياه»[2]. و أي شيء أفضل من أن يكون الإنسان محبوباً عند الله و في قلوب المؤمنين.

و جاء في دعاء أبي حمزة الثمالي: «الحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي و أخلو به حيث شئت لسري بغير شفيع فيقضي لي حاجتي»[3].

و روي أيضاً عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «احتجب بغير حجاب محجوب و استتر بغير ستر مستور»[4]. و قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا حجاب بينه و بين خلقه»[5]، و لذا قالوا: «وجودك ذنب لا يقاس به ذنب».

لا يوجد حجاب بين العاشق و المعشوق سوىٰ نفسك فأزحها[6].

فهنيئاً لمن يسير في هذا الطريق بغير حجاب.

---

١ . سورة مريم، الآية ٩٦.

٢ . أمالي الشيخ المفيد، ص١٦٤، المجلس ١٨، ح٧.

٣ . مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

٤ . بحار الأنوار، ج٣، ص٣٢٧، كتاب التوحيد، الباب ١٤.

٥ . الكافي، ج١، ص١٣٩.

٦ . بيت بالفارسية في ديوان حافظ، الغزل ٢٦٦، و هذا نصه:

ميان عاشق و معشوق هيچ حايل نيست   تو خود حجاب خودئ حافظ از ميان برخيز

العلو و الرفعة في الدعاء

تدل أدعية علي بن أبي طالب عليه السلام على روحه الكبيرة و على معرفته الحقة بالله، و لذا تراه يطلب من الله الغنى و كذلك الآثار و الصفات الإلهية، فيدعوه سبحانه قائلاً: «اللهم اجعل نفسي أول كريمة تنتزعها من كرائمي و أول وديعة ترتجعها من ودائع نعمك»[1]، حيث يطلب من الله أن تكون روحه هي أول نعمة يقبضها منه، لا أن يأخذ أولاً أعضاءه و جوارحه فيكون محتاجاً إلى وُلده و تخيّم على حياته المذلة و المسكنة ثم يُميته. و هذه الخصلة نجدها في سائر أدعية أهل البيت عليهم السلام.

فقد ورد في دعاء لأمير المؤمنين عليه السلام و كذا للإمام السجاد عليه السلام: «اللهم صن وجهي باليسار، و لا تبذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، و أستعطف شرار خلقك، و أبتلي بحمد من أعطاني، و أفتتن بذم من منعني، و أنت من وراء ذلك كله وليّ الإعطاء و المنع»[2].

و قد علّمنا أهل البيت عليهم السلام في الدعاء أن نتصف بروح عالية رفيعة و أن ندعو كما يدعون. فلا نطلب من الله كثرة المال بتاتاً، بل نطلب منه الكرامة فإنّ المال إن اجتاز عن حدّه صار وبالاً علينا.

و إنّ الإنسان الكريم، هو المتصف بالعلو و الرفعة الذي لم تتلوث نفسه و سريرته بالطبيعة و لا يُطلق الكريم على أيّ أحد.

عظمة النبي صلى الله عليه وآله

نزل رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير وادٍ، فأقبل سيل

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢١٥.

٢. نهج البلاغة، الدعاء ٢٢٥؛ الصحيفة السجادية، الدعاء ٩٩، ص٢٠ (دعاء مكارم الأخلاق).



فحال بينه و بين أصحابه، فرآه رجل من المشركين و المسلمون قيام على شفير الوادي ينتظرون متى ينقطع السيل، فقال رجل من المشركين لقومه: أنا أقتل محمداً، فجاء و شدّ على رسول الله ﷺ بالسيف ثم قال: من ينجيك مني يا محمد؟ فقال: «ربي و ربك»، فنسفه جبرئيل عليه السلام عن فرسه فسقط على ظهره فقام رسول الله ﷺ و أخذ السيف و جلس على صدره و قال: «من ينجيك مني يا غَورَث؟»، فقال: جودك و كرمك يا محمد، فتركه فقام و هو يقول: و الله لأنت خير مني و أكرم[1]. و هذه هي روح الكرم التي يتحلى بها الإنسان العظيم الكامل.

و في المناجاة الشعبانية أيضاً لم يجر الكلام عن الدار و مستلزمات الحياة و المسائل المادية، فإنها تُعطى للآخرين أيضاً، و إنّ الله يرزق الكفار و المنافقين بأسرهم، بل و يرزق السباع الضاريات كذلك، و هل هناك كائن حيّ تركه الله من دون رزق حتى نطلب منه ذلك؟ علماً بأنّ هذا أيضاً ينبغي طلبه و لابد من الشعور بالافتقار إلى الله للوصول إليه و لا شك في هذا الأمر؛ و لكن لابد و أن يكون الإنسان أعلى همة من ذلك.

روي أنه كان بين الإمام السجاد عليه السلام و بين رجل آخر منازعة فقيل للإمام: لو ركبت إلى الوليد بن عبد الملك ركبة لكف عنك من رغب شره، و كان هو بمكة و الوليد بها فقال عليه السلام: «ويحك أ في حرم الله أسأل غير الله عز و جل، إني لآنف أن أسأل الدنيا خالقها فكيف أسأل مخلوقاً مثلي»[2].

علوّ الهمة في الدعاء

لابد أن نصل إلى هذه المرتبة و هي أن نكون بين المصلين أمثلهم و بين الصائمين

١ . الكافي، ج٨، ص١٢٧.

٢ . بحار الأنوار، ج٤٦، ص٦٣، ح٢٠.

أفضلهم و بين المقاتلين أعلاهم. و إنّ المعارف الدينية هي التي تهدينا إلى الهمة العالية و ترشدنا إلى أن الطريق مفتوح و الوصول إلى المقام الرفيع لا يختص بزمرة معينة.

ففي بعض فقرات دعاء كميل نسأل الله تعالى قائلين: «و اجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك و أقربهم منزلة منك و أخصهم زلفة لديك»، و لا تكون همتنا أن لا ندخل النار، فإن هذا ليس بالأمر الهام، إذ أنّ الله لا يُحرق بالنار في يوم القيامة الكثير من الناس كالأطفال و المجانين و كذا المستضعفين الذين لم تصل إليهم المعارف و الأحكام الإلهية.

و لذا قالوا: اطلبوا من الله أن تكونوا من أعلى الناس و أفضلهم. و لذا نسأل الله في ليالي الجمعة أن يرفعنا إلى مقام لا يرقى إليه أحد (غير الأنبياء و المعصومين عليهم السلام فإن حسابهم على الله).

و قد روى الحسين بن علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «إنّ الله يُحبّ معالي الأمور و يكره سفسافها»[1] و السفساف: المتدنّي و الحقير. فلا ينصبّ سعي الإنسان على أن لا يدخل النار يوم القيامة و أن تقتصر عبادته على ذلك فإنها عبادة العبيد. و قد أرشدونا إلى إحياء الهمم العالية في نفوسنا و طلب معالي الأمور من الله سبحانه و تعالى.

و إنّ الحسين بن علي عليه السلام الذي نقل الحديث المذكور عن النبي صلى الله عليه و آله، قد علّمنا بسيرته و نهجه العملي كيف يصل الإنسان إلى مرتبة رفيعة و كيف تكون الأمة أمة سامية عالية الهمة.

فإنه لما قيل له: تخرج إلى مكة فإن اطمأنّت بك الدار بها فذاك و إن تكن الأخرى خرجت إلى بلاد اليمن... فإن اطمأنّت بك الدار و إلا لحقت بالرمال و شعوب

---

١. بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٢٣.

الجبال و جُزت من بلد إلى بلد حتى تنظر ما يؤول أمر الناس و يحكم الله بيننا و بين القوم الفاسقين، قال: «و الله لو لم يكن في الدنيا ملجأ و لا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية»[١]. حيث تعلّم الإمام هذه الهمة و الفكر السامي من ذلك الحديث، و قد ربّى هذا الحديث الشريف لرسول الله ﷺ ولداً كهذا. فإنّ منطق الإمام عليه‌السلام و فكره هو أنه لو ساد الحجاز و العراق و اليمن و الكوفة و البصرة بل و العالم بأسره الاضطراب و تضافر الجميع على قتاله لما أعرض عن القيام؛ و هذه هي الروح العالية. و من نشأ و ترعرع في أحضان هذه المدرسة لما قال بتاتاً: بأن الخليج غير آمن، و مضيق هرمز غير آمن؛ بل الكلام عن كيفية الإيثار و التضحية؛ إذ قد حلّ بالخوف في مدرسة الإمامة، و لا سبيل له أن يمثل أمام أولياء الله متعجرفاً.

التوسّع في الدعاء

يقول الحكيم المتأله ابن سينا في بيان لطيف: «استوسع رحمة الله»[٢]، و يذكر المرحوم الخواجة نصير الدين الطوسي، في مقدمته على قسم المنطق من شرح الإشارات بأن هذه العبارة أشبه إلى الرواية منها إلى عبارة في كتاب عادي.

يقول ابن سينا: استوسع رحمة الله، و ائذن للآخرين بالدخول تحت غطاء هذه الرحمة الواسعة. فعلينا في مظانّ استجابة الدعاء أن نترفّع في أدعيتنا و أن نغطي الجميع تحت غطاء دعائنا.

نزل رجل عصر يوم عرفة من الجبل و عيناه إحداهما متضررة و الأخرى محمرة من كثرة البكاء، فقال له بعض أصحابه لِمَ كلّ هذا العناء و البكاء؟ فقال إني طوال هذه

---

١ . هذه العبارة في جواب محمد بن الحنفية. (بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٩.

٢ . «و لا تصغ إلى من يجعل النجاة وقفاً على عدد و مصروفة عن أهل الجهل و الخطايا صرفاً إلى الأبد و استوسع رحمة الله تعالى» (الإشارات، ج٣، ص٣٢٨).



الفترة لم أطلب لنفسي شيئاً و كانت كل أدعيتي للمؤمنين و لأصحابي. فهؤلاء هم أصحاب النفوس العالية الذين ترعرعوا في أحضان أهل البيت عليهم السلام. و إنّ الدين القائل: إذا قمت عند السحر لصلاة الليل، فاستغفر لعدد كبير (أربعين نفراً أو يزيدون)، يقول أيضاً: اقض في اليوم حاجة أربعين مؤمناً. فإنه حين يوصي بالقيام بالليل و الدعاء للآخرين، يؤكد أيضاً على قضاء حوائجهم في النهار أيضاً. و إنّ هذه الوصية تعلّم الإنسان درس الكرم و استضافة الآخرين.

يقول الإمام السجاد عليه السلام في الدعاء المعروف لأبي حمزة الثمالي: «اللهم اغفر لحينا و ميّتنا و شاهدنا و غائبنا، ذكرنا و أنثانا، صغيرنا و كبيرنا، حرنا و مملوكنا»، فقد يستغفر للجميع تحت عنوان عام و قد يذكر هذه الأصناف طائفة طائفة. فلا ينبغي للإنسان أن يقتصر في دعائه على نفسه و أقربائه، بل لابد و أن يكون دعاؤه عالياً يشمل الجميع.

دعا رجل للنبي صلى الله عليه وآله و لنفسه بالاستغفار (على سبيل الحصر) و كان النبي حاضراً فقال: «إذا دعا أحدكم فليعمّ فإنه أوجب للدعاء»[1] أي للإجابة.

و قال الإمام الرضا عليه السلام في دعاء له و هو ينبأ عن كرمه و علوّ شأنه: «و اغفر لمن في مشارق الأرض و مغاربها من المؤمنين و المؤمنات»[2]. و إن كلام الحكيم المتأله، ابن سينا: «استوسع رحمة الله»، يحكي عن مضمون هذه الروايات.

الدعاء المستجاب

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «تبحّروا قلوبكم فإن أنقاها الله من حركة الواجس

---

١ . بحار الأنوار، ج٩٣، ص٣١٣.

٢ . بحار الأنوار، ج٤٩، ص١١٧.



لسخط شيء من صنعه فإذا وجدتموها كذلك فاسألوه ما شئتم»[١]، فإن دعاء الموحّد مستجاب، و الموحّد هو الذي لا يوجد في قلبه سوىٰ الاعتقاد بالله.

و أما الكفار و المنافقون فلا تُفتّح لهم أبواب السماء: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ﴾[٢]، و القائمون علىٰ السماء ملائكة يهديهم الله بوحيه: ﴿وَ أَوْحى في كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾[٣]. و إنّ لهذه السماء ظاهر يضم الأنوار الظاهرية و سرّ و باطن يحتوي علىٰ الأنوار الباطنية.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في جواب من سأله: كم بين السماء و الأرض؟ مشيراً إلىٰ السماء الظاهرية و الباطنية: «بين السماء و الأرض مدّ البصر و دعوة المظلوم»[٤].

فمن أراد الدعاء و وصول صوته إلىٰ باطن السماء و استجابة دعائه علىٰ الحتم، عليه قطع جميع علائقه و كل ما يرجوه من غير الله. و بمقدار توحيد الإنسان يُستجاب دعاؤه، فإنّ الله لا يردّ دعاء الموحّد و بمقدار توحيده يستجيب دعاءه. فإن دعا المظلوم آيساً عن عون كل أحد، فسيُستجاب دعاؤه علىٰ اليقين.

و المظلوم علىٰ قسمين: الأول هو المظلوم الذي قد يتّكل علىٰ الآخرين، فإن دعاءه ليس بدعاء موحّد. و الثاني هو المظلوم الذي لا يجد من ينصره و لا من يلجأ إليه و يطلب المعونة منه سوىٰ الله. فيكون دعاء المظلوم هذا هو الفاصل بين الأرض و باطن السماء كما قال أمير المؤمنين عليه السلام.

و روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «لما حضرت علي بن الحسين عليه السلام الوفاة ضمني إلىٰ صدره ثم قال: يا بُنيّ أوصيك بما أوصاني به أبي عليه السلام حين حضرته الوفاة و

---

١. أمالي الشيخ المفيد، ص٦٧، المجلس ٧، ح١.

٢. سورة الأعراف، الآية ٤٠.

٣. سورة فصّلت، الآية ١٢.

٤. بحار الأنوار، ج١٠، ص٨٨.

بها ذكر أن أباه أوصاه به فقال: يا بُنيّ إياك و ظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله»[١].

فإنّ جميع أقسام الظلم مذمومة، و لكن لا تظلموا من لا ملجأ له سوىٰ الله فإنّ دعاءه مستجاب لا محالة.

و لا يتحتّم أن يكون الإنسان محروماً من جميع الوسائل حتىٰ يكون موحّداً، بل لا يصل إلىٰ التوحيد في الدعاء إلا إذا رأىٰ نفسه محروماً من جميع الوسائل و أنها عديمة التأثير.

و لابد أن يصل الدعاء إلىٰ موضع صدور الأوامر و هو العرش، فإنه مقام حكم الله سبحانه و سلطنته، فهو مالك الدنيا و الآخرة و يدير عالم الوجود بهذا المقام. و إنّ ما قاله رسول الله ﷺ: «إنّ اليتيم إذا بكىٰ اهتزّ له العرش»[٢]، يدلّ علىٰ أن مقام الملك و السلطنة هو الذي يُقرر في مسألة ظلم اليتيم.

صفاء الباطن

القلب الذي لا يحمل في مكنونه سوىٰ رضا الله و إحياء دينه فهو قلب طاهر.

و قال رسول الله ﷺ في الخطبة الشعبانية: «فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة و قلوب طاهرة». و المراد بالقلب الطاهر كما قال الإمام الصادق عليه السلام هو: «القلب السليم الذي يلقىٰ ربه و ليس فيه أحد سواه»[٣]. و قال الإمام الحسن عليه السلام: «و أنا الضامن لمن لم يهجس في قلبه إلا الرضا بما قضىٰ الله أن يدعوا الله فيستجاب له»[٤].

قلت متىٰ تسامحني و ترحمني و أنا الضعيف، قال في الوقت الذي لا تكون نفسك

---

١. الكافي، ج٢، ص٣٣٣، ح٥.

٢. بحار الأنوار، ج٧٢، ص٥.

٣. الكافي، ج٢، ص١٦.

٤. الكافي، ج٢، ص٦٧، ح١١.



حائلاً فيما بيننا[1].

فإنّ «الأنا» تحرم الإنسان من الفيض و تجره إلى مشقة دائمة و التخلي عنها يؤول إلى الدعة و الاستقرار.

حينما كان الإمام الخميني ﷺ في النجف، استجازوه لترجمة رسالته العملية إلى اللغة الأردية و إرسالها إلى الباكستان، فقال سماحته: هل لا توجد رسالة هناك؟ قالوا: نعم توجد رسالة لبعض المراجع، قال: هذا يكفي!

و قال المرحوم الحاج الشيخ محمد تقي الآملي (١٣٩١ ــ ١٣٠٤هـ)، و هو فقيه متكلم متأدب بالآداب الإسلامية، و يوصف بالتواضع و العظمة و الكرم: رأيت في عالم الرؤيا بأن العدوّ قد هاجمني فجابهته و تشابكت معه و لكنه لم يتركني، فاضطررت للنجاة من شره أن أعضّ على يده بقوة؛ ثم استيقظت من منامي و أنا في هذا الحال فرأيت بأني قد عضضت يدي!. أي أخبروني في عالم الرؤيا بأن عدوّك نفسك ليس إلا فانجُ منها. فإن العداء ينبثق من أنفسنا لا من الغير. و إنّ الله لا ينعم على أيّ أحد مثل هذه المنامات الحسنة ليُفهم الإنسان أنّ عدوّك نفسك.

روي عن النبي ﷺ أنه قال في وصاياه لأبي ذر: «يا أبا ذر ما زهد عبد في الدنيا إلا أثبت [أنبت] الله الحكمة في قلبه و أنطق بها لسانه و بصّره بعيوب الدنيا و دائها و دوائها و أخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[2].

إذا لم يواظب الإنسان في يقظته فلا يحظى على منامات و رؤى جيدة.

فضيحة الشرك

لا يوجد شيء في يوم القيامة أشد سوءاً من فضيحة الشرك، فإن نجونا من هذا

---

١ . بيت بالفارسية في ديوان حافظ، الغزل ٣٠٧، و هذا نصه:

گفتم كه كب ببخشب بر جان ناتوانم　　　گفت آن زمان كه نبود جان در ميان حايل

٢ . مكارم الأخلاق، ج٢، ص٥٤٥؛ بحار الأنوار، ج٢، ص٣٣.

العار يكون هناك أمل للنجاة. و إن الشرك مكنوز في سريرة الكثير منا و لا سبيل لتشخيصه بالنسبة لنا فضلاً عن علاجه لأننا دوماً نتكل على غير الله في أعمالنا و نؤدي العبادة من باب العادة! فهل حدث بأن لا نمدّ يد الطمع إلى غير الله في أعمالنا؟ و أن لا نتكل على أنفسنا أو عملنا؟

فقد جاء في أواخر سورة يوسف: ﴿**وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[1].

و السرّ في ذلك قول الناس: لو لم يكن فلان لما تمّ إنجاز هذا العمل. و كذا ما تداول فيما بيننا من القول: نعتمد أولاً على الله ثم على فلان، فإنّ هذه التعابير ليست بتعابير توحيدية لأنه ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ**﴾[2]، هو الأول الذي لا يقابله ثانٍ.

و سُئل الإمام عليه السلام عن جواز القول: لولا أن منّ الله علي بفلان لهلكت؟ قال: «نعم لا بأس بهذا»[3]. فلابد من النظر إلى الفاعل الحقيقي و النظر إلى الحق ظاهراً، إذ أنّ «هو الظاهر» لا يدع المجال لغير الله.

و لذا لابد أولاً أن نطلب من الله أن يهب لنا قلباً خالصاً مؤهلاً للدعاء ثم ندعو.

المضطر و المجيب

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد أحدكم أن لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، فلييأس من الناس كلهم، و لا يكون له رجاء إلا من عند الله عز و جل، فإنه إذا علم الله عز و جل ذلك من قلبه لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه»[4]. و يقول الله سبحانه و تعالى:

---

١ . سورة يوسف، الآية ١٠٦.

٢ . سورة الحديد، الآية ٣.

٣ . تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٤٧٦.

٤ . بحار الأنوار، ج٧٢، ص١٠٧، ح٧.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ﴾[١]، فإنّ الإله و الرب هو الذي يستطيع إجابة المضطر، و من لا يقدر على ذلك ليس بإله. فإنّ الذي خلق نظام الكون هو الله، و هو الذي يستطيع حلّ مشاكل الناس.

و إنّ قوله ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾، يعني أن غير المضطر لا يفهم أن الأمور بيد من تكون، و لذا يقول: اعتمد أولاً على الله ثم على الطبيب، بيد أن المضطر يعرف بأن الأول هو الله و الآخر هو الله أيضاً. و على سبيل المثال، إذا عثر إنسان و أخذ آخر بيده يقول: اعتمد أولاً على الله و لكن لو لم يكن هذا الرجل لسقطت من السُلّم، و أما المضطر فيفهم أن الحقيقة على خلاف ذلك قائلاً: «كم من عثار وقيته»[٢]، و إنّ اليد التي ظهرت و أخذت بيدي هي يد الله و هو الذي أمرها بذلك. فإنّ هذه الآية لا تعني بأن الله يجيب المضطر و لا يجيب غير المضطر، سوى أن المضطر يعلم من هو المجيب و أما غير المضطر فإما أن يكون عديم الفهم من الأساس أو أن فهمه مشوب بالشرك، و لذا تجده يقول: اعتمد أولاً على الله و ثانياً ليغفر الله لوالد فلان، فهل الشرك غير ذلك؟ إذ أنّ الموحّد لا يملك مثل هذا المنطق و الفكر؛ بل يقول: أشكر الله على أن حلّ مشكلتي عبر هذا الطريق. معتبراً هذه الطرق مجرى للفيض الإلهي.

حقيقة الدعاء

إنّ من يعبد الله للخلاص من النار أو للوصول إلى الجنة لا تكون عبادته خالصة؛ لأنه عبد الله لدفع أو استجلاب شيء. فإنّ عبادته و إن كانت صحيحة و أسقطت عنه التكليف؛ و لكن إذا نظر إليها بنظرة أعلى وجدها مشوبة. و لذا لا ينبغي أن نطلب من الله غير الله، فإنّ الله تقدّست أسماؤه يُنجي عبده الصالح من النار و يدخله الجنة، و

---

١ . سورة النمل، الآية ٦٢.

٢ . من فقرات دعاء كميل.

لكن لا يسوغ للعبد أن يطلب من الله غير الله.

فإنّ طلب غير الله من الله نقصان لا زيادة[١].

و إنّ حقيقة الدعاء هو أن يزور العبد ربه فيستضيفه الله و يُقبل عليه. و لذا فإنّ أبرز فقرات المناجاة الشعبانية هي: «و أقبل عليّ إذا ناجيتك»، أي أن مناجاتي لم تكن إلا للإقبال لا للإعطاء.

و حكمة الدعاء في الحقيقة هي روح الدعاء بأن يجد الداعي نفسه في مشهد و منظر المدعوّ و هو الله سبحانه فيُشهده نفسه فيحصل ارتباط و اتصال آخر بين الشاهد و المشهود.

الشاهد و المشهود

إنّ الأصل المشترك في جميع العبادات هي أن الإنسان لا يصل إلى سرّ العبادة إلا إذا شاهد المعبود، و إن باطن عبادة المعبود مشاهدة المعبود.

فإن أراد الإنسان أن يعرف بأنه في العبادة هل يراعي الأحكام و الآداب فحسب أم أنه اجتازها و وصل إلى حكمة العبادة، عليه أن يرئ بأنه يشاهد المعبود أم لا؟ و إن لمشاهدة المعبود درجات، يكون حساب البدائية منها بيد الإنسان أما الدرجات النهائية إذا وصل إلى تلك المرحلة فلا تبقى بيده.

فإن الدرجات البدائية لمشاهدة المعبود هي أن ينظر الإنسان هل يوجد في قلبه و روحه غير الله؟ و ما هي متعلقاته؟ فإن كان متعلقاً بنفسه و لذائذه الشخصية و تعلقاته الجزئية يتضح أن الله غير خالص في قلبه و لم يصل إلى حكمة العبادة؛ إذ لا يصل إلى حكمة العبادة إلا إذا شاهد العابد المعبود و لم يكن في ضمير العابد حاضر و

---

١ . بيت بالفارسية و هذا نصه:

از خدا غير خدا را خواستن ظن فزوني است كلي كاستن



لا ناضر سوىٰ المعبود.

و إنّ المراحل النهائية لمشاهدة المعبود هي قول علي بن أبي طالب عليه السلام: «ما كنت أعبد رباً لم أره»[١] في عين الباطن. و إن هذا النمط من العبودية و المعرفة مختصة بأولياء الله. و في الحقيقة ما هو مراد العابد؟ هل يطلب الله لنفسه أم نفسه لله؟ و هل يعبد الله ليهيء وسيلة رفاهيته؟ و يجعله وسيلة للتنعم و الذهاب إلى الجنة؟ أم يعبد الله لحبه إياه و استجلاب رضاه؟

* * *

١ . التوحيد للصدوق، ص٣٠٨.

القسم التاسع:

التولي و التبري و حكمتهما

الجاذبة و الدافعة في المخلوقات

لا يوجد شيء في العالم يخلو من بعدين هما الجذب و الدفع و النفي و الإثبات، غير أن هذين البعدين مودعان في الإنسان المؤمن برقة.

و في رسالة منسوبة إلى الخواجة نصير الدين الطوسي ﵀، يقول فيها:

«إنّ الذي يوجد في نوع الجمادات باسم الجذب و الدفع، موجود في النباتات أيضاً»[1].

إذ لو أراد الحجر أو التراب أن «يكون ياقوتاً في بدخشان أو عقيقاً في اليمن» لابد له من جذب التراب المستعد و المناسب و دفع المواد غير الملائمة. فلا يليق بكل تراب أن يتبدل إلى عقيق أو ياقوت، و إن جذب المناسب و دفع اللامناسب موجود في جميع أنواع المعادن و النباتات و التراب. فإنّ النبات على سبيل المثال لا يجذب كل غذاء، بل

1. رسالة التولي و التبري، المطبوعة مع كتاب الأخلاق للمحتشمي، ص٥٦٢.

يجذب ما يناسبه و يدفع ما لا يناسبه. و يظهر هذا الجذب و الدفع في الحيوانات على هيئة «شهوة» و «غضب». و في الإنسان فهما أكثر رقة حيث يتجلى بصورة «محبة» و «عداء» و في مرتبة أعلى يزداد رقة فيظهر على شكل «إرادة» و «كراهة». فإن اجتاز هذه المراحل كلها و ازداد رقة و لطافة ظهر على صورة «تولٍّ» و «تبرٍّ»، و هذه من صفات خاصة أولياء الله المؤمنين.

فعلى المؤمن أن يتولى و أن يهب الروح لحبّه و عدائه المودعان في ذاته، و أن يذيقها سرّ هذه المحبة و باطنها لتتحلى بالحياة و إلا فإن الحبّ و العداء موجودان عند كثير من الناس.

حرم الله

إذا خاف الإنسان من الله و وقع حبه في قلبه وجبت له الجنة؛ إذ قد يجعل الإنسان الله وسيلة للوصول إلى الجنة، و هذا ناجم من الهمم الدنية التي يكرهها الله و قد لا يطلب من الله شيئاً سواه، و لا يسأله إلا حبه و لقاءه، فإنّ الله في هذه الحالة سيحبره بهذه النعمة العظيمة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا تجتمع الرهبة و الرغبة في قلبٍ إلا وجبت له الجنة»[1].

و قال أيضاً: «تبحّروا قلوبكم فإن أنقاها الله من حركة الواجس لسخط شيء من صنعه فإذا وجدتموها كذلك فاسألوه ما شئتم»[2].

فإنّ دعاء الموحّد مستجاب و الموحّد هو الذي لا يوجد في قلبه سوى الإيمان بالله و هو الذي وصل إلى سرّ التوحيد.

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٥، ح١١.

٢. الأمالي للشيخ المفيد، ص٦٧، المجلس ٧، ح١.

تولّي رسول الله ﷺ

قال النبي الأكرم ﷺ في الخطبة الشعبانية: «و من أكثر فيه من الصلاة عليّ ثقّل الله ميزانه يوم تخفّف فيه الموازين»[1].

إنّ لكل متاع أو ظاهرة في الدنيا ميزان خاص بها، فعلى سبيل المثال تُقاس درجة حرارة الهواء و برودته بجهاز خاص، و يُقاس ميزان ضغط ماء النهر بوسيلة معينة، و هناك في المسائل الأدبية أوزان خاصة لتقييم الشعر. و أعمال الإنسان أيضاً توزن في يوم القيامة بميزان خاص و تُحسب كيفيتها و كميتها بطريقة محددة و قد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾[2]، فقد وردت كلمة الحق مع الألف و اللام و هذا يعني أن أعمال الناس و عقائدهم و أخلاقهم و... توزن يوم القيامة بميزان «الحق»، فيوضع الحق في كفة الميزان و الأعمال و الأخلاق و... في الكفة الأخرى ليُعلم أيّ عمل مع الحق و أيّ عمل عارٍ من الحق؛ فمن ثقلت أعماله فهو من السعداء و من خفّت أعماله فهو من الأشقاء.

و قد روي عن علي عليه السلام و كذا عن النبي ﷺ أنهما قالا: «زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا»[3]، أي زنوا أنفسكم بالحق و بالقرآن الكريم لتعرفوا هل أن أعمالكم مطابقة للحق أم لا؟ و هذا ليس بالأمر العسير.

فأرشدنا النبي إلى أن الصلاة عليه تُثقل ميزان الأعمال، و إلا فلا يصل كمال إليه إثر صلاتنا، حيث أن الله أعطاه و يُعطيه ما يليق به من كمال، فإنّ ما نطلبه كواسطة فيض و علة فاعلية لا يوجب خيراً، بل تؤدي صلاتنا إلى ظهور كمالاته، فإنّ علته

---

١. الأربعون حديثاً للشيخ البهائي، ص١٧٩، ح٩.

٢. سورة الأعراف، الآية ٨.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٨٠.

الفياضة هو الله سبحانه و لا يصل إليه منا خير بل إن كل ما نملكه هو حصيلة تربيته؛ و شأن ذلك شأن المُزارع الذي يجني باقة ورد من المزرعة في يوم العيد و يهديها لصاحب المزرعة فهل أهدىٰ المزارع شيئاً من عنده لصاحب المزرعة؟ و نحن قد حظينا بأزهار كثيرة من روضة النبي ﷺ و إن قدمنا باقة ورد فهي من روضته بيد أنها مدعاة للقرب و الوصول إلى الكمال.

معنى الصلاة على النبي ﷺ

يُراد بالصلاة على النبي هو: إلهي ارحم النبي و آله، فإن حلّت الرحمة به حلّت بالآخرين أيضاً لأنه مجرىٰ الفيض و إن أراد الله أن يصيب امرأً خيراً لابد أن يصيب النبي أولاً كرمة خاصة ثم يصل إلى الآخرين.

قال علي عليه السلام: «إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله ﷺ ثم سل حاجتك فإن الله أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي إحداهما و يمنع الأخرىٰ»[1].

و قد علّمنا الإمام السجاد عليه السلام طريقة الدعاء و طلب الحاجة؛ إذ نجد الصلاة في كثير من فقرات دعائه حيث يبدأ أو يختم كل حاجة يريد مسألتها من الله بالصلاة، لأن الله ببركة الصلاة يستجيب الدعاء المقترن بها.

و إنّ الله و ملائكته يصلون على النبي و على المؤمنين كذلك! حيث يصل المؤمن إلى مرتبة يحظىٰ بصلاة الله سبحانه و الملائكة عليه! و هذا ما ورد في سورة الأحزاب؛ و هو صلاة الله و ملائكته على النبي و صلاتهم على المؤمنين.

ثم إنّ صلاة الله التي تعتبر من صفات فعله إنما هي الإدخال إلى النور، و إنّ قول

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ٣٦١.

الله عين فعله، و هذا النور إذا وفّق إليه الإنسان و شاهده في فضاء قلبه و أحسّ بانقشاع الظلمة عنه يدل على فوزه بصلوات الله و ملائكته.

يقول الله سبحانه في تكريم النبي: ﴿إِنَّ اللهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾[1]، فإنّ الله إذا أراد أن يصليّ على نبيه العظيم أردف ملائكته بأسرهم معه، كما إذا دخل ضيف عزيز مدينة و أراد أحد أعلامها إكرامه بأحسن وجه خرج لاستقباله مع كل أصحابه و أقربائه.

و لكن الله سبحانه و تعالى يقول في إكرام المؤمنين و الصلاة عليهم: ﴿هُوَ الَّذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ...﴾[2]، يعني أن الله و ملائكته يصلون على المؤمنين كلّ على انفراد، و الفرق الآخر هو أنّ الله لم يقل حول النبي بأننا نصلي عليه لنخرجه من الظلمات إلى النور؛ لأنه نور بذاته و مصداق كامل لقوله: ﴿وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[3]، و لكنه يقول بشأن المؤمنين: ﴿هُوَ الَّذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ فيظهر من ذلك أن صلاة الله هي الإدخال إلى النور و إن انقطع هذا الفيض عن أحد و ترك الله الصلاة عليه سيقبع في الظلمة.

فلابد أن نزن أنفسنا بهذا الميزان و هو أن توفيق الطاعة و أداء التكاليف الشرعية و العبور من أحكام العبادات و آدابها و معرفة حكمتها بشكل من الأشكال يدل على نيل صلوات الله و ملائكته و إلا فهي الابتلاء بالذنوب و تراكم العثرات. و إن دخل النور في قلب المؤمن عبر هذا الطريق، استطاع أن يرى طريقه و أن يقود الآخرين و يدلهم على الطريق.

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

٢. سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

٣. سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

يقول علي عليه السلام: «ليس في البرق الخاطف مستمتع لمن يخوض في الظلمة»[١]، فالإنسان الذي يخوض في الظلم و المسافر الذي ظلّ طريقه في غسق الليل لا ينفعه البرق الخاطف و لا يهتدي إلىٰ الطريق. و الإنسان الطالب للدنيا شأنه شأن الخائض في الظلمة لا ينفعه النور الذي يبرق في قلبه ثم يُطفأ.

و قد وردت في ذيل قوله تعالىٰ: ﴿وَ ما تَشاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ يَشاءَ اللّٰهُ﴾[٢] رواية شريفة عن المعصوم عليه السلام أنه قال: «بل قلوبنا أوعية لمشيّة الله»[٣]، فإن أراد الله أن يقوم بفعل معين فعله بإرادته و إرادة الله صفة فعله و زائدة علىٰ ذاته و تظهر في المظاهر و المخلوقات الممكنة، و المظهر هو القلب المعصوم لأولياء الله.

و لذا ذكر المرحوم الأستاذ العلامة الطباطبائي قدس سره أنّ معنىٰ الصلاة علىٰ محمد و آل محمد عليهم السلام هو طلب الرحمة من الله عليهم لتصل منهم إلينا، فإذا أراد الله نزول الرحمة فلابد و أن يتم في بادئ الأمر علىٰ أهل البيت ثم يصل إلىٰ الآخرين و لذا فإن طلب الرحمة يستلزم استجابة الدعاء.

و قد نقل المرحوم السيد حيدر الآملي هذا الكلام الرفيع و يُنسب إلىٰ المحقق الطوسي كذلك أن هذا الكلام يقال لصاحب العصر و الزمان عجل الله فرجه لأن: «بيُمنه رُزق الورىٰ و بوجوده تنبت الأرض و السماء»[٤]. إذن فجميع البركات تحل بالناس من خلال أهل هذا البيت عليهم السلام.

الصورة البهية للولاية

عن أبي بصير أحد تلامذة الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام عن أحدهما عليهما السلام قال:

---

١. نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، ج٢٠، ص٤٣٥، ملحقات الحكمة ١٦٥.

٢. سورة الإنسان، الآية ٣٠.

٣. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٣٣٦.

٤. مفاتيح الجنان، دعاء العديلة.

إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستة صور فيهن صورة هي أحسنهنّ وجهاً و أبهاهنّ هيئة و أطيبهنّ ريحاً و أنظفهنّ صورة، قال: فيقف صورة عن يمينه و أخرىٰ عن يساره و أخرىٰ بين يديه و أخرىٰ خلفه و أخرىٰ عند رجله و تقف التي هي أحسنهنّ فوق رأسه فإن أُتي عن يمينه منعته التي عن يمينه ثم كذلك إلىٰ أن يُؤتىٰ من الجهات الستّ، قال: فتقول أحسنهنّ صورة: و من أنتم جزاكم الله عني خيراً؟ فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، و تقول التي عن يساره: أنا الزكاة، و تقول التي بين يديه: أنا الصيام، و تقول التي خلفه أنا الحج و العمرة، و تقول التي عند رجليه أنا برّ من وصلت من إخوانك.

ثم يقلن من أنت فأنت أحسننا وجهاً و أطيبنا ريحاً و أبهانا هيئة؟ فتقول: أنا الولاية لآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين[1].

نعم فإن اتباعهم و محبة علي و أولاده تتجسم بهذه الصورة النورانية الفائقة علىٰ غيرها من الصور و هذه هي حكمة المحبة فتارة يتصور الإنسان أهل البيت عليهم السلام و يتعلّق قلبه بهم صورياً و تارة يكون متعطشاً لهم و هذا هو سرّ الولاية.

أفضل ذخر في الحياة

ما لم يصل الإنسان إلىٰ معرفة شيء لا يصل إلىٰ محبته، و قيمة كل امرئ بمقدار حبه و كلّ يُحشر مع محبوبه.

فإن أراد الإنسان حبّ علي و أولاد علي عليهم السلام ، عليه بعد معرفة الله أن يتولاهم إذ لا يوجد ذخر أسمىٰ و أعلىٰ من التولي و التبري.

و إن الاعتراف بالشيء غير المحبة؛ فقد يتحتم علىٰ الإنسان في المسائل العسكرية أو القانونية أن يحترم شخصاً، سوىٰ أن المحبة شيء آخر. و قد يتتلمذ الإنسان علىٰ يد

---

١ . بحار الأنوار، ج٦، ص٢٣٤.

جمع غفير من الأساتذة و لكنه يقع في قلبه محبة واحد منهم. فإن المحبة غير التعظيم و التجليل و التكريم. تلك الطاعة و الانقياد و هذه المودة و العلقة.

و قد أمرونا بمودة علي و أولاد علي عليهم السلام، فإنها ذخر لنا و من أركان الدين الرئيسة الموسومة بالولاية. و هي لا تقتصر على قبول ولايتهم بل لابد من ذكرهم في جميع الصلوات. فهل هناك صلاة تخلو من ذكر علي و أولاد علي؟ و هل هناك صلاة لا تشهّد فيها؟ فمن واجبات التشهد قول «اللهم صلّ على محمد و آل محمد»، و الصلاة عليهم تلي الشهادتين في وسط العبادة.

قال النبي صلى الله عليه وآله: «من صلّى عليّ و لم يصلّ على آلي، لم يجد ريح الجنة و إنّ ريحها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام»[1]. فالكلام لا يدور عن التجليل و التكريم قانونياً و الطاعة بما أمروا به، فإن هذا هو أول مراحل الاتباع، بل أمرونا بمودتهم و لا تتيسّر المودّة لأحد إلا من خلال المعرفة و المعرفة هي باطن العبادة.

حكمة المحبة

جاء رجل من أهل البادية فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فحضرت الصلاة فلما قضى صلاته قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: أنا يا رسول الله، قال: فما أعددت لها؟ قال: و الله ما أعددت لها من كثير عمل لا صلاة و لا صوم إلا أني أحب الله و رسوله، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «المرء مع من أحب»[2] يعني إذا كانت المحبة صادقة فتحشر مع من أحببت، فكيف يمكن أن يكون الإنسان محباً لهم و لا يقتفي أثرهم؟ و إذا كان الإنسان محباً لهم و لكن لا يتحلى بصفاتهم فهو ليس معهم. فالمحبة الخالية من الطاعة ليست بمحبة؛ بل هي تمنّي لأن المحبة هي أعلى مراتب الإرادة. فأيّ محبة هذه

١ . سفينة البحار، ج٥، ص١٧١.

٢ . بحار الأنوار، ج١٧، ص١٣.

إذا شابها العمل بميول المحب و خلت عن رضى المحبوب.

و لما حضرت النبي ﷺ الوفاة، أخذ أصحابه يبكون حوله، فسألهم عن علة بكائهم فذكروا له فقدانه و انقطاع الوحي بعده و ما سيجري على الأمة من بعده.

و روي عن عبد الرزاق بن قيس الرحبي قال: كنت جالساً مع علي بن أبي طالب عليه السلام على باب القصر حتى ألجأته الشمس إلى حائط القصر فوثب ليدخل فقام رجل من همدان فتعلق بثوبه و قال: يا أمير المؤمنين حدثني حديثاً جامعاً ينفعني الله به، قال: أو لم يكن في حديث كثير؟ قال: بلى و لكن حدثني حديثاً جامعاً ينفعني الله به قال: «... أنت مع من أحببت و لك ما اكتسبت»[١].

فلا ينبغي علينا أن نفكّر بكلّ شيء و لا نفكّر بأنفسنا، و لا ننظر إلى سرائرنا لنرى من الذي تريده و ماذا تطلبه. فقد يقضي الإنسان عمراً في غفلة و لا يدري ماذا يريد.

حديث بين الوالد و ولده

عن الأصبغ بن نباتة العبدي ـ و هو من خاصة تلامذة علي عليه السلام ـ قال: لما ضرب ابن ملجم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام غدونا عليه نفر من أصحابنا أنا و الحارث و سويد بن غفلة و جماعة معنا فقعدنا على الباب فسمعنا البكاء فبكينا فخرج إلينا الحسن بن علي عليه السلام فقال: يقول لكم أمير المؤمنين انصرفوا إلى منازلكم، فانصرف القوم غيري و اشتد البكاء من منزله فبكيت فخرج الحسن عليه السلام فقال: ألم أقل لكم انصرفوا؟ فقلت: لا و الله يا ابن رسول الله ما تتابعني نفسي و لا تحملني رجلي أن أنصرف حتى أرى أمير المؤمنين عليه السلام، قال: فتلبث، فدخل و لم يلبث أن خرج فقال لي: ادخل، فدخلت على أمير المؤمنين عليه السلام فإذا هو مستند معصوب الرأس بعمامة صفراء قد نزف و اصفر وجهه ما أدري وجهه أصفر أو العمامة فأكببت

---

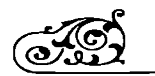
١ . أمالي الشيخ المفيد، ص١٨، المجلس ١، ح٣.

عليه فقبلته و بكيت، فقال لي: لا تبك يا أصبغ فإنها و الله الجنة (و هذا هو كلام أهل اليقين)، فقلت له: جعلت فداك إني أعلم و الله إنك تصير إلى الجنة و إنما أبكي لفقداني إياك (فهو تلميذ نفس هذا الإمام، حيث ورد في القرآن الكريم بأن البعض صائر إلى الجنة أي يصبح جنة لا أنه سائر إليها)، يا أمير المؤمنين جعلت فداك حدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ فإني أراني لا أسمع منك حديثاً بعد يومي هذا أبداً، فقال: نعم يا أصبغ دعاني رسول الله ﷺ يوماً فقال لي: يا علي انطلق حتى تأتي مسجدي ثم تصعد على منبري ثم تدعو الناس إليك فتحمد الله عز و جل و تثني عليه و تصلي عليّ صلاة كثيرة ثم تقول: أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم و هو يقول لكم ألا إن لعنة الله و لعنة ملائكته المقربين و أنبيائه المرسلين و لعنتي على من انتمى إلى غير أبيه أو ادعى إلى غير مواليه أو ظلم أجيراً أجره، فأتيت مسجده و صعدت منبره فلما رأتني قريش و من كان في المسجد أقبلوا نحوي فحمدت الله و أثنيت عليه و صليت على رسول الله ﷺ صلاة كثيرة ثم قلت: أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم و هو يقول لكم ألا إن لعنة الله و لعنة ملائكته المقربين و أنبيائه المرسلين و لعنتي على من انتمى إلى غير أبيه أو ادعى إلى غير مواليه أو ظلم أجيراً أجره، قال: فلم يتكلم أحد من القوم إلا عمر بن الخطاب فإنه قال: قد أبلغت يا أبا الحسن و لكنك جئت بكلام غير مفسر، فقلت: أبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته الخبر، فقال: ارجع إلى مسجدي حتى تصعد منبري فاحمد الله و أثن عليه و صل عليّ ثم قل: أيها الناس ما كنا لنجيئكم بشيء إلا و عندنا تأويله و تفسيره ألا و إني أنا أبوكم ألا و إني أنا مولاكم ألا و إني أنا أجيركم[1].

فمن لم ينتسب إلى أبيه، لم ينتم إلى النبي، و قد ورد في هذا الشأن: «أنا و علي أبوا هذه الأمة»، و من لم يرتبط بهذا الأب و لم يكن له ولداً فقد شملته لعنة الله و ملائكته.

---

١. أمالي الشيخ المفيد، ص٤٠٢، المجلس ٤٢، ح٣.



و لا يتأتى هذا الارتباط و الانتماء إلا عبر المحبة، و لا تتيسر المحبة من دون المعرفة و المعرفة من دون الطاعة. فإن طاعة الله و عبادته تصيّر الإنسان عارفاً و العارف محباً بأمر من النبي ﷺ.

و قوله: أنا مولاكم و أجيركم، أي أنا مولاكم فلا تقطعوا الارتباط معي و أنا أجيركم فلابد من إعطاء الأجرة لي، و أجرته ليست إلا المودة لأهل بيته: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[1]، فإنّ حصيلة ما بذلته من جهود خلال أعوام هو محبة علي و أولاد علي عليه السلام، فكونوا محبين للعترة الطاهرة، و إن ذكرتموهم فلتتفتّح قلوبكم و لتنتعش نفوسكم، و خذوا منهم الأوامر و النواهي و اتّبعوهم و أطيعوهم، فإن أجر رسالتي المودة و هي وليدة المعرفة و المعرفة أيضاً وليدة الطاعة.

تقبّل الولاية من أعماق القلب

لا تتأتى مودة هذه العترة لأي أحد، فإنها ليست بالأمر الهيّن و هي غير الطاعة القانونية. فلا تتولّد المحبة بين كل تلميذ و أستاذ و إنما هي شيء آخر. و إن مودة علي و أولاد علي عليهم السلام لا تقتصر على قبول كل ما يصدر منهم بل هو فوق ذلك، فالكلام عن المودة و هو الإيمان بالقلب.

و لو كان الناس في بلدة كإيران مستعدون للدفاع عن مملكتهم سواء تعرّضت لهجوم القوى العظمى أم لا، فإن ذلك ناتج من حبهم للحسين بن علي عليهما السلام و لا يحفظ البلاد سوى ذلك، فإنهم يعلمون أن الشهيد لا ينال السعادة الأبدية و أن أسرته لا تؤمّن حياتهم إلا عبر التعلق و الارتباط بهذه العترة و هذه هي جذبة العشق و المودة لأهل البيت عليهم السلام.

---

١ . سورة الشورى، الآية ٢٣.

كان الحسن بن علي عليهما السلام في أكثر أسفاره إلى مكة و مع وجود الدوابّ و المراكيب الجيدة يخرج ماشياً لاكتساب مزيد من الفيض و البركة و في إحدى أسفاره تورّمت قدماه فقال له بعض مواليه: لو ركبت لسكن عنك هذا الورم، فقال: كلا إذا أتينا هذا المنزل فإنه يستقبلك أسود و معه دهن فاشتر منه و لا تماكسه، فقال له مولاه: بأبي أنت و أمي ما قدمنا منزلاً فيه أحد يبيع هذا الدواء، قال: بلى إنه أمامك دون المنزل، فساروا أميالاً فإذا هو بالأسود فقال الحسن عليه السلام لمولاه: دونك الرجل فخذ منه الدهن و أعطه الثمن، فقال الأسود: يا غلام لمن أردت هذا الدهن؟ فقال: للحسن بن علي عليهما السلام، فقال: انطلق بي إليه، فانطلق فأدخله إليه فقال له: بأبي أنت و أمي لم أعلم أنك تحتاج إلى هذا و ترى ذلك و لست آخذ له ثمناً إنما أنا مولاك و لكن ادع الله أن يرزقني ذكراً سوياً يحبكم أهل البيت فإني خلفت أهلي تمخض، فقال: انطلق إلى منزلك فقد وهب الله لك ذكراً سوياً و هو من شيعتنا[1].

المظهر الأتم للولاية المطلقة

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نفسه و هو الذي لا نظير له بعد رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا إني عبد الله و أخو رسوله و صدّيقة الأول، صدّقته و آدم بين الروح و الجسد»[2]، فيظهر أنّ آدم أبا البشر أصبح مسجوداً للملائكة لتكريم الولاية المطلقة التي يعدّ هو عليه السلام واحداً من مظاهرها و المظهر الأتم لها منه علي و أولاد علي عليهم السلام.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في شأن علي عليه السلام: «علي مني و أنا منه»[3]، فهو بمثابة نفس النبي و لذا قال: «يا علي، من قتلك فقد قتلني و من أبغضك فقد

---

١ . الكافي، ج١، ص٤٦٣.

٢ . أمالي الشيخ المفيد، ص١٧، المجلس ١، ح٣.

٣ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣.

أبغضني»[1].

و على هذا الأساس ورد في الكتب الكلامية عن المرحوم المحقق الطوسي و تلميذه المرحوم العلامة الحلي رحمهما الله أنهما قالا: «محاربو علي كفرة و مخالفوه فسقة»، و ذلك لقول النبي صلى الله عليه وآله فيه: «حربك حربي» و الذي يخالف علياً عليه السلام فهو ليس بمعاند بل فاسق.

صاحب الجنة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّ حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب فإذا دُقّت الحلقة على الصفحة، طنّت و قالت: يا علي»[2].

و دقّ الباب ينبأ عن أدب الضيف و لو كان الباب مفتوحاً فإن باب الجنة مفتوح و لكن أصحاب الجنة إذا أرادوا الدخول طرقوا بابها.

يذكر المرحوم العلامة الطباطبائي رحمه الله في شرح هذا الحديث و أنّه لماذا يكون طنين دقة الباب يا علي بأن الضيف إذا أراد الدخول إلى دار دعا صاحبه إن كان لصاحب الدار اسم معيّن. و إنّ صاحب الجنة و مُضيفها علي بن أبي طالب عليه السلام، و لذا صار طنين دقة الباب في الجنة أيضاً يا علي، إذ لا يمكن دخول الجنة إلا في ظل هداية هذه العترة و قيادتهم و هو ضيفهم فيها.

فلو لم تكن هذه الأنوار الطيبة لما سلك أحد طريق الجنة، و نحن الآن يمكننا أن نعرف جيداً بأننا في الجنة أم لا، و أنّ أبواب الجنة مفتوحة أمامنا أم لا.

مدينة الحكمة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أنا مدينة الحكمة و هي الجنة و أنت يا علي

---

١. بحار الأنوار، ج٤٢، ص١٩٠.

٢. الأمالي و المجالس للصدوق، ص٤٧١، المجلس ٨٦، ح١٣.

بابها»[1].

لا تعني هذه العبارة بأن المدينة محيطة بالجدران و بابها في جانب منها، بل إن الباب محيط بكل أطراف المدينة و الوصول إلى النبي من أيّ طرف كان لا يمكن إلا من خلال علي عليه السلام. و ذلك كما يجعل الله السماء بأسرها باباً عند يوم القيامة حيث قال: ﴿وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً﴾[2]، فالسماء كلها باب للعبور و اجتياز الإنسان و لم تحتل الباب جانباً و زاوية منها.

إذن فالدخول في مدينة الحكمة و هي الجنة لا يمكن إلا عبر الاستمداد بولاية أهل بيت العصمة و الطهارة عليهم السلام.

فضائل علي عليه السلام في كلام سعد بن أبي وقاص

قال سعد بن أبي وقاص لرجلين التقى بهما و هو في طريقه إلى مكة: ... الله أكبر الله أكبر قد ضللت إذن و ما أنا من المهتدين إن أنا قاتلته (أي علي عليه السلام) بعد أربع سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وآله فيه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من الدنيا و ما فيها... .

١- علي من النبي و النبي من علي

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر ببراءة لينبذ إلى المشركين فلما سار ليلة أو بعض ليلة بعث بعلي بن أبي طالب نحوه فقال: اقبض ببراءة منه و اردده إليّ، فمضى إليه أمير المؤمنين عليه السلام فقبض براءة منه و ردّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فلما مثل بين يديه بكى و قال: يا رسول الله أ حدث فيّ شيء أم نزل فيّ قرآن؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لم ينزل فيك قرآن

---

١. بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٢٠٠.

٢. سورة النبأ، الآية ١٩.

و لكن جبرئيل عليه السلام جاءني عن الله عز و جل فقال: لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك و علي مني و أنا من علي و لا يؤدي عني إلا علي[1].

و هذا شبيه لما ورد في الحسين بن علي عليهما السلام: «حسين مني و أنا من حسين»[2].

و في رواية كان الإمام الصادق عليه السلام يلوم عبد الله ابنه و يعظه و يقول له: ما يمنعك أن تكون مثل أخيك فو الله إني لأعرف النور في وجهه، فقال عبد الله: و كيف أ ليس أبي و أبوه واحداً و أصلي و أصله واحداً؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: إنه من نفسي و أنت ابني[3]. ففي ظهورك كان البدن دخيلاً و روحي كانت هي الدخيلة في ظهوره و تجليه، فللابن معنىً و لاستخلاف المقام معنىً آخر.

٢- سدّ الأبواب إلى باب علي عليه السلام

كنا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله و آل علي و آل أبي بكر و آل عمر و أعمامه، قال: فنودي فينا ليلاً أخرجوا من المسجد إلا آل رسول الله و آل علي، قال: فخرجنا نجر قلاعنا فلما أصبحنا أتاه عمه حمزة فقال: يا رسول الله أخرجتنا و أسكنت هذا الغلام و نحن عمومتك و مشيخة أهلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أنا أخرجتكم و لا أنا أسكنته و لكن الله عز و جل أمرني بذلك.

كم من مقام رفيع لعلي عليه السلام فإنه يمكن أن يستفيد من المسجد كاستفادته من بيته.

و ما ورد في دعاء الندبة: «و سدّ الأبواب إلا بابه» هو إشارة إلى هذا المعنى.

فيا له من مقام عظيم، حيث تُأمر مريم عليها السلام بالخروج من البيت المقدس و يُطلب من فاطمة بنت أسد بالدخول و يفتح لها جدار الكعبة.

---

١ . بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣.

٢ . بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٦١.

٣ . بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٨.

٢- حامل الراية في خيبر

هذه فضيلة أخرىٰ لعلي بن أبي طالب عليه السلام حيث بعث رسول الله صلى الله عليه وآله برايته إلى خيبر مع أبي بكر فردّها فبعث بها مع عمر فردّها فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله و قال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله و رسوله و يحب الله و رسوله كراراً غير فرار، لا يرجع حتىٰ يفتح الله علىٰ يديه، قال: فلما أصبحنا جثونا علىٰ الركب فلم نره يدعو أحداً منا ثم نادىٰ: أين علي بن أبي طالب؟ فجيء به و هو أرمد فتفل في عينه و أعطاه الراية ففتح الله علىٰ يديه[1].

و قد قال علي عليه السلام: «لا أبالي أ دخلت إلىٰ الموت أو خرج إليّ الموت»[2]، فلم يفرّ من أيّ معركة و لم يكن لدرعه ظهر و لذا قال النبي فيه: «كرار غير فرار لا يرجع حتىٰ يفتح الله علىٰ يديه».

هذا و قد حرّض أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه بأن لا يخلطوا الأحاسيس و العواطف في المسائل العسكرية و الحربية[3].

و في إحدىٰ الحروب أُسر جمع من أصحاب علي عليه السلام فطلبوا من الإمام أن يُخصص مقداراً من بيت المال لإطلاق سراحهم فقال: «من استأسر من غير جراحة مُثخنة فلا يُفدىٰ من بيت المال»[4]، أي أن إطلاق الأسير أمر مطلوب و استدامة للجهاد، و لكن من يرفع يده سراعاً و يستسلم لأي حادث فهو ليس بشجاع. فلابد من إطلاق الأسير الذي جُرح من مقدّمة بدنه لأن ذلك يدل علىٰ مقاومته و صموده حتىٰ آخر لحظة، و أما من جُرح في ظهره فقد أُسر حين الفرار. و الفارّ من الزحف لا

---

١ . الأمالي و المجالس للصدوق، ص٤١٥، المجلس ٧٧.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٥٥.

٣ . الكافي، ج٥، ص٣٩، ح٤.

٤ . وسائل الشيعة، ج١٥، ص٨٦.



ينفع لأنه لا يعرف الشهادة، و يزعم أن الموت فناء و يُفضّل البقاء. ألم يعلم بأنه: «ما الموت إلا قنطرة تعبر بكم» كما قال الحسين بن علي عليهما السلام[1].

فإنّ علياً عليه السلام الذي يُعطي إفطاره للأسير، يأمر حين تحرير أصحابه الأسارى بأن لا يُصرف من بيت المال لإطلاق سراح الأسير المجروح من خلف، لأن ذلك ينبأ عن فراره و الفارّ من الزحف لا ينفعنا فهو يرى نفسه أعظم من الدين و لا يعلم أن الشهادة هي الجنة و السعادة.

و قال علي عليه السلام في كتابه لسهل بن حنيف الأنصاري: «ما قلعت باب خيبر... بقوة جسدية و لا حركة غذائية لكني أُيدت بقوة ملكوتية و نفس بنور ربها مضيئة»[2].

إن قوة جبرائيل لم تكن من التغذي و إنما هي قوة ربانية[3]

و قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما ضعُف بدن عمّا قويت عليه النية»[4]، فالبدن تابع للإرادة بمقدار قوتها و مطاع منها بمقدار ضعفها، و كانت إرادة علي عليه السلام قوية، فاكتسب البدن على إثرها قوة خارقة.

٤- حبيب قلب النبي صلى الله عليه وآله

إن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج غازياً إلى تبوك و استخلف علياً على الناس فحسدته قريش و قالوا: إنما خلّفه لكراهية صحبته، قال: فانطلق في أثره حتى لحقه فأخذ بغرز ناقته ثم قال: إني لتابعك، قال: ما شأنك؟ فبكى و قال: إن قريشاً تزعم أنك إنما

---

١ . «صبراً بني الكرام فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس و الضراء إلى الجنان الواسعة و النعيم الدائمة» (معاني الأخبار، ص٢٨٨).

٢ . الأمالي و المجالس للصدوق، ص٤١٥، المجلس ٧٧، ح١٠.

٣ . بيت بالفارسية في مثنوي مولوي، الكتاب الثالث، و هذا نصه:

قوت جبرائيل از مطبخ نبود　　بود از ديدار خلاق ودود

٤ . وسائل الشيعة، ج١، ص٥٣.

خلفتني لبغضك لي و كراهيتك صحبتي، قال: فأمر رسول الله ﷺ مناديه فنادىٰ في الناس ثم قال: أيها الناس أ فيكم أحد إلا و له من أهله خاصة؟ قالوا: أجل، قال: فإن علي بن أبي طالب خاصة أهلي و حبيبي إلىٰ قلبي (و كان ذلك منه مع أنه لم يفكر إلا بالله و ليس له محبوب سوىٰ الله، لأن علياً مظهر لله و حبّه حبّ الله)، ثم أقبل علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنه لا نبي بعدي؟ فقال علي عليه السلام: رضيت عن الله و رسوله[1].

شريك القرآن

يُطلق الشريك علىٰ قطعة من الحبل التي تربط بين طرفين مفتوحين. و إنّ مقام الإمامة و حقيقة القرآن ثقلان ثقيلان، و الإمام هو الذي يربط القرآن بالإمامة و الإمامة بالقرآن و لذا فهو شريك القرآن.

قال موسىٰ الكليم مخاطباً الله عز و جل: إلهي لقد وضعت علىٰ كاهلي ثقلاً ثقيلاً، و لابد من مقارعة فرعون؛ فاجعل للنجاح في هذا العمل هارون أخي شريكاً في أمري: ﴿وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[2].

و إنّ رسالة النبي و برنامجه هو القرآن الكريم، و لذا فإنّ خُلُقه القرآن أيضاً، فمن كان شريكاً لرسول الله صار شريكاً للقرآن كذلك و هو بمثابة الحبل الذي يربط الإمامة بحقيقة الوحي.

و هذا ما نقرؤه في زيارة كل إمام معصوم عليه السلام بأنه شريك القرآن، بدءاً من علي بن أبي طالب عليه السلام أول إمام و انتهاءً بالحجة بن الحسن عجل الله فرجه آخر إمام.

---

١ . بحار الأنوار، ج٤٠، ص٤١.

٢ . سورة طه، الآية ٣٢.

قال علي عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه و لن ينطق و لكن أخبركم عنه ألا إنّ فيه علم ما يأتي و الحديث عن الماضي و دواء دائكم و نظم ما بينكم»[١]، و هذا الإخبار لا يصدر إلا ممن كان شريكاً للقرآن.

٥- خليفة النبي صلى الله عليه وآله

ثم قال سعد: هذه أربعة و إن شئتما حدثتكما بخامسة: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع، فلما عاد نزل غدير خمّ و أمر مناديه فنادى في الناس ثم قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه و انصر من نصره و اخذل من خذله»[٢].

فكان علي عليه السلام المَثَل الأعلى في جميع أبعاد العبادة، إذ قال في التوحيد: «ما كنت أعبد رباً لم أره»[٣]، و قال في المعاد: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»[٤].

فإن كلام الإمام بإمكانه أن ينير للإنسان الطريق للوصول إلى حكمة العبادة.

بيان المقام الرفيع للإمام عليه السلام

قال الإمام المجتبى عليه السلام حول الإمامة و الخلافة لمحمد بن الحنفية: «يا محمد بن علي أما علمت أن الحسين بن علي عليهما السلام بعد وفاة نفسي و مفارقة روحي جسمي إمام من بعدي و عند الله جلّ اسمه في الكتاب وراثة من النبي صلى الله عليه وآله أضافها الله عزّ و جلّ له في وراثة أبيه و أمه فعلم الله أنكم خيرة خلقه فاصطفى منكم محمداً صلى الله عليه وآله و اختار محمد علياً عليه السلام و اختارني علي عليه السلام للإمامة و اخترت أنا الحسين عليه السلام».

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٥٨.

٢ . بحار الأنوار، ج٢، ص٢٢٦.

٣ . توحيد الصدوق، ص٣٠٨، الباب ٤٣، ح٢.

٤ . بحار الأنوار، ج٤٠، ص١٥٣.

فقال له محمد بن علي: أنت إمام و أنت وسيلتي إلى محمد ﷺ و الله لوددت أن نفسي ذهبت قبل أن أسمع منك هذا الكلام، ألا و إن في رأسي كلاماً... الحسين أعلمنا علماً و أثقلنا حلماً و أقربنا من رسول الله ﷺ رحماً، كان فقيهاً قبل أن يخلق و قرأ الوحي قبل أن ينطق...[1].

فظهر من هذا الكلام أن محمد بن الحنفية لم يكن له ادعاء في الإمامة.

و قوله «كان فقيهاً قبل أن يخلق و قرأ الوحي قبل أن ينطق»، يُراد به أن الإمام كان يعلم الوحي و يقرؤه قبل التكلم، أو أن الإمام كان عالماً به قبل أن يتنزل الوحي إلى عالم النطق و يكتسي بكسوة العبارة.

فإن المعصومون عليهم السلام و من دون الدخول في المدارس البشرية يستقون علومهم مباشرة من خاتم الأنبياء ﷺ و بتعليم رباني و الناس بأسرهم ينهلون من نمير علومهم و معين معارفهم الوضاءة.

و قد روي عن الإمام الرضا عليه السلام في تبيان المقام الشامخ للإمامة أنه قال: «و هو بحيث النجم من أيدي المتناولين و وصف الواصفين فأين الاختيار من هذا و أين العقول عن هذا»[2] أي أن مقام الإمام لا تدركه العقول حتى تتمكن من اختياره فهو ليس كالآخرين حتى يعرفوه و يعيّنوه قائداً و خليفة فهو بمثابة النجم الذي لا تناله الأيدي.

لما توفي الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال سالم بن أبي حفصة لأصحابه: انتظروني حتى أدخل على أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام فأعزيه فدخلت عليه فعزيته ثم قلت: إنا لله و إنا إليه راجعون ذهب و الله من كان يقول: قال رسول

---

١. الكافي، ج١، ص٣٠٢.

٢. الأمالي و المجالس للصدوق، ص٥٣٩، المجلس ٩٧.

الله ﷺ فلا يسأل عمن بينه و بين رسول الله ﷺ لا و الله لا يرىٰ مثله أبداً، قال: فسكت أبو عبد الله عليه السلام ساعة ثم قال: قال الله عز و جل: إن من عبادي من يتصدق بشق تمرة فأربيها له فيها كما يربي أحدكم فلوه حتىٰ أجعلها له مثل أُحُد، فخرجت إلىٰ أصحابي فقلت: ما رأيت أعجب من هذا كنا نستعظم قول أبي جعفر عليه السلام قال رسول الله ﷺ بلا واسطة فقال لي أبو عبد الله عليه السلام قال الله عز و جل بلا واسطة[1].

و معنىٰ ذلك أن الله سبحانه يتوجه إلىٰ أوليائه أي يُلقي المعارف في قلوبهم، و ليس هذا بالوحي التشريعي فإنه مختص بالنبي و لا ينزل علىٰ أحد بعد خاتم الأنبياء كي يأتي بفريضة أو سنة جديدة؛ و أما الإلهامات و الإلقاءات و المعارف الحقة باعتبارها وجه الله فإنها تُلقىٰ في القلوب، و لذا يقول الإمام الصادق: «قال الله تعالىٰ...».

الأئمة و المتخرجون من مدرستهم

لا يمكن الوصول إلىٰ مقام الإمام و لكن يمكن الوصول إلىٰ مقام تلامذتهم، فإنهم كانوا بشراً أمثالنا و نالوا هذه المرتبة و لم يكونوا من الأئمة أو من أولاد الأئمة؛ بل هم أناس دخلوا في زمرة أولياء الله عبر السعي و الجهد و اكتساب المعارف. و لو كان هذا الطريق متعذراً لما صدر هذا الكمّ الهائل من الأمر بسلوكه و الحث عليه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «نعم الشفيع أنا و أبي لحمران بن أعين يوم القيامة نأخذ بيده و لا نزايله حتىٰ ندخل الجنة جميعا»[2]. و حمران بن أعين كان شاباً عادياً فاكتسب العلم و أصبح من العلماء و نال هذه المرتبة. فلا يقول أحد: يصعب الوصول إلىٰ مقام الأولياء، و سيتضح في يوم القيامة أن الطريق كان مفتوحاً و لم نسلكه.

---

١ . أمالي الشيخ المفيد، ص٤٠٦، المجلس ٤٢، ح٧.

٢ . بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٥١.

«و لولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم شوقاً إلى الثواب و خوفاً من العقاب»[1].

إنّ المجاهد الذي يُصاب في ساحة المعركة يشعر باللذة و لا يحسّ بضغطة خروج الروح، و أما المنافق أو الكافر إذا أصيب بجلطة فهو يشعر دوماً بضغطة نزوع روحه و شدتها، لأن الموت في لسان الدين يختلف عن الموت في لسان الطب، فالموت في الطب هو برود الجسد و في الدين هو الانتقال من الدنيا إلى البرزخ و كم تحلّ بمثل هذا الفرد من آلام و شدائد في طريقه إلى البرزخ.

و سئل الإمام الباقر عليه‌السلام عن شعور شهداء كربلاء أمام كل تلك النبال، فأجابهم بأن شعورهم أمام النبال و السيوف و الرماح و السهام كالضغطة بين إصبعين. فإن الروح إذا توجهت إلى شيء آخر لا تشعر بالألم، و إنّ من يتوجه إلى مولاه و يشتاق إلى لقاءه لا يشعر بالتعب و الجوع و العطش.

و قد ذكر علي بن أبي طالب عليه‌السلام في خطبة همام اشتياق المتقين للحلوق بذلك العالم. و كان أحياناً يأخذ بيد كميل بن زياد النخعي إلى خارج الكوفة و يتحدث إليه كهذا الحديث المعروف: «يا كميل، إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها»[2] من العلوم و المعارف.

و إن تلامذة الأئمة عليهم‌السلام لم يكونوا على درجة واحدة، و أهل البيت أيضاً لم يتعاملوا معهم على وتيرة واحدة، فكانوا يجيبون البعض بأجوبة سطحية و يجلسون مع البعض الآخر في جلسة خاصة و يفتحون أمامهم باباً من العلم و الحكمة، فانظر كم هناك فارق بينهما.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

٢. نهج البلاغة، الحكمة ١٤٧.

و روي عن أحمد بن محمد بن يحيى بن أبي نصر البزنطي (أحد تلامذة الإمام الرضا عليه السلام المعروفين) أنه قال: بعث الرضا عليه السلام إليّ بحمار فركبته و أتيته فأقمت عنده بالليل إلى أن مضى منه ما شاء الله، فلما أراد أن ينهض، قال لي: لا أراك تقدر على الرجوع إلى المدينة، قلت: أجل جعلت فداك، قال: فبت عندنا الليلة و اغد على بركة الله عز و جل، قلت: أفعل جعلت فداك، قال: يا جارية افرشي له فراشي و اطرحي عليه ملحفتي التي أنام فيها و ضعي تحت رأسه مخدتي[1].

و يُروى أن الإمام أمير المؤمنين و فاطمة الزهراء و الحسن و الحسين عليهم السلام و فضة التي كانت خادمتهم و التي ترعرعت في أحضانهم صاموا لعدة أيام. و السبب من نقل هذا الحدث التاريخي هو أن نعلم بأننا نستطيع الوصول إلى هذا المقام؛ لأن فضة كانت امرأة عادية و نالت هذا المقام، علماً بأن مقام أهل البيت عليهم السلام أعلى و أسمى مما ورد في سورة «هل أتى»، و أن لهم حساب آخر. فإن هذا مقام الأبرار و هم قد نالوا مرتبة المقربين بل و أعلى من ذلك. و قد قال الله سبحانه في صيام هؤلاء: ﴿وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكيناً وَ يَتيماً وَ أَسيراً﴾[2]، و فضة أيضاً كانت حاضرة في الحادثة و شاركتهم في الإطعام، فيظهر أن هذا المقام متيسر لسائر الناس أيضاً. و كان كلامهم بأجمعهم عند إطعام المسكين و اليتيم و الأسير هو: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُريدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً﴾[3].

إذن فيتأتى لأي أحد نيل هذه المرتبة بواسطة تربية أهل البيت عليهم السلام. و يمكننا على أقل التقادير أن نصل إلى مرحلة هذه الإمرأة المتربية و لا نقول بأن الطريق مغلق.

---

١. بحار الأنوار، ج٤٩، ص٣٦.

٢. سورة الدهر، الآية ٨.

٣. سورة الدهر، الآية ٩.

فيصحّ قولنا أين نحن من أهل البيت، و لكن لا يصح أن نقول: أين نحن مـن تلامـذة أهل البيت.

* * *

القسم العاشر:

الذكر و حكمته[1]

ذكر الله

تتجلى عبادة الله في مظاهر مختلفة، و لها ظهور خاص في «الذكر»، بحيث أن ذكر الله سبحانه عُدّ من أبرز مصاديق العبادة.

و ينقسم ذكر الله كسائر أقسام العبادة إلى أنحاء متعددة، كالذكر العام و الخاص، فالعام هو الذي لا يختص بموجود معين، بل يوجد في كلّ شيء، و معنى ذلك أن جميع الأشياء تذكر الله عز و جل، و الخاص هو الذي يختص بنوع محدد من المخلوقات كالذكر المختص بالملائكة أو المختص بالإنسان.

و ينقسم الذكر أيضاً إلى القلب و القالب، و هو الذي قد يُعبّر عنه بالذكر القلبي و الذكر اللساني، و هذا التقسيم لا يختص بالإنسان؛ فإن سائر المخلوقات المُدركة أيضاً

---

١ . أضيف هذا القسم إلى الكتاب بعد إعادة تنظيمه و فرز أبحاثه و هو من الآثار المدونة لسماحته (مدّ ظله العالي) و له ميزة خاصة؛ و إنّ عمق أبحاثه و إتقانها نسبة إلى سائر أقسام الكتاب يحتاج إلى مزيد من الدقة و إمعان النظر.

تارة تفكر في الله فيكون ذلك هو الذكر القلبي لها و أخرىٰ تذكره بلسانها الخاص فيكون هذا هو الذكر اللساني لها.

و قد يرد الذكر في قبال الغفلة و السهو و النسيان و أمثالها و يطلق عليه في مثل هذه الموارد بالتذكرة و التذّكر و ما شابه ذلك، و قد يستخدم في قبال الخمول و الخمود و يعبّر عنه حينئذ بالمشهور و المعروف و الشهير و ما إلىٰ ذلك. و أحياناً يرد الذكر بالمعنىٰ المصدري و الوصفي كذكر الله و جريان اسمه علىٰ اللسان، و أخرىٰ يرد بمعنىٰ الشيء أو الفرد الذي يعدّ مصداقاً مُمَثّلاً أو مُجَسّماً لذكر الله و الذي يكون سبباً لذكره عزّ اسمه، و هو شهير و مدعاة لشهرة الآخرين، كإطلاق عنوان الذكر علىٰ القرآن أو علىٰ الرسول الأكرم ﷺ، فإنّ هذه المخلوقات النورانية ذكر ممثّل و مجسّم و في الوقت نفسه سبب لإحياء ذكر الله علىٰ الألسن و في القلوب، و دليل لشهرة المجتمع المتذكّر لله.

الذكر اللساني

إنّ الذكر اللساني كما يرد في قبال الذكر القلبي يقع في مقابل الذكر الفعلي و العملي أيضاً، فإن الفعل الذي يُذكّر بالله يُسمىٰ ذكراً و إن تم إنجازه بواسطة اليد أو الرجل أو سائر الأعضاء؛ لأن ذكر الله لا يختص بالقلب، بل يشمل كلّ فعل يدلّ علىٰ ذكره سبحانه. فقد يُعدّ الصمت و السكوت ذكراً لله و ذلك لا لكون الصمت مقترن بالفكر و التدبّر و التأمل و هذه العناوين تعدّ ذكراً لله فيُطلق الذكر أيضاً علىٰ الصمت، إذ أن إطلاق الذكر علىٰ الصمت في هذه الحالة يكون من قبيل الوصف المتعلق بحال الموصوف لا نفس الموصوف؛ بل لكون الصمت و السكوت بنفسه أمراً لازماً و راجحاً، ففي الموضع الذي يكون التكلّم فيه منشأ لنشوب الفتنة أو سبباً لسماع كلام الأجنبي الدخيل، يكون السكوت بحد ذاته ذكراً لله. كما أن الصمت إذا آل إلىٰ التفكّر

و التدبّر و الاتعاظ و أمثال ذلك، يكون مصداقاً صحيحاً للذكر من حيث أنه وسيلة للتكامل و سبباً للتعالي من باب المقدمة لا الأصل.

أقسام الذكر

إن للذكر من حيث قيمته و طبقته الوجودية أقساماً مختلفة؛ فتارة يُقيّم بلحاظ المذكور و في هذه الحالة يكون أكمل الذكر، ذكر العبد لله و اسمه الأعظم إذ لا مذكور أكمل من الله سبحانه. و أخرىٰ يُقيّم بلحاظ الذاكر و في هذه الحالة أيضاً يكون أكمل الذكر، ذكر الله لعبده إذ لا يوجد ذاكر يضاهي الله سبحانه فهو كما أنه «خير مذكور» فهو «خير ذاكر» كذلك. و ثالثة يُقيّم بلحاظ كيفية الذكر من حيث الإخلاص و في هذه الحالة أيضاً يكون أكمل الذكر، ذكر الله لشيء معين أو فرد معلوم؛ لأن ذكر الله متصف بالحق و الصواب و منزه عن كلّ شائبة، إذ لا يظهر من الحق المحض و محض الحق إلا و هو مصون من كل باطل و عدم الصواب. و تارة ينظر إلىٰ كمية الذكر و في هذا الشأن أيضاً يكون الذكر الأفضل هو ذكر الله لشيء معلوم أو فرد معين.

فإنّ الله الذي هو شهود محض و محض الشهود منزّه عن السهو و الغفلة و النسيان و أمثالها و لا سبيل لوصمة النسيان و سمة السهو إلىٰ حريم أمن كبريائه: ﴿وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1]، ﴿وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ﴾[2]. و بما أن كل العناوين الأربعة المذكورة و هي النظر إلىٰ الذكر من حيث المذكور و الذاكر و كيفية الذكر و كميته واردة في مظاهر أسماء الله و صفاته، فإن كلّ واحد منهم أيضاً إذا كان أكمل مقاماً في خلافته و أكثر تقرباً من الله سبحانه كان أكثر جدارة لذكره له سبحانه (من حيث المذكور) و ذكر الله له (من حيث الذاكر و كيفية الذكر و كميته).

---

١ . سورة مريم، الآية ٦٤.

٢ . سورة يونس، الآية ٦١.

و إن سائر العبادات الخاصة كالصلاة و الصوم و الزكاة و الخمس و الحج و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الدعاء و أمثالها و إن عدّت في محلها من الذكر و أنّ المعنىٰ الجامع للذكر و حكمته العامة يشمل كل هذه الأمور المذكورة بيد أنّ عنوان الذكر في محله يُحسب عبادة خاصة و له أثره الخاص.

العناصر المحورية للذكر

إنّ العناصر المحورية للذكر هي التي أشرنا إليها بإجمال و التي تعود إلىٰ تحليل حقيقة الذكر من حيث المبدأ الفاعلي و المبدأ الغائي و المبدأ القابلي، و إنّ سائر الأمور كالزمان الخاص و المكان المحدد، و طريقة القيام أو القعود، و الحركة أو السكون، و بصورة فرادىٰ أو مثنىٰ، و بالجهر أو الإخفات أو الهمس، و باللغة العربية أو بغيرها، و بعدد محدود أو قراءة خاصة، و كيفية وضع القرآن أمام الوجه أو علىٰ الرأس، مفتوحاً أو مسدوداً، و التوسل بمعصوم معين أو الاستشفاع بوليّ خاص، و طهارة الذاكر و نزاهة ضميره و أمثالها، كلّ ذلك يعود إلىٰ تتميم نصاب القابل، و إن حظيت كل واحدة من هذه الأمور منفصلة في المجامع الروائية بعناية أهل البيت العصمة و الطهارة عليهم السلام، و إنّ لكلّ ذكر أثر عبادي و سبب لتقرّب الذاكر إلىٰ الله المذكور، و لا ينبغي تبديل الأذكار الخاصة و المأثورة في الفرائض العبادية أو النوافل الخاصة فإنه لا يحصل الأثر المطلوب من تلك الفريضة أو النافلة من دون الذكر المأثور.

علماً بأنه قد يحصل لتعدّد المطلوب جانب من الهدف السامي بتبديل الذكر المأثور و إن يفقد جوانبه الأخرىٰ و أحياناً و لوحدة المطلوب قد لا يبقىٰ أيّ أثر من الآثار الخاصة لتلك العبادة المخصوصة الوارد فيها ذكر معين.

و إنّ ما قيل حول النوافل و المستحبات التي يبتني أساسها علىٰ تعدّد المطلوب مختص بجزء منها لا بأجمعها؛ لأن بعض السنن الراجحة و النوافل المندوبة لا تحصل



من دون ذكر خاص على الإطلاق، و بالتالي لا يترتب عليها أي أثر، علماً بأن أثر مطلق الذكر و هو العبادة المطلقة حاصل. فعلى سبيل المثال لو بطلت صلاة العبد لعدم مراعاته بعض الأذكار الواجبة عمداً فإن أثرها الذي هو عبارة عن براءة ذمة المكلف من الأداء و القضاء لا يترتب على هذا العمل، و لكن يُثاب الإنسان على قراءة جزء من القرآن مثلاً.

جوهر الذكر و الدعاء و السؤال

سبق و أن أشرنا إلى أنّ جوهر الذكر يختلف عن جوهر الدعاء و السؤال؛ فإن مطلق التوجه إلى الله ذكر و إن لم يقترن به خطاب أو إنشاء أو طلب، إذن فدعاء الله أو طلب شيء منه و إن كان مقروناً بالذكر بل و إنه ذكر في حدّ ذاته، بيد أن الذكر قد يتحقق من دون اقترانه بالدعاء أو الطلب اللذان يعد كل واحد منهما إنشاء خاص، و لذا يقع الأجر على الذكر و إن لم يكن هناك استجابة؛ لأن الذكر من حيث هو ذكر منحاز عن الدعاء و ممتاز عن السؤال و لذا لا يقترن بالإجابة، و إن أمكن الذكر الخاص أن يقترن بقضاء حاجة خاصة أو حلّ مشكلة أو غفران سيئة أو زيادة حسنة، و لكن لم تودع أي واحدة من هذه الأمور و أمثالها في كنهه؛ فإنّ للذكر في قبال سائر العبادات الأخرى عنوان خاص، و إنّ السالك الذي أنس بعبادة خاصة و واظب عليها و لم ينقص منها بالتغافل عنها و عُجنت في قلبه أكثر من سائر العبادات، سيتحلى بهذا المقام، و لذا فإن منزلة الذاكرين تختلف عن منازل سائر العابدين و هم يحافظون على مناداتهم و مناجاتهم الخاصة.

و المراد بالذكر القلبي المؤثر هو الذكر التصديقي و الإيماني المستلزم لنسيان أو تناسي الباطل و المسبب كذلك للغفلة أو التغافل عن أيّ ضرب من الخطأ؛ و إلا فالذكر الخطوري و التصوري ينسجم أيضاً مع الاشتغال بالباطل و الابتلاء بالخطأ؛ إذ



لا يمكن للمبدأ التصوري الصرف أن يكون له أثر من الـردع و الرفـع و الـدفع، و إن كان قد يقع مقدمة للتصديق.

علماً بأنّ الأمر المُؤثّر هو التصديق الإيماني و هو الاعتقاد بنتيجة القـضية و الإيـمان بعصارة ثبوت المحمول للموضـوع، و إلا فـإنّ التـصديق العلمـي الـصرف الـذي لا يحمل في مكنونه إلا عقد محمول القضية على الموضوع من دون عقد حاصل القضية في روح الإنسان العالم و التصديق بها عبر الإيمان، لا يكون له تأثير في رفع الخطـأ و دفـع الذنب، لأن المؤثر هو الإيمان لا العلم، و بعبارة أخـرى: إن لم يـصل العلـم في العقـل النظري إلى الإيمان في العقل العملي لا يكون منشأ للأثر.

و إن انفصال العلم عن العمل أمر ممكن بل متحقق؛ و ذلك لتحقق انفصال العلم عن الإيمان، و إن الذي يُستنبط من الآية: ﴿وَ جَحَدُوا بِهـا وَ اسْـتَيْقَنَتْها أَنْفُـسُهُمْ﴾[1]، و من الآية: ﴿قالَ لَقَـدْ عَلِمْـتَ مـا أَنْـزَلَ هـؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ الـسَّماواتِ وَ الْأَرْضِ﴾[2]، هـو إمكانية فصل الإيمان عن العلم، أي أن العقل النظري لم يحـل دونـه مـانع مـن معرفـة الحق، بيد أنّ العقل العملي و لابتلائه بالشهوة و الغضب و أمثـال ذلـك يـشكل عليـه الاعتقاد و الإيمان به.

و الآن حيـث اتـضحت بعـض المبـادئ التـصورية و التـصديقية لمـسألة الـذكر، نسترعي انتباه الذاكرين و المتذكرين و أهـل الـذكر لـبعض النقـاط التـي نـستعرضها خلال فصول عدة:

الفصل الأول: الذكر و العقل النظري و العملي

إنّ ذكر الله و ذكر أسمائه الحسنى و مظاهره، تظهر في العقل النظري بوصفها فكـر

---

١ . سورة النمل، الآية ١٤.

٢ . سورة الإسراء، الآية ١٠٢.



إلهي و تتجلیٰ في العقل العملي كذلك بوصفها اتجاه ديني؛ لأن معرفة الله و محبته و علمه و التخلق بأخلاقه و امتثال أوامره و اجتناب نواهيه كلها ذكره سبحانه، إذ كل ما يؤدي إلیٰ حضور الله و أسمائه و صفاته فهو ذكر لله و لكلّ من الجوانب العلمية و العملية أيضاً دور في هذا الشأن.

و لذا فإنّ عنوان الذكر يعتبر القاسم المشترك لجناحَي العلم و العمل، و إنّ الأمر بكثرة الذكر في الآية: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثيراً﴾[1]، يمكن إعادة النظر فيه و امتثاله بدوام الاشتغال بالعلوم الإلهية، أو يمكن إطاعته بالمواظبة علیٰ تحصيل الأخلاق أو الاشتغال بالأعمال الدينية، كالامتثال بتوزيع الوقت و اختصاص جزء منه لاكتساب المعارف الدينية و الجزء الآخر منه لتحصيل الملكات الأخلاقية و الفضائل العملية، و كذا يمكن اعتبار الآيات التي تتصدیٰ للتعريف بالذاكرين لله كثيراً أو لمدحهم أو لبيان أجرهم شاملة لهذه الطوائف الثلاث، أي الطائفة التي تصرف جلّ وقتها بإخلاص لاكتساب العلوم الدينية و الطائفة التي تصرف معظم وقتها لتحصيل الملكات الأخلاقية و الطائفة التي توزّع وقتها بين اكتساب العلوم الدينية و بين تحصيل الملكات الأخلاقية و الأعمال العبادية، و كلها تعدّ مصداقاً للآيات المذكورة.

و الحاصل أنه يمكن القول بالتوسّع في الإنشاء و الإخبار و اعتبار جميع الطوائف المذكورة داخلة في زمرة الذاكرين كثيراً و مصداق لممتثلي الأمر بكثرة الذكر (ففي إحداهما يأتي بالإخبار و هو «الوصف» وفي الأخریٰ بالإنشاء وهو «الأمر»). و في هذا المجال، قال المرحوم المولیٰ محمد تقي المجلسي (المجلسي الأول) في شرح من لا يحضره الفقيه بعد نقل رواية عن الرسول الأكرم ﷺ: «ارتعوا في رياض الجنة»، فقيل

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٤١.

له ﷺ و ما رياض الجنة؟ فقال: «حلق الذكر»: «و المتعارف في ذلك حلق الدرس و التعظيم و قيل حلق المواعظ، فإن التذكر فيه أكثر و التعميم أولى لكن إذا كان مذكّراً لله»[١]، ثم تعرض لحسن الاستماع و الإقبال على الدرس و ذكر شعراً بالفارسية و ترجمته:

هذا الكلام كاللبن في نهد الروح و أنّا له الخروج دونما امتصاص[٢]

حيث شبّه إقبال المستمع و حضور و ظهور استعداده المتألق و المتعطش كامتصاص اللبن الذي ينبع من قبل المعلم و الأستاذ المربي. و لتأمين مثل هذه الكثرة المحمودة و الممدوحة لا مناص للسالك الذاكر من إخضاع كل قواه المدركة كالإحساس و الخيال و الوهم تحت قيادة العقل النظري و جميع قواه المحركة كالجذب و الدفع و الشهوة و الغضب و الإرادة و الكراهة و المحبة و العداء و بالتالي التولي و التبري تحت سيطرة خاصة للعقل العملي، لتسير آراؤه العلمية و اتجاهاته العملية باسم الله و ذكره، فيكون مثل هذا السالك دائم الذكر، و كل دائم الذكر دائم الصلاة، و كل دائم الصلاة لا يكون هلوعاً و جزوعاً و منوعاً[٣]، و سيأتي توضيح دائم الذكر و دائم الصلاة و أن الأخير مصون من هذه الأوصاف في محله.

و الحاصل أنّ القوىٰ العلمية و العملية للسالك الذاكر تنظّم أفكارها و جهودها بإمامة العقل، و في هذه الحالة ستكون إمامة عقل الذاكر و قيادة العاقلة التي يتم تصديقها و تكذيبها و توليها و تبريها بواسطة ذكر الله سبحانه، بمثابة دبيب روح الذكر إلى جميع أبدان القوىٰ التي تحت إمرتها، و حينئذ تكون كلّ القوىٰ العلمية و

---

١ . روضة المتقين، ج٥، ص٥١٢.

٢ . روضة المتقين، ج٥، ص٥١٣، و إليكم نص البيت بالفارسية:

این سخن شیر است در پستان جان   بي كشنده شير كي آيد برون

٣ . سورة المعارج، الآية ١٩ - ٢٣.

العملية للسالك الذاكر بمنزلة أمة واحدة بزعامة إمام فارد و ذاكر و عندها سيكون بنيانها المرصوص مصوناً من الجهل العلمي و الجهالة العملية. علماً بأن المقام السامي للسالك الذاكر الجامع بين العلم الصائب و العمل الصالح سيكون مصدراً لظهور العقل النظري و حضور العقل العملي، و تكون هذه المرتبة الرفيعة أولاً ضامنة لانضمام العقلين المذكورين و ثانياً يتولى كل واحد من هذين العقلين إمامة الذي تحت إمرته؛ أي أن قمة هرم الإنسان السالك الذاكر في الواقع هي نفس مقام جمع الجمع الذي يمثل مرحلة حياته المتألهة؛ لأن تلك الحقيقة الجامعة أضحت إمام الأئمة التي يقتدي بها جميع الشؤون السامية للنفس الإنسانية، و عندها تصل القوى السفلى بإمامة سائر القوى البارزة و عبر التوسل و الاستشفاع بها إلى المقام الرفيع للحياة الإنسانية و إن كانت هي مظهراً لله الداني في علوه و البعيد في قربه؛ «الحمد لله... الذي بعد فلا يرى و قرب فشهد النجوى»[١]، و «الداني في علوّه و العالي في دنوّه»[٢]، و بما أنّ السالك الذاكر خليفة لله و الخليفة مظهر و آية للمستخلف عنه و المستخلف عنه واجد لمقام جمع الجمع و إمام للشؤون التي تحت إمرته، لا مناص من أن يكون الخليفة مثيله أيضاً.

الفصل الثاني: الذكر حياة

إن ذكر الله و ذكر أسمائه الحسنى و صفاته العليا بمنزلة نفخ الروح التي تهب الحياة و مصداقها التام نفخة المسيح عيسى عليه السلام التي آلت إلى إحياء الطير و غيره من الأموات بإذن الله، فللعنصر الحيّ أثر سواء أكان علماً أو عملاً و الميت لا أثر له، بل و له أثر سيء متعفّن، فالفكر الميت أو العمل الميت لا أثر له سوى الضرر، و من هذا

---

١ . دعاء الافتتاح.

٢ . الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٧.

الباب ما ورد في بعض الروايات: «كل أمر ذي بال لا يذكر بسم الله فيه فهو أبتر»[١].

و كذا فإن ما ورد في خصوص الذبح أو النحر أو صيد الحيوان البرّي سواء كان من المواشي أو من الطيور من وجوب التسمية حين الذبح أو رمي السهم أو إرسال الحيوان للاصطياد ليُذكّىٰ الحيوان المذبوح أو المنحور أو المصطاد و يمكن أكله و يخرج عن كونه ميتة و إن كان من الناحية الفقهية أمر تعبّدي سوىٰ أن لحكمته من حيث المعنىٰ و الباطن ظهور في جميع شؤون الإنسان العلمية و العملية، و معنىٰ ذلك أن كل عمل لم يذكر اسم الله عليه كان ميتة متعفنة و يظهر الأثر السيء لهذا التعفن في زمن معين.

و زبدة القول أنه من خلال دراسة أسرار الآيات القرآنية، مثل: ﴿وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهَّ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[٢]، ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهَّ عَلَيْها صَوافَّ﴾[٣]، ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللهَّ عَلَيْهِ﴾[٤]، التي تجتمع علىٰ قاسم مشترك بينها و هو أنه إذا لم يكن الذابح موحداً أو لم يذكر اسم الله عامداً كان الحيوان ميتة لا يحلّ أكله و إن كان حجلاً أو قطاةً أو غزالاً، يتضح أن اسم الله و ذكره بمثابة نفخة المسيح التي هي خليفة نفخة الله و تجلت في قوله: ﴿وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي﴾[٥] الضامنة لإيجاد الحياة، و كل عمل لا يظهر فيه اسم الله و ذكره فهو و إن كان في صحراء الخيال يتبختر كالغزال بيد أنه في وادي الحقيقة و العقل الواعي ميتة ليس إلا.

فالعالم التارك للعمل و العاقل المتهتك و المفكر البعيد عن الفلاح و الصلاح و

---

١. وسائل الشيعة، ج٧، ص١٧٠، ح٤.

٢. سورة الأنعام، الآية ١٢١.

٣. سورة الحج، الآية ٣٦.

٤. سورة المائدة، الآية ٤.

٥. سورة الحجر، الآية ٢٩.

النجاح أيضاً هو ميتة متحركة، كما أن التارك للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر الذي لا يقيم معروفاً و لا ينكر منكراً بلسانه و يده و قلبه فهو حي في الظاهر و ميت في الباطن كما قال عنهم علي بن أبي طالب عليه السلام: «و ذلك ميت الأحياء»[1].

ملاحظة، الاقتصار على الذكر المأثور

لا يراد بذكر الله خصوص كلمة بسم الله...، بل كل اسم من أسماء الله الحسنىٰ سواء كان علىٰ وجه التسمية (بسم الله...) أو التهليل (لا إله إلا الله) أو التكبير (الله أكبر) أو التسبيح (سبحان الله) أو التحميد (الحمد لله) و أمثالها يكفي في حليّة الحيوان المذبوح أو المنحور أو المصطاد كما يُؤثر في صيانة الجهد العلمي أو العملي من أن يكون ميتة. علماً بأنه لو ورد هناك أمر خاص بذكر معين كما في الصلاة لابد من امتثال و قراءة نفس ذلك الذكر المنصوص و المأثور، و سنبحث مسألة وجوب الاقتصار علىٰ الذكر المأثور في فصل خاص.

الفصل الثالث: مراتب الذكر و درجات الذاكر

ذكرنا في طليعة بحث الذكر بأن هناك مراتب للذكر و درجات للذاكر و كلها مطلوبة بيد أنّ المرتبة العالية لها هي الهدف السامي للسالك الذاكر ليصل عبر طيّ المراحل السفلىٰ إلىٰ أوج الدرجة العليا. و أحياناً يكون الذكر ناظراً إلىٰ نعمة الله و أخرىٰ إلىٰ اسم الله و ثالثة إلىٰ الله نفسه، مثل: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾[3] والنعمة أعم من المادية و المعنوية، و

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٤.

٢. سورة الأعراف، الآية ٦٩.

٣. سورة الأحزاب، الآية ٩.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[١]، ﴿وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[٢]، ﴿وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً﴾[٣]، فالكلام في هذه المواضع عن ذكر اسم الله سواء كان اسمه الأعظم أم غيره و تحديد ذلك على عهدة السالك الذاكر كما أنّ اختيار النعمة في الذكر أيضاً منوط بدرجة الذاكر.

علماً بأن الجمع بين المواهب المادية و العطايا المعنوية كمال مطلوب، كما أن تحديد الاسم الأعظم الحاوي للأسماء العظيمة هدف عالٍ. و كذلك الذكر في: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا لَقيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللهَ كَثيراً﴾[٤]، ﴿الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ﴾[٥]، ﴿فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِكُمْ﴾[٦]، و نظائرها هو ذكر «الله» لا ذكر نعمته أو ذكر اسمه و إن كان عنوان «الله» اسماً من أسماء الله الحسنى، و بما أنّ مقام الهوية المطلقة في السير الشهودي الذي لا يمكن أن يُعبّر عنه بالمقام و المرحلة و ما شابه ذلك أعلى من عنوان الله، تكون الآيات الدالة على ذكر تلك الهوية أعلى و أسمى من سائر الآيات كما في قوله: ﴿فَاذْكُرُوني أَذْكُرْكُمْ﴾[٧]، و قلّما يرد مثل هذا التعبير في القرآن الكريم و هو مساوق للآية الأخيرة من سورة «الفجر» المباركة التي يقع صاحب النفس المطمئنة فيها بعد إحراز مقام الرضا من قبله على جميع مراحل القضاء و القدر و رضا الله عنه مُخاطَباً بمضمونها ليرجع إليها بعناية الهوية

---

١ . سورة الأعلى، الآية ١٤ - ١٥.

٢ . سورة المزمّل، الآية ٨.

٣ . سورة الإنسان، الآية ٢٥.

٤ . سورة الأنفال، الآية ٤٥.

٥ . سورة آل عمران، الآية ١٩١.

٦ . سورة النساء، الآية ١٠٣.

٧ . سورة البقرة، الآية ١٥٢.

المطلقة و يدخل في زمرة عباد تلك المرحلة السامية ـ التي يُعبّر عنها بالمرحلة مجازاً ـ و يدخل في جنته الخاصة التي هي أسمىٰ من كلّ جنة متصورة: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَ ادْخُلِي جَنَّتِي﴾[١]. علماً بأن الآيات التي تتحدث عن الهوية المطلقة في القرآن الكريم نادرة للغاية.

و الحاصل أن جميع مراحل الذكر الأربع المشار إليها باعتبار درجات المذكور، و إن كانت محمودة و ممدوحة سوىٰ أنّ المرحلة الأدنىٰ تعدّ سلّماً للمرحلة الأعلىٰ و الهدف الأسمىٰ لمراحل الذكر هو ذكر الهوية المطلقة.

ملاحظة، اختلاف الخطاب في اختلاف المخاطب

بعد الإشارة إلىٰ مراحل الذكر، نقول بأنه قد تكون دَعَوات القرآن الكريم من مختلف الأشخاص و المخاطبين إلىٰ الذكر ناظرة إلىٰ هذه المراتب المختلفة. و توضيح ذلك أن جميع الأشياء و الأشخاص في عالم الإمكان صادرة من الله و لكنها ليست الصادر الأول بأسرها، كما أنها بأجمعها صائرة و راجعة إلىٰ الله و لكنها ليست منتهية إليها و لا تصل كلها إلىٰ مقام ﴿ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى * فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾[٢]، و لا إلىٰ مرحلة ﴿وَ أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى﴾[٣].

كما و أن الكلّ مأمور بذكر الله و لكن لا يُخاطب الجميع بذكر الهوية المطلقة ليذكروه من دون حجاب التعيّن. فإنّ علامة اختلاف الخطابات يمكن استنباطها من اختلاف عناوين المخاطب؛ لأن البعض يُخاطبون بـ ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و البعض الآخر بـ ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ﴾، و عدة بـ ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا﴾، و جمع بـ ﴿أُولِي الْأَبْصارِ﴾، و

١ . سورة الفجر، الآية ٢٧ – ٣٠.
٢ . سورة النجم، الآية ٨ – ٩.
٣ . سورة النجم، الآية ٤٢.

﴿أُولِي الْأَلْبابِ﴾، و زمرة بـ ﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾، و بالتالي يتوجّه الخطاب الوحيد و التوجه الفريد لله الأحد إلى أولي العزم من الأنبياء و المرسلين لينتهي عبر ذلك إلى الخطاب الأوحد لعالم الإمكان و هو التوجّه إلى مقام خاتم الأنبياء الذي يفوق الأنبياء و المرسلين بل و خصوص أولي العزم منهم في الفضل و العلّو و النبل و الجمال و الجلال. علماً بأن المقصود من حصر الخطاب و قصر التوجه هو أن المخاطب محجوب و إلا فلا يوجد حجاب بين المتكلم و بين أي موجود آخر.

تنبيه، مراتب المذكور الأربعة للذاكر

تارة تكون رحمة الله الخاصة مذكورة و السالك الذاكر يتجه بذكره إلى خصوص رحمة الله، و أخرى تكون رحمة الله الخاصة هي الذاكر و المذكور لها هو العبد الخاص. و الحاصل أنّ المراحل الأربع التي مرّ ذكرها بالنظر إلى المذكور قد يتأتى تحليلها بالنظر إلى الذاكر أيضاً كما في الآية الثانية من سورة «مريم» حيث جاء فيها: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾، حيث تعلّق ذكر رحمة الله الخاصة بزكريا عليه‌السلام و وقع زكريا عليه‌السلام مذكوراً و منظوراً و مرحوماً لهذه الرحمة الخاصة.

و من هذا المنطلق، يمكن استنباط أمرين من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[١]، أحدهما هو أن الله أكبر من حيث المذكور و الآخر أنه أكبر من حيث الذاكر، أي أنّ الله إذا ذكر عبده كان ذكره أكبر من ذكر عبده له حين يكون مذكوراً، علماً بأن معناها الأدق هو أن ذكر الله أكبر من أن يوصف، لا أنّ ذكر العبد لله كبير و ذكر الله له أكبر، ففي جنب «بسيط الحقيقة كلّ الأشياء» لا يكون السالك الذاكر فيئاً فضلاً عن أن يكون ظلاً أو شيئاً، و على أيّ حال لا بأس من

١ . سورة العنكبوت، الآية ٤٥.



إرادة كل هذه المعاني من الآية الكريمة المذكورة إذ يمكن استعمال اللفظ في أكثر من معنىً و لا يوجد في ذلك إعضال يطرح لدىٰ أصحاب البصر.

ملاحظة، نصوص التكبير

بما أن معرفة الموحدين لله سبحانه متفاوتة، فإنّ النصوص الواردة في التكبير مختلفة أيضاً، حيث ورد في بعضها: «الله أكبر من أن يوصف»[1]، و في بعضها الآخر: «الله أكبر من خلقه»، و في أحاديث كثيرة: «الله أكبر من كل شيء»[2]، و إنّ ما ورد في القسم الأول من النصوص في غاية السداد و الإتقان و لكنه متفاوت كذلك، حيث روي أنه قال رجل عند أبي عبد الله عليه السلام: الله أكبر، فقال عليه السلام: الله أكبر من أي شيء؟ فقال: من كل شيء، فقال أبو عبد الله عليه السلام: حددته، فقال الرجل: كيف أقول؟ فقال: قل الله أكبر من أن يوصف، و في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «و كان ثم شيء فيكون أكبر منه»[3] أي هل يوجد شيء حتىٰ يكون الله أكبر منه؟.

الفصل الرابع: مراتب ذكر الله

إن واحدة من العناوين التي طُرحت في بداية بحث الذكر هي أنّ لذكر الله بالنظر إلىٰ نية الذاكر و الهدف المكنون في سريرته مراتب؛ فإنّ ذكر الله كسائر العبادات الدينية تارة يكون خوفاً من النار و أخرىٰ يكون طمعاً في الجنة و ثالثة يكون شكراً للنعمة و حباً لله البعيد عن أيّ ضرب من ضروب الخوف و الطمع.

و قد ذكرنا بأنه مادام أصل الإخلاص و عنوان عبودية الذاكر و مولوية المذكور

---

١. بحار الأنوار، ج٨١، ص٢٥٤.

٢. بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢١٨.

٣. وسائل الشيعة، ج٧، ص١٩١.

محفوظة و لم تتبدل إلى تعامل طرفين متقابلين متناظرين فإن أصل العبادة صحيحة يترتب عليها الأثر المطلوب، و لكن لابد من الالتفات إلى أنّ المرحلة الأدنى تعتبر سلّماً لرقيّ السالك الذاكر حتى يرقى من مرتبة الذكر خوفاً و طمعاً إلى مرحلة الذكر حباً و شكراً و في الواقع إلى مرتبة الذكر حرّاً لأنها خاصة بعبادة الأحرار. فإنّ الأذكار المأثورة أو المجرّبة للنجاة من بعض ضروب البلاء و العداء أو للوصول إلى بعض أصناف الراحة و الألفة لم تكن خارجة من دائرة الخوف و الرجاء بيد أنّ الذكر الذي يكون لشهود الجمال المحض و الجلال الصرف و الذي يكون للقاء البهاء المحض و النور الصرف الإلهي يفوق نطاق الخوف و الطمع و يعبّد الطريق لنيل المقام الذي لا يبقى فيه أثر للذاكر و الذكر و لا يُلحظ فيه إلا المذكور حتى يتخلص من لوث التثليث (الذكر و الذاكر و المذكور) و ينجو من روث و فرث التثنية (الذاكر و المذكور أو الذكر و المذكور) و يصل إلى اللبن الخالص و النفيس للمذكور و هو التوحيد الأصيل.

ملاحظة، ذكر الذاكر محفوف بذكرين من الله

إنّ ذكر السالك الذاكر لنعمة الله يتسبب ذكر نعمة الله له كما أنّ ذكر العبد لله يؤدي إلى ذكر الله له أيضاً: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[١]، و لكن كلّ ذكر يصدر من قبل العبد يكون محفوفاً بذكرين من قبل الله كما أنّ توبة العبد محفوفة بتوبتين من قبل المولى؛ فإن الله أولاً يهب للعبد توفيق ذكره و هذه الإفاضة في حدّ ذاتها تعدّ ذكراً لله بالنسبة إلى عبده، ثم يُوفّق العبد لذكر الله، فيذكره الله ثانية قبولاً لذكره و يحفّه بعنايته.

و هذه المسألة لطالما ذُكرت في بيان و بنان أصحاب النظر الصائب و أرباب البصر الثاقب أمثال العلامة الطباطبائي رحمه الله في أنّ توبة العبد محفوفة بتوبتين من قبل المولى

١. سورة البقرة، الآية ١٥٢.



بالاستناد إلى الآيات القرآنية[1].

بيد أنّ الذي نطرحه في هذه الوجيزة هو أن السالك الذاكر سواء أكان ذاكراً لله أو مذكوراً من قبل الله فهو في حال الذكر؛ لأن تلقّي فيض ذكر الله من العبد و تلقّي ذكر الحق للعبد مقرون في نفسه بالحضور و الظهور الإلهي و هذا الحضور ذكر و إن لم يكن على هيئة الذكر في الظاهر، و الشاهد على ذلك هو أن وظيفة السالك حين الاستماع إلى قراءة القرآن المجيد هو الإنصات: ﴿وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَـهُ وَ أَنْـصِتُوا لَعَلَّكُـمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]، و بما أن هذا الإنصات و الاستماع بأمر من الله سبحانه، فإن مثل هذا السكوت ذكر لله أيضاً و إن لم يقترن بالذكر اللساني. و على هذا تكون قراءة الآيات الإلهية و تلقّيها بالإنصات و الاستماع كلاهما ذكر؛ أي أنّ الكلام ذكر و الاستماع ذكر كذلك، فمن تأهّل على أثر ذكر الله أن يكون مذكوراً له أيضاً و ذكره الله سبحانه فقد اجتمعت على الحتم في سريرة نفسه و سويداء قلبه حالة الاستماع و الإنصات و تلقي حالة الذكر لله و تكون نفس هذه الحالة من الاستماع و الإنصات و التلقي و الانتظار ذكر لله و بالاستناد إلى هذا الأساس الرصين: «و لا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً و كرماً»[3]، سيؤول نفس هذا الذكر المتسم بالتلقي إلى ذكر الله ثانية و عندها يكون مثل هذا السالك الذاكر الجامع دائم الذكر و بالتالي دائم الصلاة: ﴿طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ﴾[4].

السكوت الإيجابي و السكوت السلبي

من خلال ما ذكرنا تتضح ميزة السكوت الإيجابي على السكوت السلبي؛ لأن

---

١. الميزان، ج١، ص١٣٣.

٢. سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.

٣. دعاء الافتتاح.

٤. سورة الرعد، الآية ٢٩.

السكوت المنصت و المستمع و المتحرك في قبال قراءة الكتاب التدويني من أجل سماع النداء الإلهي بسمع الرأس، ذكر في ذاته و السكوت المخاطب و المنتظر و الباحث في قبال قراءة الكتاب التكويني من أجل سماع صوت تسبيح الملائكة و سائر المخلوقات في عالم الوجود بسمع القلب، ذكر و فكر و شكر لله أيضاً و أما السكوت الساكن و الراكد و الواقف فلا يكون له أثر إيجابي سوىٰ السهو و الذهول و النسيان.

تنبيه: يتضح مما مرّ أنّ ذكر الله بمعناه الشامل يكون معقولاً و موهوماً و متخيّلاً و محسوساً، و في نشأة الحسّ أيضاً مشهود و مسموع؛ و علىٰ هذا فإنّ الآيات التالية: ﴿الَّذينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ في غِطاءٍ عَنْ ذِكْري﴾[1]، ﴿وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ﴾[2]، و أمثالها الشاملة للحسّ الظاهر و الباطن تكون معقولة و مقبولة من دون تصرّف و حمل علىٰ المجاز.

الفصل الخامس: آثار ذكر الله

إن لذكر الله آثار إيجابية كثيرة نشير إلىٰ جانب منها.

بما أن بين الذكر و الذاكر هناك اتحادٌ وجودي و ذكر الله مقرون بحضوره، لذلك يجد الذاكر نفسه في مشهد الله و يصيبه من كمال قربه و حضوره حظّ وافر فيحترز إثر الحياء عن كثير من الأفكار الشريرة و الأخلاق الذميمة و الأعمال السيئة: ﴿أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى﴾[3]، و يتغلّب في جهاده علىٰ شيطان الباطن و الظاهر الذي يدعوه إلىٰ الهوىٰ و يفتح أمامه باب الأنا بحيث أنه يصون نفسه عادلاً لدفع خطر اقتراف الذنب، و يسعىٰ تائباً و منيباً لرفع المحظور المرتكب و الذنب المقترف: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّٰى *

---

١. سورة الكهف، الآية ١٠١.

٢. سورة الزخرف، الآية ٣٦.

٣. سورة العلق، الآية ١٤.

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[١]، ﴿وَ الَّذينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢]، فقد تكون الآية الأولى بصدد بيان مسألة دفع الذنب كما أن الثانية تكفي لتحليل مسألة رفع الذنب عبر التوبة و الإنابة في ظل ذكر الله.

و بما أنّ الشيطان المؤدي إلى النسيان و المسبب للسهو عن الحق و الذهول عن الصدق يُرجم بذكر الله، فيكون ذكر الله سبحانه مقروناً بأحد أثرين إيجابيين: أحدهما أنه يسدّ باب السهو و الغفلة و في الاصطلاح يتم من خلاله دفع الخطر، و الآخر أنه يستبدل النسيان الحاصل بواسطة التوجّه و الالتفات و في الاصطلاح يتحقق بواسطته رفع الخطر: ﴿وَ ما أَنْسانيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾[٣]، ﴿وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾[٤]، ﴿إِنَّما يُريدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[٥]، ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾[٦]، حيث عُرّف الشيطان في مثل هذه الآيات بأنه هو الباعث على النسيان، و آية: ﴿وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسيتَ﴾[٧] تدل على أن ذكر الله يسبب دفع النسيان و رفع الخطر.

ثم إن الشيطان لا يفتر عن التعدي على الإنسان مطلقاً لأنه عدوّ مبين و لا يُتوقّع من العدوّ المبين سوى التعدي و التجاوز الدائم و من هنا فلابد من أن يستمر عامل

١. سورة الأعلى، الآية ١٤ – ١٥.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٣٥.

٣. سورة الكهف، الآية ٦٣.

٤. سورة الأنعام، الآية ٦٨.

٥. سورة المائدة، الآية ٩١.

٦. سورة المجادلة، الآية ١٩.

٧. سورة الكهف، الآية ٢٤.

دفعه أو رفعه، و لذا أُمرنا بالذكر الكثير سواء بصورة عامة، مثل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثيراً﴾[1]، أو بصورة خاصة، مثل: ﴿وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثيراً﴾[2]، حيث أمر الله زكريا عليه السلام بالخصوص بذكره كثيراً، وإنّ سائر الناس أيضاً مأمورون بالتأسي و الاقتداء بالهداية التي يتمتع بها أنبياء الله و أوليائه، إلا إذا أقيم دليل على اختصاص هذا الحكم، و في مسألة الذكر الكثير لم يرد دليل على الاختصاص بل ورد دليل على التعميم.

أثر الإخلاص الخالص

إن للدوام على الذكر الإلهي تأثير كبير، غير أن أثر الإخلاص الخالص يفوق أثر كثرة الذكر، بل إنّ الذكر الخالص في الحقيقة هو نفس الذكر الكثير و الذكر العاري من الإخلاص ذكر قليل و إن كان كثيراً في الكمية، فقد روي في تفسير الآية: ﴿إِنَّ الْمُنافِقينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَليلاً﴾[3] عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من ذكر الله في السرّ فقد ذكر الله كثيراً، إنّ المنافقين كانوا يذكرون الله علانية و لا يذكرونه في السرّ»[4].

و عصارة هذا الحديث النوراني هو أنّ الدنيا متاع قليل و أهل النفاق يذكرون من أجل الدنيا التي هي رأس كلّ خطيئة لا للخلاص منها، لذا يكون ذكرهم قليلاً في الواقع و إن كان كثيراً في الكمية.

فإنّ الذكر كالسهم المرميّ به صوب القلب الأسود لجيش الشيطان و عند هجوم

---

١ . سورة الأحزاب، الآية ٤١.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٤١.

٣ . سورة النساء، الآية ١٤٢.

٤ . وسائل الشيعة، ج٧، ص١٦٤، ح٣.



العدوّ من الخارج و تحامل الشيطان و مطالبة النفس الأمارة و تواثب النفس المسولّة من الداخل، لابد من الاستنصار بكثرة ذكر الله و الاستغاثة به كما ورد في الجهاد الأصغر: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا لَقيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللهَ كَثيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

و بما أنّ أمر الله قد تعلق بكثرة الذكر و الامتثال الصرف لهذا الأمر نافع في حدّ ذاته، فقد وصف الله سبحانه الناجين و نعت المتقين بالذكر الكثير قائلاً: ﴿إِلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللهَ كَثيراً﴾[٢]، ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللهَ كَثيراً﴾[٣]، ﴿إِنَّ الْمُسْلِمينَ وَالْمُسْلِماتِ... وَ الذَّاكِرينَ اللهَ كَثيراً وَ الذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظيماً﴾[٤].

ملاحظة، أثر ذكر مظاهر الله و آياته

إنّ لذكر مظاهر الله و آياته الخاصة دور هام في الغلبة على عدوّ الباطن أو الظاهر، و من هنا أمر الله نبيه الأكرم ﷺ للفوز و النجاح بذكر الأنبياء السالفين الذين يعدّ كل واحد منهم مظهراً لاسم من أسماء الله الحسنى و ذكر سنتهم و سيرتهم و سريرتهم: ﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[٥]، ﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[٦]، ﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ

---

١. سورة الأنفال، الآية ٤٥.

٢. سورة الشعراء، الآية ٢٢٧.

٣. سورة الأحزاب، الآية ٢١.

٤. سورة الأحزاب، الآية ٣٥.

٥. سورة مريم، الآية ٤١.

٦. سورة مريم، الآية ٥١.

صَادِقَ الْوَعْدِ﴾[١]، ﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾[٢]، حيث أمر الله نبيه في هذه الآيات و نظائرها التي تكرّر ذكرها كثيراً في القرآن الكريم بذكر الأنبياء و الأولياء الماضين فإنه مدعاة لإيجاد القوة و العزم في إيفاء عهد الرسالة، كما أن لأصل ذكر الله و الإخلاص فيه و الاستمرار عليه دور مؤثر في الغلبة على الطغاة، و لذا قال الله سبحانه لموسى و هارون عليهما السلام حين الذهاب إلى فرعون و بطانته لدعوتهم: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِي وَ لا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[٣].

و كان قد اعتبر موسى الكليم عليه السلام الذكر الكثير أحد أهم الأهداف لطلب إشراك أخيه هارون عليه السلام و جعله وزيراً له: ﴿وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[٤]، و إنّ التأثير الهام لذكر الله أدى إلى أن الله تارة يأمر بالتزام القوة، مثل: ﴿خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾[٥]، ﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[٦]، ﴿وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[٧]، و أخرى ينهى عن الوني و الضعف كما في الآية المتقدمة: ﴿وَ لا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[٨].

و للاستمداد من هذه القوة الغيبية و هي الاستعانة بذكر الله و التوجّه إلى مظاهر ظهور قدرته و حضور قوته، أُمر موسى الكليم عليه السلام بأن يُذكّر أمته بأيام تجلي قدرة الله: ﴿وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ

---

١. سوره مريم، الآيه ٥٤.

٢. سورة مريم، الآية ٥٦.

٣. سورة طه، الآية ٤٢.

٤. سورة طه، الآية ٣٢ - ٣٤.

٥. سورة البقرة، الآية ٦٣.

٦. سورة مريم، الآية ١٢.

٧. سورة الأنفال، الآية ٦٠.

٨. سورة طه، الآية ٤٢.

بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[١].

فكل مرحلة يتجلىٰ فيها فيض الله الغيبي، و تظهر فيها زاوية من أسرار العالم الخفية، و يُشاهد فيها جانب من الحقائق المستورة، تعدّ تلك المرحلة بحَسَبها يوماً من أيام الله الخاصة؛ و إن طُبّقت هذه الآية علىٰ مسألة ظهور بقية الله ﷺ و الرجعة و القيامة فهو من باب التمثيل و بيان المثال لا التبيين و الحصر في المصاديق المذكورة.

خطر نسيان الله

يتضح مما مضىٰ أن خطر نسيان الله و الغفلة عن ذكره إنما يتم عبر الانكسار أمام تسويل عدوّ الباطن و الظاهر: ﴿وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمىٰ﴾[٢]، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّىٰ عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾[٣].

و من خلال التحليل العقلي لآثار نسيان الله السلبية و الغفلة عن ذكره، يظهر أنّ الله سبحانه لم يعد خالق الإنسان و فاعله فحسب، بل هو مقوّم هويته الربطية و قيوم لشخصيته الحرفية، بحيث أن معرفته لا تتيسر من دون معرفة قيّمه و هو الله؛ إذ لا يمكن معرفة المعنىٰ الربطي و الحرفي من دون معرفة معنىٰ الذاتي و المستقل و هو الله، و بنسيان ذلك المقوّم و الغفلة عن ذلك القيّم، تُنسىٰ هوية نفس الإنسان أيضاً، و نسيان المرء هويته يؤول إلىٰ عدم الشعور بتاتاً بتطاول الناهبين لهوية وجوده و لعدم إحساسه بالخطر لا يقوم بأيّ عمل يصدّ به العدو المهاجم، و بالتالي تقع جميع شؤونه المدركة و المحركة في أسر الشيطان فيُحقّق الرغبات الناجمة من الطبيعة الفتاكة لذلك

---

١ . سورة إبراهيم، الآية ٥.

٢ . سورة طه، الآية ١٢٤.

٣ . سورة النجم، الآية ٢٩.

الأمير الشرير و الحاكم الظالم، و يعرف الأشياء من خلاله و يعمل على ضوء ذلك فينقلب المعروف عنده منكراً و المنكر معروفاً: ﴿وَ لا تَكُونُوا كَالَّذينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾[1].

و قال البعض: إن نسبة الحديث المعروف «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[2]، مع الآية المذكورة هي نسبة أصل القضية مع عكس نقيضها، أي أنّ معرفة الله إن كانت ناشئة من معرفة النفس، يكون نسيان الله و عدم معرفته أيضاً ناجم من نسيان النفس و عدم معرفتها.

و على أيّ حال، فإن ذكر الله يوجب ذكر الهوية و تكاملها، و نسيان الله يُسبّب نسيان الهوية و تركها في متناول المهاجمين و المجحفين و المتجانفين، و في مثل هذه الحالة لا يبقى أثر للهوية الإنسانية، فيحلّ الآخر محلها و يفرض عليها جميع أمانيّه و أغراضه و غرائزه النفسانية و الشيطانية بوصفها حضارة و سعادة و كمالاً.

الفصل السادس: أفضل ذاكر و مذكور

بما أنّ ذكر الحق كمال وجودي و كلّ كمال وجودي ثابت لله بالنحو الأتم و الأكمل، تكون لله سبحانه و تعالى أتم مراتب ذكر الحق، و قد ثبت في بيان مبادئ بحث الذكر أن الله سبحانه جامع لكل المراتب من حيث الذكر و الذاكر و المذكور و كذا من حيث الخلوص و الاستدامة و سائر الجهات الدخيلة في كمال الذكر، و لذا ورد في الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أن الله هو أفضل ذاكر و أفضل مذكور و يُعرض نماذج منها في دعاء «الجوشن الكبير»، ثم يُتبيّن ما ورد في «المناجاة الشعبانية» و «مناجاة الذاكرين» و «دعاء كميل»، من طلب كيفية الذكر و كميته من الله سبحانه.

---

١ . سورة الحشر، الآية ١٩.

٢ . بحار الأنوار، ج٢، ص٣٢.



فقد ورد في دعاء الجوشن الكبير عن الإمام السجاد عليه السلام عن آبائه الكرام عليهم السلام عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله عن جبرائيل الأمين عليه السلام:

١ - يا خير الذاكرين ٢ - يا خير المذكورين ٣ - يا من ذكره حلو ٤ - يا من له ذكر لا يُنسىٰ ٥ - يا من ذكره شرف للذاكرين ٦ - يا أعزّ مذكور ذُكِر ٧ - يا خير ذاكر و مذكور.

و يُستنبط من هذه التعابير أنّ أحد أسماء الله الحسنىٰ هي «الذاكر» و الأخرىٰ هي «المذكور». و كون الله خير الذاكرين و خير المذكورين لا يتنافىٰ مع التوحيد في الآثار و الأفعال و كذا مع التوحيد في الصفات و الذات؛ لأن ذكر غير الله إن كان ناجماً عن نسيان الله فهو ليس بذكر و إن كان مع ذكره فلا توجد غيرية في البين سوىٰ آياته و مظاهره و مجاليه و مرائيه و مراياه و أمثالها و ذكر كلّ منها هو ذكر آية من آيات الله.

و قد مرّ في ثنايا الفصول السابقة السرّ في حلاوة ذكره و شرفه و استدامته، و الذي يُبيّن هنا هو أنّ الذاكر لو كان الله سبحانه فلا سبيل للنسيان إلىٰ ساحته: ﴿وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1]، و لو كان الذاكر آياته التكوينية فإن نظام الكون بأسره في حال ذكر الله علىٰ الدوام و لا يفتر أيّ مخلوق عن الانقياد له و تسبيحه و السجود له و الرجوع إليه لحظة واحدة و لذا صح أن يُقال: «يا من له ذكر لا يُنسىٰ»[2].

استدامة الذكر

و الآن حيث ثبت بأن ذكر الحق كمال وجودي (لأن الذكر غير الدعاء و السؤال) و الله واجد لذلك بأتم وجه، فإنّ السالك المتعبّد أيضاً يسعىٰ لأن يتخلّق بالأخلاق الإلهية و أن يتصف بصفاته و أن يكون ذاكراً له، و لذا فإن من أهم ما نطلبه من الله في

---

١. سورة مريم، الآية ٦٤.

٢. من فقرات دعاء الجوشن الكبير.

دعائنا هو نفس ما أمر الله المؤمنين به و هو أصل الذكر و تكثيره و التوسّل به و التولّه فيه و استدامته و إن كان الذكر واحداً لأن الاستدامة غير الكثرة.

و قد ورد في المناجاة الشعبانية: ١- إلهي و ألهمني ولهاً بذكرك إلى ذكرك ٢- و أن تجعلني ممن يديم ذكرك.

و في دعاء كميل: ١- أتقرّب إليك بذكرك ٢- تلهمني ذكرك ٣- لهج به لساني من ذكرك ٤- أن تجعل أوقاتي من الليل و النهار بذكرك معمورة ٥- و ذكره شفاء.

و في دعاء أبي حمزة الثمالي: ١- اللهم أشغلنا بذكرك ٢- اللهم خصّني منك بخاصة ذكرك (أي أن أذكرك و تذكرني بصورة خاصة).

حيث شملت هذه الموارد طلبات كثيرة حول ذكر الله، و إنّ من أكمل مراتب ذكر العبد لمولاه مضافاً إلى الاستدامة هو التولّه و الوجد و الهيام و الشغف باسم الله و ذكره.

أكمل صفات الذكر

علماً بأن مثل هذا الذكر يكون سبباً لإعمار العمر و ترميم زمن العيش و عمران فترة الحياة؛ لأنّ العمر الذي يُقضىٰ بالنسيان بائر و العيش الذي يمرّ بالسهو غامر، و أتمّ صفات الذكر مناجاة الذاكرين و هي من ضمن المناجيات الخمسة عشر المنسوبة إلى الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام حيث جاء فيها:

١. من أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا

٢. فألهمنا ذكرك في الخلأ و الملأ و الليل و النهار و الإعلان و الإسرار و في السرّاء و الضرّاء و آنسنا بالذكر الخفي

٣. إلهي بك هامت القلوب الوالهة و على معرفتك جُمعَت العقول المتباينة فلا تطمئن القلوب إلا بذكراك و لا تسكن النفوس إلا عند رؤياك



٤. و أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك

٥. إلهي أنت قلت و قولك حق: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا﴾ و قلت و قولك الحق: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم﴾ فأمرتنا بذكرك و وعدتنا عليه أن تذكرنا تشريفاً لنا و تفخيماً و إعظاماً و ها نحن ذاكروك كما أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا يا ذاكر الذاكرين.

ملاحظة، كيفية الذكر

تارة يكون ذكر الله على هيئة الدعاء فهو إنشاء، و أخرى يكون على نحو وصف الله أو إقامة البرهان على وجوده و على عينيّة صفات الذات متحدة مع بعضها مع ذات الله فهو خبر و ليس من سنخ الإنشاء. و من هنا تتضح سعة دائرة الذكر بالنسبة إلى الدعاء، إضافة إلى أن لكل واحد من الذكر و الدعاء ميزة يمتاز بها عن الآخر، و إن كانت الجملة الخبرية قد يراد بها الإنشاء و تصطبغ بصبغة الدعاء، علماً بأن الدعاء هو نداء الله في قبال السؤال الذي هو طلب.

تنبيه، سكينة السالك الذاكر في نهاية الأمر

إن السالك الذاكر الذي يبدأ بذكر الله بلسانه و يحييه من بعد ذلك في قلبه، ينتابه ضرب من التشويش و الاضطراب لهيمنة المذكور على الذاكر و سلطنة حضوره، و هذا التذبذب و الوجل الممدوح يهيء الأرضية للوصول إلى السكينة و الاطمئنان، و لذا فإن السالك الذاكر يستمد من المذكور نفسه و ينهض بعبء اسمه و ذكره تحت ظل عنايته، لأن عطاياه لا يحملها سوى مطاياه.

و القرآن الكريم أيضاً خلال مدحه للمؤمنين الذاكرين الذين تنبض قلوبهم بذكر الله يتحدث عما يصلون إليه في نهاية المطاف من سكينة و طمأنينة قائلاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]، و قد نزل في شأن القرآن الكريم الذي هو ذكر لله كذلك كما سيُبيّن فيما بعد: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾[2].

فالذي يُستنبط من هذه الآيات و نظائرها هو أن السالك في طليعة أمره يصيبه الوجل من ذكر الله و يستولي على قلبه خوف مقدس، ثم يزداد إيمانه شيئاً فشيئاً إثر أُنسه بالمذكور و تلاوة كلامه و الاستماع إليه فيتسبب ذلك دخوله في الحصن الحصين و القلعة المأمونة و الحصار المُنجي من الخوف و ما شابهه، و بالتالي يسكن ظاهره و باطنه و يطمئن قلبه و قالبه إلى ذكر الله. و لعل هذه الآية: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3] ناظرة إلى نهاية المآل، و إلا فإن السالك في بداية طريقه قد تصيبه الرعشة و القشعريرة، كما أنّ الغوص في المحيط قد يسبقه خوف بدوي، و إن كان بعض الغواصين الشجعان أيضاً قد يدخلون ضيوفاً على البحار في بداية اختبارهم و طليعة تمرينهم بقلب مطمئن، بيد أن هذه الشهامة لا تصيب إلا الأوحديّ من الخائضين في غمرات البحار، و إنّ لذكر سيرة أولياء الله و سنتهم في وقائع التاريخ المرة و حلمهم و صمودهم أمام الأعداء دور مؤثر في إيجاد حالة الدعة و الاستقرار و يعود الذكر هذا إلى ذكر الله و هذا الصبر و الصمود و الاستقرار ناتج من ذكره عزّ اسمه.

ملاحظة، الخوف البدوي للقاسي و الساهي

إنّ الخوف الذي يستولي على قلب القاسي و الساهي إثر نسيان الله يختلف عن

---

١. سورة الأنفال، الآية ٢.

٢. سورة الزمر، الآية ٢٣.

٣. سورة الرعد، الآية ٢٨.



الوجل الذي ينتاب السالك الذاكر في بداية طريقه، كما أنّ الراحة التي تصيب الناسي للغفلة عن الله تفترق عن الطمأنينة التي يحصل عليها السالك في نهاية طريقه؛ فإن أحدهما صادق و الآخر كاذب و أحدهما أجر و الآخر عقاب.

و قال الله سبحانه في كتابه المجيد حول الأمن الصادق و الكاذب و الطمأنينة الصحيحة و الباطلة: **﴿أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِّ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِّ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ﴾**[1]، **﴿الَّذينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ﴾**[2]، و على هذا الأساس فإن أمن غير المؤمن إحساس كاذب ناجم عن إدراك الواهمة و أمن المؤمن شعور صادق نابع عن إدراك الفاهمة.

ملاحظة، أثر ذكر الله في القلب

ما لم يصبح ذكر الله ملكة نفسانية لا تحصل السكينة الصادقة؛ لأن مَثَل الذكر اللساني كمَثَل سقي غصن من أغصان الشجرة الذي لا أثر فيه سوى إزالة الغبار عن ذلك الغصن، بيد أن الذكر القلبي كمَثَل سقي جذور الشجرة الذي يؤول إلى نموّها و إثمارها لذلك قال الله سبحانه و تعالى: **﴿وَ اذْكُرْ رَبَّكَ في نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلينَ﴾**[3]، فإنّ الذي يؤثر في إزالة الغفلة هو الذكر القلبي المقترن بالتضرّع و البكاء.

و إنّ الأثر الإيجابي لمثل هذا الذكر هو أولاً: يسوق السالك الذاكر إلى الإنتاج و العمل و الاشتغال و تأمين متطلبات المجتمع الإسلامي و أمثالها لينجو من جميع أصناف الكسل و طلب الراحة بذريعة الزهد المذموم و ثانياً: لا تلهيه أيّ تجارة مربحة

---

١ . سورة الأعراف، الآية ٩٩.

٢ . سورة الأنعام، الآية ٨٣.

٣ . سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

عن ذكر الله ليترك الكسب الحلال أو يلجأ إلى الحرام أو يخوض في فساد آخر فقد قال الله سبحانه: ﴿رِجالٌ لا تُلْهيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ﴾[1].

فإن هؤلاء الأولياء و لرسوخ ذكر الله في قلوبهم لا يعتريهم ذهول في العبادات الجسدية كالصلاة بل و لا يغفلون عن العبادات المالية أيضاً و يؤدون زكاة أموالهم.

إنّ أفضل مسجد على وجه الأرض بعد المسجد الحرام هو مسجد النبي الأكرم ﷺ في المدينة، و سيّد الأيام و عيد المسلمين هو يوم الجمعة، و قد وردت الصلاة بعنوان الذكر و خصوصاً صلاة الجمعة فقد وردت في سورة الجمعة بعنوان ذكر الله (كما سيأتي إن شاء الله)، و رغم ذلك ترى الجماعة التي ليس لها إلا الذكر اللساني و المحرومة من الذكر القلبي، عند الاقتداء بإمام لا و لن يضاهيه أحد في جميع الأعصار و هو خاتم الأنبياء ﷺ، تجدهم مع كل هذه المزايا و الجهات المشرّفة و هي المعبد و العبادة و استماع الخطبة و الخطيب يتركون كل ذلك و يفرّون من الصلاة منفضّين إلى التجارة ليشتروا الأمتعة بأسعار أخفض أو يزيدوا من أمتعتهم: ﴿وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللهُ خَيْرُ الرَّازِقينَ﴾[2].

ذكر ما في المتون الدينية

أمر الله سبحانه و تعالى لاقتران ذكره بالمعارف و الأحكام و الحِكَم، بذكر ما في النصوص الدينية من محتوى فيما مضى و في الحال الحاضر قائلاً: ﴿خُذُوا ما آتَيْناكُمْ

---

١. سورة النور، الآية ٣٧.

٢. سورة الجمعة، الآية ١١.

بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١]، ﴿وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى في بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كانَ لَطيفاً خَبيراً﴾[٢]، و من أجل ذلك تم اختيار الفرص و الأوقات المناسبة لتأمين ذكر الله: ﴿فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾[٣].

و السرّ في عدم أو قلة تأثير بعض الأسماء الإلهية هو أنّ الفراغ الناشئ من ضعف التوجه بذكر الله يملؤه الغفلة عن ذكره و تأثير هذه الغفلة هو ترجيح الدنيا على الآخرة و ترك الرسول الأكرم ﷺ و أمثال ذلك، إذ أنّ للصفات النفسانية و الأعمال الخارجية تأثير و تأثّر متبادل، فكما أن الصلاة الحقيقية التي هي ذكر خالص لله: ﴿وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾[٤]، تنهى عن الفحشاء و المنكر، فإنّ ارتكاب الفحشاء و المنكر ينهى عن الصلاة و ذكر الله أيضاً.

التاثير المتبادل بين ذكر الحق و نسيان الباطل

إنّ عصارة تأثير التوجه إلى الدنيا و الابتلاء بغرورها في ضعف أو انحسار ذكر الله يمكن مشاهدته في الجوامع الروائية و لاسيما في نهج البلاغة، قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «و اعلموا أنّ الأمل يُسهي العقل، و يُنسي الذكر، فاكذبوا الأمل فإنه غرور و صاحبه مغرور»[٥]، و قال أيضاً: «... أما و الله ليمنعني من اللعب ذكر الموت و إنه (عمرو بن العاص) ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة»[٦]، و المراد من ذكر الموت

---

١ . سورة البقرة، الآية ٦٣.

٢ . سورة الأحزاب، الآية ٣٤.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٩٨.

٤ . سورة طه، الآية ١٤.

٥ . نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

٦ . نهج البلاغة، الخطبة ٨٤، الفقرة ٤.

هو مسألة الحياة بعد الموت و الحساب و الجزاء و العقاب و هي الرجوع إلى الله الحسيب و سيُبحث بحثاً قصيراً في هذه المسألة.

و المثال الآخر للتأثير و التأثّر المتبادل بين ذكر الحق و نسيان الباطل و ذكر الباطل و نسيان الحق يمكن استنباطه من الحديث المعروف لأمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان، اتّباع الهوىٰ و طول الأمل، فأما اتباع الهوىٰ فيصدّ عن الحق و أما طول الأمل فيُنسي الآخرة»[1] فكما أن ذكر الحق مانع من حاكمية الهوىٰ كذلك اتباع الهوىٰ مانع من ذكر الحق و حكومته، و روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ: ... إنّ كثرة المال تُنسي الذنوب و إنّ ترك ذكري يُقسّي القلب»[2].

الفصل السابع: مصاديق الذكر

١- الإنسان الكامل

يعتبر ذكر الحق من أسماء الله الحسنىٰ و قد مرت طائفة من الأدلة الإثباتية علىٰ ذلك في الفصل السابق، و ما يُطرح في هذا الفصل هو أنّ الذاكر لله يكون مظهراً لاسم الذاكر، و بين مظاهر هذا الاسم، يكون الإنسان الكامل و لاسيما أهل بيت العصمة و الطهارة عليهم السلام و كذا الكتاب السماوي و لاسيما القرآن الكريم، المرآة الكاملة و الآية التامة و الجامعة لذكر الحق. و لذا فقد نعت الله سبحانه بعض الأشياء أو الأشخاص بالذكر قائلاً: ﴿... فَاتَّقُواْ اللهَ يَأُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَ عَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنَ

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٤٢، الفقرة ١.

٢ . وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٨٠، ح١.

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾[١]، حيث يحتمل فيها انطباق عنوان الذكر على الرسول الأكرم ﷺ، أي أن كلمة الرسول بيان لعنوان «الذكر» لتدلّ على أن المراد بعنوان «الذكر» هو نفس النبي ﷺ، و لا يتنافى ذلك مع «الإنزال»؛ لأن الرسول الأكرم مقامه عند الله، و كما أنّ عنوان «الإرسال» ينطبق على رسالته، فإن عنوان «الإنزال» أيضاً ينطبق على نزوله و تجلّيه في عالم الطبيعة.

و قد استُعمل عنوان الإنزال بنفس هذا المعنى في بعض الآيات الأخرى كما في الآية: ﴿... وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢]، حيث بيّن الله فيها بأن القرآن (نور) نزل مع رسول الله ﷺ، و كلاهما قد نزلا من عند الله سبحانه، فالقرآن و الإنسان الكامل معاً كان لديهما مقام عند الله و تنزّلا من تلك المرتبة. و الحاصل أن عنوان «الإنزال» في سورة الطلاق لا ينافي إطلاق الذكر على شخص النبي الأعظم ﷺ.

و الشاهد الآخر على مظهرية الإنسان الكامل لاسم الله الذاكر هو حديث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «ما اجتمع قوم في مجلس لم يذكروا الله عزّ و جلّ و لم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة، ثم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إن ذكرنا من ذكر الله و ذكر عدونا من ذكر الشيطان»[٣].

و السرّ في شهادة هذا الحديث على المدعى هو أنّ الإنسان الكامل لو لم يكن كأهل بيت العصمة و الطهارة عليهم السلام مظهراً لاسم الله و ذكره، فإنّ ذكره لا يكون ذكراً لله على الإطلاق؛ لأن «الحق» هو الله وحده و لا يتحقق ذكر «الحق» إلا في اسمه و ذكره و الإنسان الكامل بما أنه مظهر ذكر الحق يكون اسمه و ذكره ذكر لله. و لعله هذا من

---

١ . سورة الطلاق، الآية ١٠ - ١١.

٢ . سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٣ . وسائل الشيعة، ج٧، ص١٥٣، ح٣.

باب المظهرية التامة و كذا من باب فناء الإنسان الكامل في جمال الله و جلاله و من هنا يُعلم نقل المرحوم الشيخ الصدوق على نحو الإرسال المسلّم: قال: «الصلاة على محمد و آله تعدل عند الله عزّ و جلّ التسبيح و التهليل و التكبير»[1].

و سند هذا التحليل و شاهد هذا البيان هو أن الله سبحانه كما أنه لا عديل له فإن التهليل أيضاً لا مثيل له كما ورد في بعض النصوص الإسلامية[2]، و لو أنّ شيئاً كالصلاة على أهل بيت العصمة و الطهارة عليهم السلام صار عديلاً للتهليل، فإنّ مآل ذلك يعود إلى أن الإنسان الكامل لا يملك لنفسه شيئاً بل لا يرى غير الله و أسمائه الحسنى و صفاته العليا، و لذا فإنه لا يكون إلا اسم الحق و ذكره، و من هنا أصبحت الصلوات عدلاً لشيء لا عديل له، و معنى ذلك أن الإنسان الكامل ليس غريباً و خارجاً عن أسماء الله فتأمل.

٢- ذكر الله التدويني

مما مضى عُلمت مسألة إطلاق الذكر على الإنسان الكامل و هو كتاب التكوين لله الذاكر و باستمرارية البحث يمكن العثور على شواهد أخرى على هذا الإطلاق.

و الأنموذج الثاني لمصاديق الذكر هو كتاب الله التدويني بما فيه القرآن و غيره. فإن الصحيفة الإلهية فضلاً عن تكوينيتها التي تعد ذكراً عينياً لله، تعتبر من حيث المحتوى و الدعوة و الادعاء ذكر لفظي و كتبي و ذهني لخير الذاكرين.

و قد عبّر الله عن الكتاب الذي نزّله على الأنبياء السالفين كنوح و هود و غيرهما بهذا التعبير: ﴿أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3]، و عبّر عن خصوص القرآن تارة بالذكر المطلق و أخرى بالذكر

---

١. وسائل الشيعة، ج٧، ص١٩٤، ح٨.

٢. وسائل الشيعة، ج٧، ص٢٠٨، ح١ و ٥.

٣. سورة الأعراف، الآية ٦٣.



الحكيم و ثالثة بأنه ذكر للعالمين و رابعة بذي الذكر و....

فعبّر عنه بالذكر في الآية ٦ و ٩ من سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، و الآية ٤٤ من سورة النحل: ﴿... وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، و عبّر عن القرآن بالذكر الحكيم في الآية ٥٨ من سورة آل عمران: ﴿ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾، و عبّر عنه بأنه ذكر للعالمين في الآية ١٠٤ من سورة يوسف: ﴿وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾، و عبّر عنه بذي الذكر في الآية ١ من سورة ص: ﴿ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة المشهودة، و بما أن نداء القرآن ينسجم مع فطرة الإنسان و النظام العيني للعالم، فإنّ الله أعدّ هذا الكتاب لتذكّر المجتمعات البشرية لما يجدونه في باطنهم و ما يفهمونه في خارجهم و قال في هذا الشأن: ﴿وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1].

ملاحظة: الذكر بمعنى المشهور و المعروف الذي يُطلق على الإنسان الكامل (الكتاب التكويني) و على الكتاب السماوي و لاسيما القرآن (الكتاب التدويني) له بحث خاص يُشار إليه عند الحاجة.

٢- الصلاة

الأنموذج الثالث لمصاديق الذكر البارزة، هي الصلاة و لاسيما صلاة الجمعة، و إنّ لها من الأهمية بمكان حتى نُعتت بأنها عمود الدين حيث سبب ذلك أن يكون لها موقع ممتاز و مكانة رفيعة في جميع المذاهب و مدارس أنبياء الله.

فقد أمر الله سبحانه أتباع موسى الكليم و عيسى المسيح عليهما السلام و النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بالتمسك بالتوراة و الإنجيل و القرآن و التزام الصلاة و جعلها مداراً

---

١ . سورة القمر، الآية ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠.

للنجاة و ميزاناً للخلاص و معياراً للتحرر من كل خطر. و يظهر من هذا التعميم بأن رسالة الله العالمية لجميع الأمم هي أن معيار النجاة هو الاعتصام بكتاب الله و بالصلاة. هذا و إن كان الكتاب الإلهي بما فيه التوراة و الإنجيل و القرآن يشمل الصلاة أيضاً بيد أنها ذُكرت بصورة مستقلة إلى جانب كتاب الله من باب ذكر الخاص بعد العام أو الجزء بعد الكل، و هذه الآية: ﴿**وَ الَّذينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحينَ**﴾[1] ناظرة إلى جميع الأمم في كلّ الأعصار و الأمصار، أي أن المتمسكين بالكتاب الإلهي و المقيمين الصلاة هم الصالحون و المصلون. و بما أنّ هذه الآية قد وردت خلال الحديث عن بني إسرائيل و ناظرة إلى المسلمين أيضاً فهي جامعة بين جميع الصحف السماوية.

ملاحظة، الفرق بين الإمساك و التمسّك

الفرق بين الإمساك و التمسّك (الاستمساك) هو أنّ بالإمساك يصان الشيء الممسَك به من السقوط و بالتمسّك ينجو الشخص المتمسّك من الهبوط، فإن الله مُمسك السماوات لكيلا تسقط: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا...**﴾[2]، و الإنسان المتنسّك و المتعبّد بالقرآن و العترة و كلاهما ذكر الله، يتمسّك و يستمسك بهما لينجو من السقوط. فإنّ الله حق مطلق و ذكر الحق يسبب سهو الباطل و نسيان الكذب و الزور و كل أمر قبيح آخر و الصلاة هي العروة التي لا انفصام لها بين العبد و مولاه و لذا شُرعت لإيجاد هذه الآصرة.

و من هذه الآية: ﴿**إِنَّني أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْني وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري**﴾[3]،

---

١ . سورة الأعراف، الآية ١٧٠.

٢ . سورة فاطر، الآية ٤١.

٣ . سورة طه، الآية ١٤.

يظهر جلياً أن الهدف الرئيس من إحياء الصلاة هو إحياء ذكر الله الذي يقذف كلّ أمر باطل في بقعة النسيان، و بما أن لصلاة الجمعة خصيصة لا توجد في الصلوات الأخرىٰ و يستحب في الركعة الأولىٰ و بعد فاتحة الكتاب قراءة سورة الجمعة فيها و في الركعة الثانية و بعد سورة الحمد قراءة سورة المنافقون، فقد تم التعبير عن صلاة الجمعة في سورة الجمعة بذكر الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، و في سورة المنافقون أيضاً يُحتمل قوياً أنه تم التعبير عنها بذكر الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾[2].

ملاحظة، كثير الذكر كثير الصلاة

مرّ في الفصل السابق بأنّ الصلاة و لاسيما صلاة الجمعة ذكر الله و لازم هذه القضية علىٰ نحو الموجبة الجزئية هو أن بعض ذكر الله صلاة و الدائمون علىٰ ذكر الحق في بعض حالاتهم في الصلاة، و ليس علىٰ نحو الموجبة الكلية كلّ من كان في حال الذكر فهو في حال الصلاة، أو أنّ جميع حالات الذكر صلاة؛ لأن نقيض الموجبة الكلية موجبة جزئية، إلا إذا أقيم دليل معتبر علىٰ النقيض الكلي، فيكون نقيض الموجبة الكلية موجبة كلية كذلك؛ و هناك دليل مستقل يدل علىٰ أن جميع حالات الذكر هو حالة الصلاة و الحديث الذي ورد عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام بهذا المضمون: «لا يزال المؤمن في صلاة ما كان في ذكر الله عز و جل قائماً كان أو جالساً أو مضطجعاً، إن الله عزّ و جلّ يقول: ﴿الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ﴾»[3] الآية.

---

١. سورة الجمعة، الآية ٩.

٢. سورة المنافقون، الآية ٩.

٣. وسائل الشيعة، ج٧، ص١٥٠، ح٥.

إذن فكثير الذكر كثير الصلاة و دائم الذكر دائم الصلاة، و كلّ أثر يترتب على دوام الصلاة يترتب على دوام ذكر الله أيضاً.

و أبرز أثر إيجابي لدوام الصلاة هو ما ورد في سورة المعارج الآية ١٩ ـ ٢٣: ﴿إِنَّ الانسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَ إِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا المُصَلِّين * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، و إن كلمة المصلين في هذه الآية صفة مشبهة و ليست باسم فاعل و ذلك لوصفهم بالدوام على الصلاة. و على أيّ حال فإن دوام الذكر يستبطن دوام الصلاة أيضاً، علماً بأن ذلك يختص بالموارد التي يسوغ فيها التنزيل العام و عموم التنزيل هذا و إلا فبمجرد الذكر لا تُترك الصلاة، لأن لحكم الصلاة الفقهي محله و موضعه الخاص.

تنبيه، صعوبة الذكر الكثير

إن كثرة الذكر أو دوامه يستلزم المراقبة و الحضور و المحاسبة المستمرة و هو أمر عسير، كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ثلاث لا تطيقهّن الناس: ١- الصفح عن الناس ٢- و مواساة الأخ أخاه ٣- و ذكر الله كثيراً»[١].

و المراد بصعوبة الذكر الكثير هو حضور القلب و ذكر الله في الفؤاد و إلا فالذكر العلني لجلب أنظار الناس سهل و قليل و إن كان كثيراً، و لو كان دائماً فهو مؤقت؛ لأن متاع الدنيا قليل و ما كان للدنيا فهو قليل كذلك، و هذا ما يمكن استظهاره من حديث أمير المؤمنين عليه السلام المنقول سابقاً: «من ذكر الله عزّوجل في السرّ فقد ذكر الله كثيراً إنّ المنافقين كانوا يذكرون الله علانية و لا يذكرونه في السرّ، فقال الله عزّ و جلّ: ﴿يُرَاؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾»[٢].

---

١ . وسائل الشيعة، ج٧، ص١٥٧، ح١٢.

٢ . وسائل الشيعة، ج٧، ص١٦٤، ح٣.



الفصل الثامن: طريق الوصول إلى علوّ الذكر

لا يمكن التحلي بالذكر بمعنىٰ الشهرة و بعد الصيت من دون ذكر الحق؛ لأن الشيء العاري من الحق لا حصة له من البقاء و الدوام: ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾[١]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[٢]، فمن لا تربطه صلة بالله و ذكره يقع في بقعة النسيان و يتبدّل إلىٰ حديث في التاريخ فيقال فيه: كان فيما مضىٰ السلطان الفلاني و الأمير الفلاني و الحاكم الفلاني و...، و لا يوجد له أثر في الحال الحاضر، و إنما هو مدفون في ذهن التاريخ و بين طيات الأوراق، و قد عبّر الله عن مثل هذه الطائفة بالأحاديث: ﴿فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحاديثَ﴾[٣]، ﴿فَجَعَلْناهُمْ أَحاديثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[٤].

و من الواضح بأن الشيء الذي يقطّعه الله و يمزّقه لا يعود إلىٰ حالته الأولىٰ بتاتاً؛ فلا يعلو ذكر شيء أو شخص إلا إذا كانت تربطه بالله و ذكره صلة وثيقة، و من هنا جاء حول رسالة الرسول الأكرم الذي له صلة بالله لا تنقطع أبداً بل هو مظهر اسم الحق و آية ذكر الله الكبرىٰ: ﴿وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٥].

و لم يهب الله لنبيه ﷺ الشهرة و بعد الصيت فحسب، بل رفع ذكره كذلك، فكما أن للمؤمن درجة رفيعة و للمؤمن العالم درجة تفوق ذلك فقد رُفع ذكر الرسول الأكرم ﷺ الذي طبّقت شهرته الآفاق، و بما أن القرآن قد علا ذكره لاشتماله علىٰ ذكر الله فهو يُسبّب علوّ ذكر أتباعه الصادقين أيضاً فقد قال الله سبحانه في هذا الشأن:

---

١. سورة النحل، الآية ٩٦.

٢. سورة القصص، الآية ٨٨.

٣. سورة المؤمنون، الآية ٤٤.

٤. سورة سبأ، الآية ١٩.

٥. سورة الانشراح، الآية ٤.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ﴾[1]، فهذه الآية في الوقت الذي تدعو الناس إلىٰ ذكر الحق، تبشّرهم بفيض علوّ الذكر و نعمة بعد الصيت أيضاً، كما و يمكن استنباط هذا المعنىٰ من بعض الآيات الأخرىٰ كذلك، لأن علوّ الذكر الصادق علامة علىٰ الارتباط بالله و الارتباط بالحق.

و لذا فقد ورد في دعاء أبي حمزة الثمالي مسألة شرعية ناهضة من الوعي و البصيرة: «و أعلِ ذكري»، كما رفعت ذكر النبي ﷺ، و منشأ هذا السؤال هو أن أمة النبي ﷺ تتأسىٰ به: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللهَ كَثيراً﴾[2]، فتتنعّم بالسعادة الدينية و الفيض الإلهي، و إن كانت الفاصلة محفوظة بين الأصل و الفرع و امتياز القائد عن التابع و تمايز المعصوم عن غير المعصوم و الفرق بين الكامل و الناقص و أمثالها.

الفصل التاسع: ذكر الله شفاء

إن اسم الله دواء و ذكره شفاء: «يا من اسمه دواء و ذكره شفاء»[3]. و لابد للتداوي من الألم تناول دواء معلوم و بمقدار معين و كيفية خاصة، كما أن للشفاء من المرض حدود معينة يؤول اجتيازها إلىٰ الوقوع في الخطر؛ و من هنا فلابد للسالك الذاكر لأجل الشفاء من أمراضه من الاقتصار علىٰ ذكر مأثور و بكمية و كيفية محدودة و إلا فلا ينتفع من الذكر العاري من النظم، إلا إذا كان من باب الذكر المطلق و رجاء الثواب فإن له بحث آخر و قد وردت نصوص في لزوم التجنبّ عن الزيادة أو النقيصة فيه نشير إلىٰ طائفة منها.

---

١. سورة الأنبياء، الآية ١٠.

٢. سورة الأحزاب، الآية ٢١.

٣. دعاء كميل.

دليل توقيفية الذكر

١- عن إسماعيل بن الفضل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز و جل: ﴿وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها﴾، فقال: «فريضة على كل مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس عشر مرات و قبل غروبها عشر مرات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد يحيي و يميت و هو حي لا يموت بيده الخير و هو على كل شيء قدير»، قال: فقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك و له الحمد يحيي و يميت و يميت و يحيي، فقال: «يا هذا لا شك في أن الله يحيي و يميت و يميت و يحيي و لكن قل كما أقول»[1].

يظهر من هذا الحديث أنه لا ينبغي أن يدخل في دائرة الأذكار المأثورة كل ما عند الله و يتصف و ينعت به سبحانه إلا ما ورد في القرآن الكريم الذي هو كلام خير الذاكرين أو في كلمات مظاهر أسماء الله الحسنى و هم الكُمّل من الناس كالأنبياء و الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين لا يصدر منهم من تعاليم إسلامية إلا بإرشاد غيبي من الله سبحانه لا من أنفسهم، و لذا جاء في الحديث المذكور: «لا شك في أن الله يحيي و يميت و يميت و يحيي و لكن قل كما أقول»، و هو أن الله يحيي و يميت.

٢- عن العلاء بن كامل قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «﴿وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ عند المساء: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد يحيي و يميت و يميت و يحيي و هو على كلّ شيء قدير»، قال: قلت: بيده الخير؟ قال عليه السلام: «إنّ بيده الخير، و لكن قل كما أقول لك عشر مرات: أعوذ بالله السميع العليم حين تطلع الشمس وحين تغرب عشر مرات»[2].

---

١. وسائل الشيعة، ج٧، ص٢٢٧، ح٤.

٢. وسائل الشيعة، ج٧، ح٦.

فإن تمام الخير و إن كان بيد الله و لا يصل لغيره شيء إلا عبر قدرته، و لكن لا يلزم أو لا ينفع إضافة ذلك إلى هذا الذكر و من أجل الوصول إلى هدف الذكر الخاص لا ينبغي إضافة شيء عليه.

٣- عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في وظيفة عصر غيبة بقية الله عجل الله فرجه بعد نقله للدعاء المعروف «اللهم عرّفني نفسك...» الذي يُعدّ بمثابة البرهان الإلهي على النبوة و الرسالة و حجة الزمان: «ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى و لا إمام هدى لا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق»، قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال: «تقول يا الله يا رحمان يا رحيم يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك»، فقلت: يا مقلب القلوب و الأبصار ثبت قلبي على دينك، فقال: «إن الله عز و جل مقلب القلوب و الأبصار و لكن قل كما أقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[١].

ملاحظة: يتناول هذا البحث مسألة الذكر لا الدعاء، و إن كان الدعاء يستبطن ذكر الله أيضاً، و لذا فإن ما ذُكر في المثال الثالث يرتبط بمسألة الدعاء و خارج عن هذا البحث و نقله في مسألة توقيفية الذكر ليس إلا من باب التأييد.

الفصل العاشر: شمولية الذكر

سبق و أن ذُكر في بداية بحث الذكر بأن كل ما يُحيي اسم الله و ذكره فهو ذكر سواء كان على نحو الأذكار المتعارفة بين الذاكرين أو على هيئة الأفكار المتداولة بين العلماء؛ فإنّ حلقة الدرس مجلس الذكر، و المعلّم و المتعلّم كلاهما مشغولان بذكر الله، و يمكن استظهار هذه المسألة إضافة إلى تحليل معنى الذكر و الاستنباطات العامة من بعض الأحاديث الواردة في هذا الباب أيضاً.

---

١. بحار الأنوار، ج٥٢، ص١٤٨، ح٧٣.

فقد ورد في الخبر: قال لقمان لابنه: «يا بني اختر المجالس على عينيك، فإن رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم، فإن تكن عالماً ينفعك علمك و إن تكن جاهلاً علّموك، و لعل الله أن يظلّهم برحمة فتعمّك معهم، و إذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم فإنك إن تكن عالماً لا ينفعك علمك و إن تكن جاهلاً يزيدوك جهلاً و لعل الله أن يظلّهم بعقوبة فيعمّك معهم»[1].

و الظاهر أن المراد بذكر الله هو تذاكر العلوم الإلهية و ذلك لقوله: فإن رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم، فإن تكن عالماً ينفعك علمك و إن تكن جاهلاً علموك، و غيره من القرائن الواردة في الحديث. و لذا يقول صاحب وسائل الشيعة: قد فهم منه الكليني رحمه الله و غيره إرادة تذاكر العلم فأوردوه في هذا الباب (باب استحباب الجلوس مع الذين يذكرون الله و مع الذين يتذاكرون العلم)، و يقول أيضاً: كثيراً ما يُستعمل الذكر بمعنى العلم في الأحاديث[2].

تنبيه، دائرة ذكر الله

بما إنّ الذكر بمعنى التذكّر لا يختص باسم معيّن، و يعدّ التذاكر العلمي في المعارف و الأحكام من المصاديق البارزة لذكر الله، و لذا فإن حوزة التعليم و التعلّم تدخل في دائرة ذكر الله و كلّ ما يترتّب على مطلق الذكر (لا الذكر الخاص) من أثر يترتّب على التذاكر العلمي كذلك، فما ورد على سبيل المثال من مجالسة الله مع الذاكرين يشمل حوزة التعليم و التعلّم أيضاً.

فقد روي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مكتوب في التوراة التي لم تغيّر أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال: يا رب أ قريب أنت مني فأناجيك أم بعيد

---

١ . وسائل الشيعة، ج٧، ص٢٣١، ح٢.

٢ . وسائل الشيعة، ج٧، ص٢٣١ و ٢٣٢.

فأناديك؟ فأوحى الله عز و جل إليه يا موسى أنا جليس من ذكرني»[1]. و إطلاق الحديث يشمل كل ضروب الذكر سواء الذكر المناجاتي أو المناداتي أو الذكر العلمي و الحوار الفكري و الديني.

ملاحظة: الانسجام بين ذكر الله و التفكر العلمي

إنّ بين ذكر الله و التفكّر العلمي العميق انسجام كامل و كلّ يؤيّد الآخر و يستمدّ من الآخر، فإنّ ذكر الله يُسبّب تعزيز البنية العلمية و ازدهار الفطنة و التذاكر العلمي يسوق الروح إلى الترنّم بذكر الله، و كلما أصاب أحدهما الخمول و الأفول ساقه الآخر إلى الحيوية و النشاط، و إن كان المولى الرومي يعتبر الذكر بمثابة الشمس التي تسوق الفكر الخامل الآفل إلى النشاط و الحركة:

يكفي القول و عليك بالفكر، فإن كان جامداً فالتزم الذكر
فإنّه كالشمس ينشّط الفكر و يُزيل عنه خموله[2]

و في الختام جدير أن يُقال: سبحان من جعل الاعتراف بالعجز عن الذكر ذكراً[3].
اللهم أذق الشائقين التائقين حلاوة ذكرك.

* * *

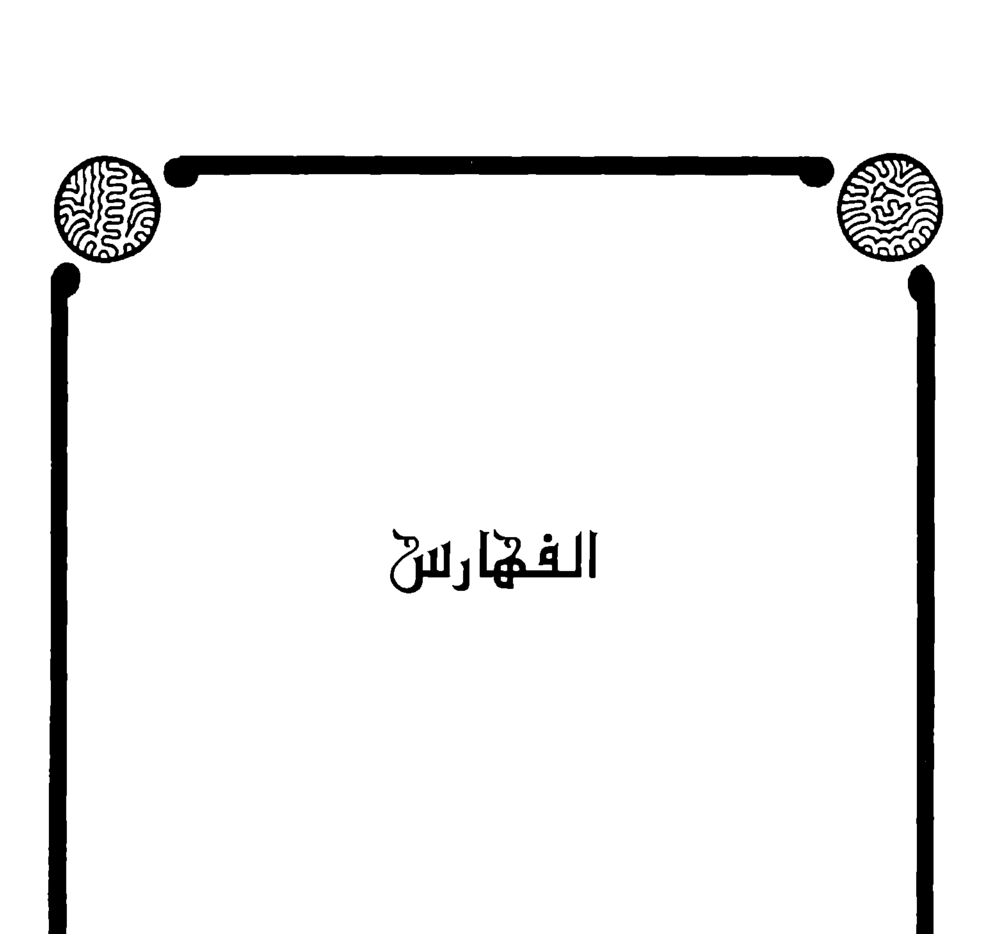
---

١ . وسائل الشيعة، ج٧، ص٤٩، ح٢.

٢ . بيتان بالفارسية في مثنوي معنوي، الكتاب السادس، و هذا نصهما:

اين قدر گفتيم باقي فكر كن — فكر اگر جامد بود رو ذكر كن
ذكر آرد فكر را در اهتزاز — ذكر را خورشيد اين افسرده ساز

٣ . هذا اقتباس ممّا ورد في الشكر (الصحيفة السجادية الجامعة، الدعاء ٦).



الفهارس

فهرس الآيات

● **سورة آل عمران (٣)**





فهرس الروايات





الحديث | الصفحة

● **الإمام الحسين** عليه السلام

● **الإمام السجاد** عليه السلام

الحديث	الصفحة

● **الإمام الباقر عليه السلام**





فهرس المصادر

الأربعون حديثاً: أبو الفضائل محمد بن الشيخ حسين العاملي، المعروف بالشيخ البهائي (ت١٠٣١ هـ)، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

إرشاد القلوب: محمد الديلمي، من أعلام القرن السابع، تحقيق السيد هاشم الميلاني، منشورات الأسوة، ١٤١٧ هـ.

الاختصاص: الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، تصحيح علي أكبر غفاري، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي.

أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ)، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العربية، بيروت.

الإشارات و التنبيهات: أبو علي سينا (٣٧٣ ـ ٤٢٧ هـ)، مع شرح الخواجة نصير الدين الطوسي و شرح الشرح لقطب الدين الرازي، طبعة الحيدري، ١٣٧٧ هـ.

الأمالي و المجالس: ابن بابويه القمي، المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٠ هـ.

إقبال الأعمال: السيد بن طاووس (ت ٦٦٤ هـ)، دار الحجة، قم، ١٤١٨ هـ.

الأمالي: الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ)، ترجمة حسين أستادولي، مؤسسة الدراسات الإسلامية، ١٤٠٦ هـ.

بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: العلامة محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١٠ هـ)، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

تفسير البرهان: السيد هاشم البحراني (ت ١١٧٠ هـ) مؤسسة دار التفسير إسماعيليان، قم، ١٤١٧هـ.

تفسير البيضاوي: أسرار التنزيل و أسرار التأويل، القاضي ناصر الدين البيضاوي (ت ٧٩١ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ.

تفسير صدر المتألهين: محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي، (ت ١٠٥٠ هـ)، منشورات بيدار، قم، ١٤٠٨ هـ.

تفسير العياشي: محمد بن مسعود بن عياش السمرقندي، من أعلام القرن الثالث، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، ١٣٨٠ هـ.

تفسير مجمع البيان: أبو علي أمين الإسلام الطبرسي (٤٦٨ ــ ٥٤٨ هـ)، عشرة أجزاء في خمسة مجلدات، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ.

تفسير محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ): و هو نفس كتاب التأويلات للمولى عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق الدكتور مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت.

تفسير نور الثقلين: ابن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ)، تصحيح رسولي محلاتي، إسماعيليان، الطبعة الثانية، قم.

تهذيب الأحكام: شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق السيد حسن الموسوي الخرسان، بيروت، ١٤٠١ هـ.

التوحيد: الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري و السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام: شيخ الفقهاء محمد حسن النجفي (ت ١٢٦٦ هـ)، دار إحياء التراث الإسلامي، الطبعة السابعة، بيروت.

الخصال: الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، تصحيح علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الخامسة، قم.

روضة المتقين: شرح من لا يحضره الفقيه، المولى محمد تقي المجلسي (١٠٠٣ ــ ١٠٧٠ هـ)، تحقيق السيد حسين الموسوي الكرماني، مؤسسة كوشانبور للثقافة الإسلامية.

سر الصلاة: الإمام الخميني ﷺ، مؤسسة نشر و تنظيم تراث الإمام، الطبعة الثانية.

سفينة البحار و مدينة الحِكَم و الآثار: المحدث الخبير، الشيخ عباس القمي، منشورات الأسوة، ١٤١٦ هـ.

سيرة ابن هشام: دار إحياء التراث العربي، بيروت.



شرح غرر الحكم و درر الكلم: عبد الواحد الآمدي (ت ٥١٠ هـ)، الشارح جمال الدين محمد الخوانساري، منشورات جامعة طهران، ١٤١٥ هـ.

شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (٥٨٦ ـ ٦٥٦ هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٥ هـ.

شذرات المعارف: آية الله محمد علي الشاه‌آبادي، حركة النساء المسلمات، رجب ١٤٠٢ هـ.

صحاح اللغة: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد بن عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤١٠ هـ.

علم اليقين: الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)، تحقيق محسن بيدارفر، منشورات بيدار، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.

الغارات: ابن هلال الثقفي، من أعلام القرن الثالث، تحقيق السيد عبد الزهراء الحسيني، مؤسسة دار الكتب الإسلامية، ١٤١٠ هـ.

فلاح السائل: العلامة السيد علي بن طاووس (ت ٦٦٤ هـ)، مركز نشر مكتب الإعلام الإسلامي، قم.

الكافي: الأصول و الفروع و الروضة، محمد بن يعقوب الكليني الرازي (ت ٢٣٨ هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٤٠١ هـ.

كنز العمال في سنن الأقوال و الأفعال: العلامة علاء الدين علي المتقي (ت ٩٧٥ هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥ هـ.

مجمع البحرين: الشيخ فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ)، تحقيق السيد أحمد الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية.

المحاسن: أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت ٢٧٤ هـ)، تحقيق السيد مهدي الرجائي، المركز العالمي لأهل البيت عليهم السلام، الطبعة الثانية، ١٤١٦ هـ.

المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)، تصحيح علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، قم.

مستدرك الوسائل: الحاج الميرزا حسين النوري (١٢٥٤ ــ ١٣٢٠ هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الثالثة، ١٤١١ هـ.

معاني الأخبار: الشيخ الصدوق، ابن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)، تصحيح علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي.

من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق، ابن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)، دار التعارف، بيروت.
النهاية: ابن الأثير الجزري (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
نهج البلاغة: السيد الرضي، محمد بن حسين بن موسى (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ)، تحقيق صبحي الصالح.
وسائل الشيعة: الشيخ الحرّ العاملي (ت ١١٠٤ هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم، ١٤١٤ هـ.

فهرس الموضوعات





